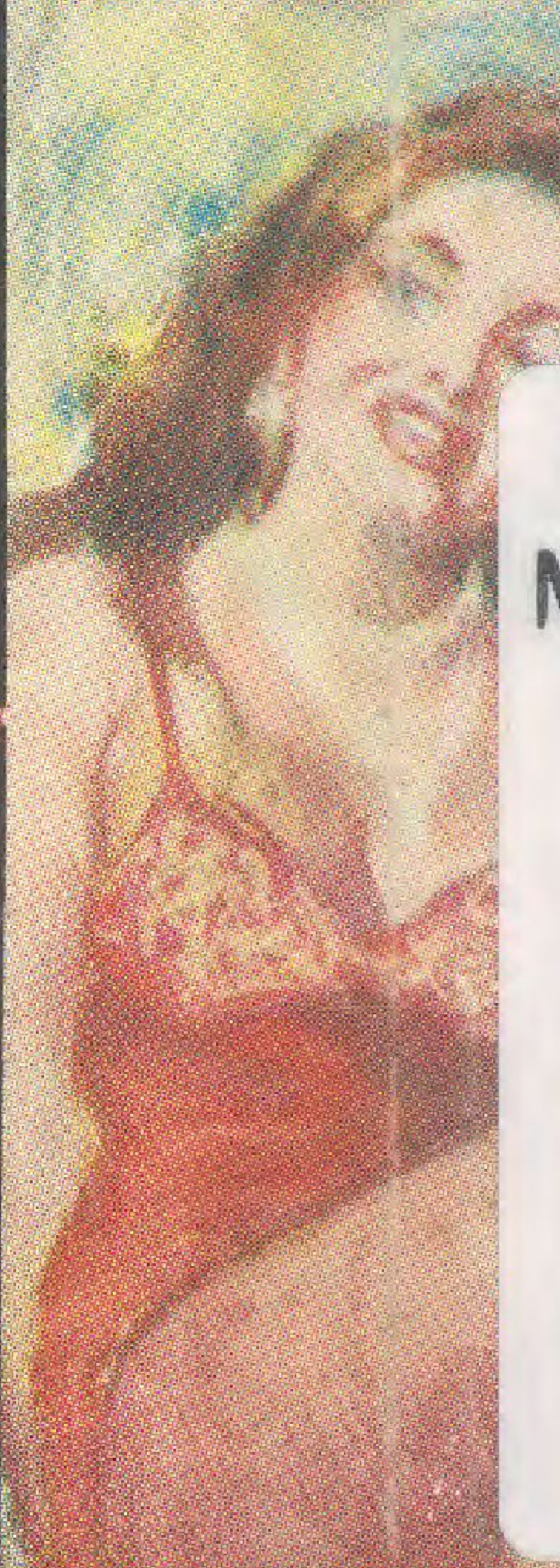
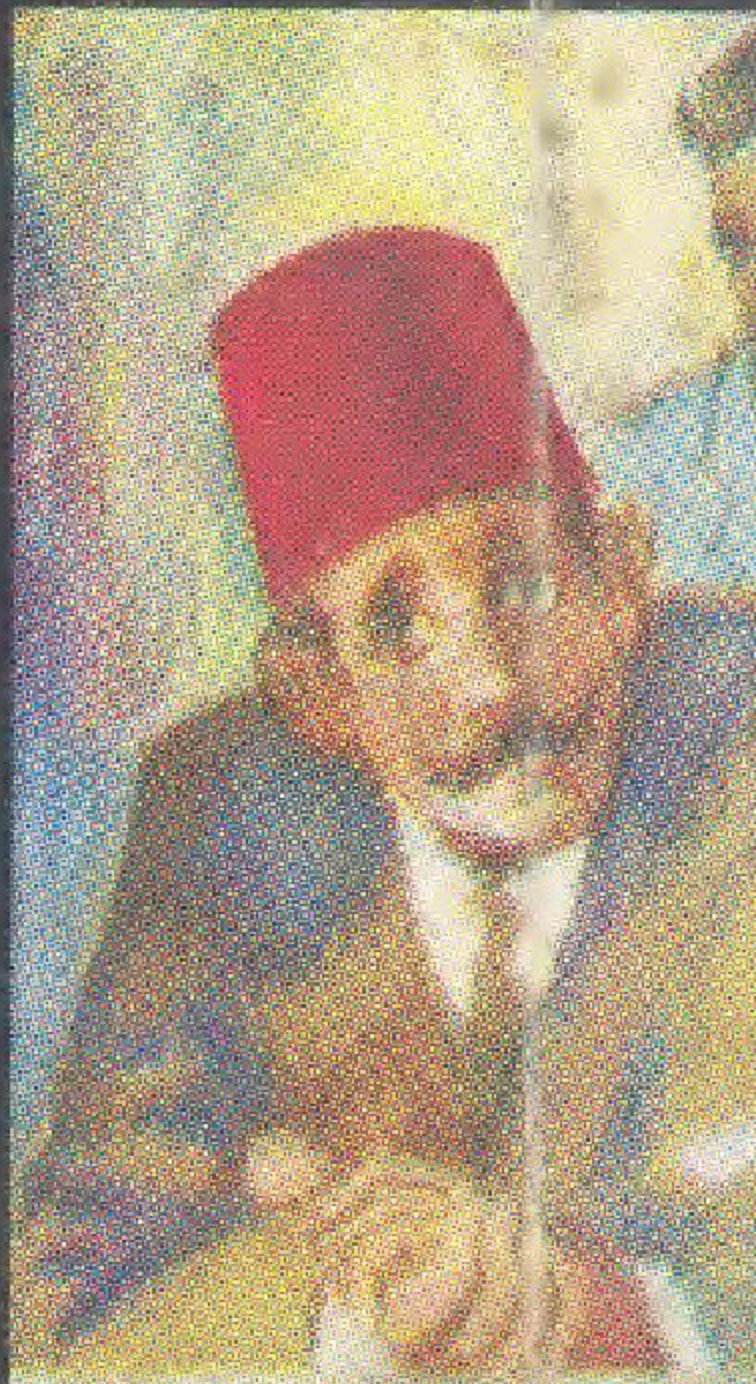
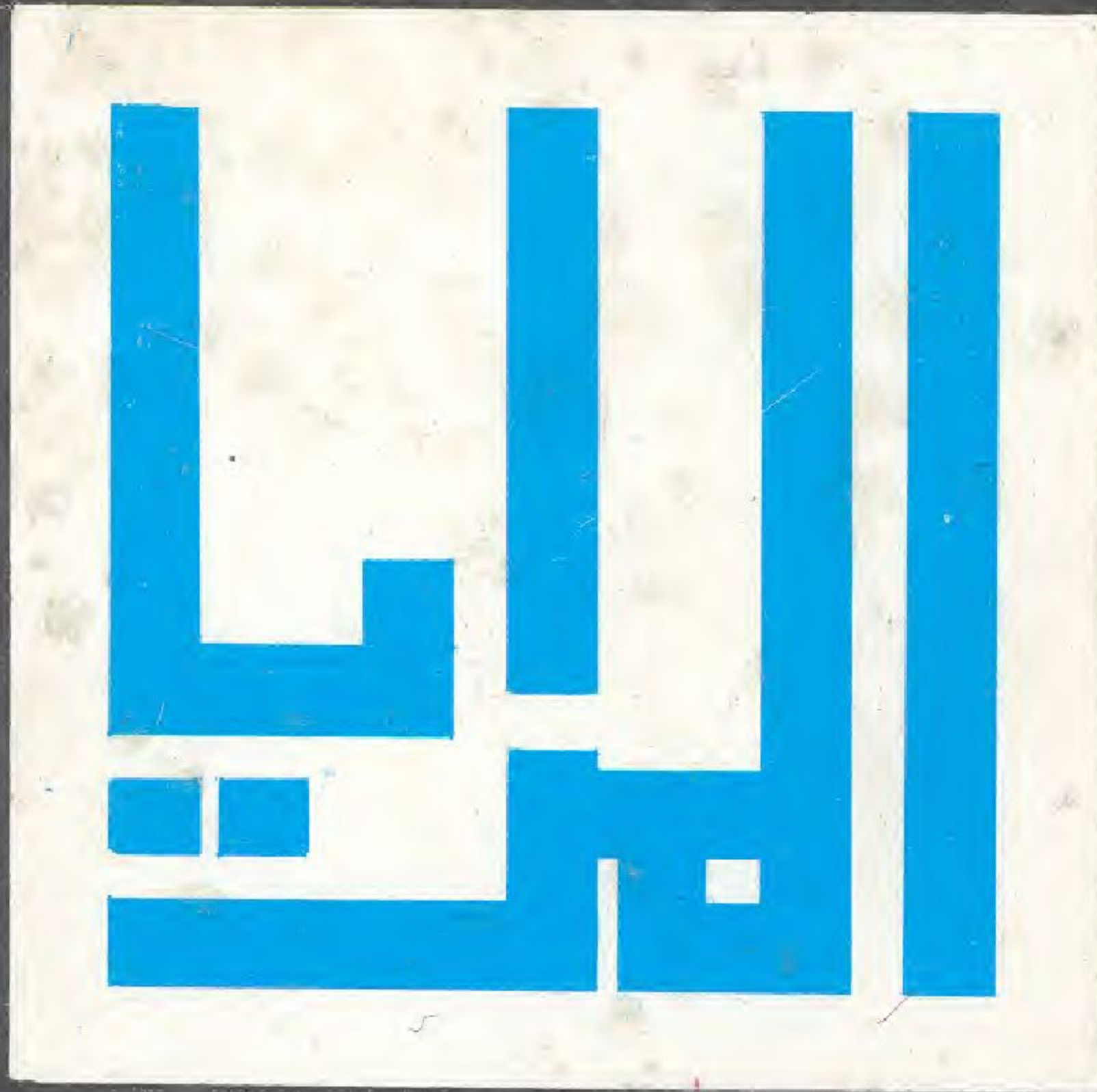
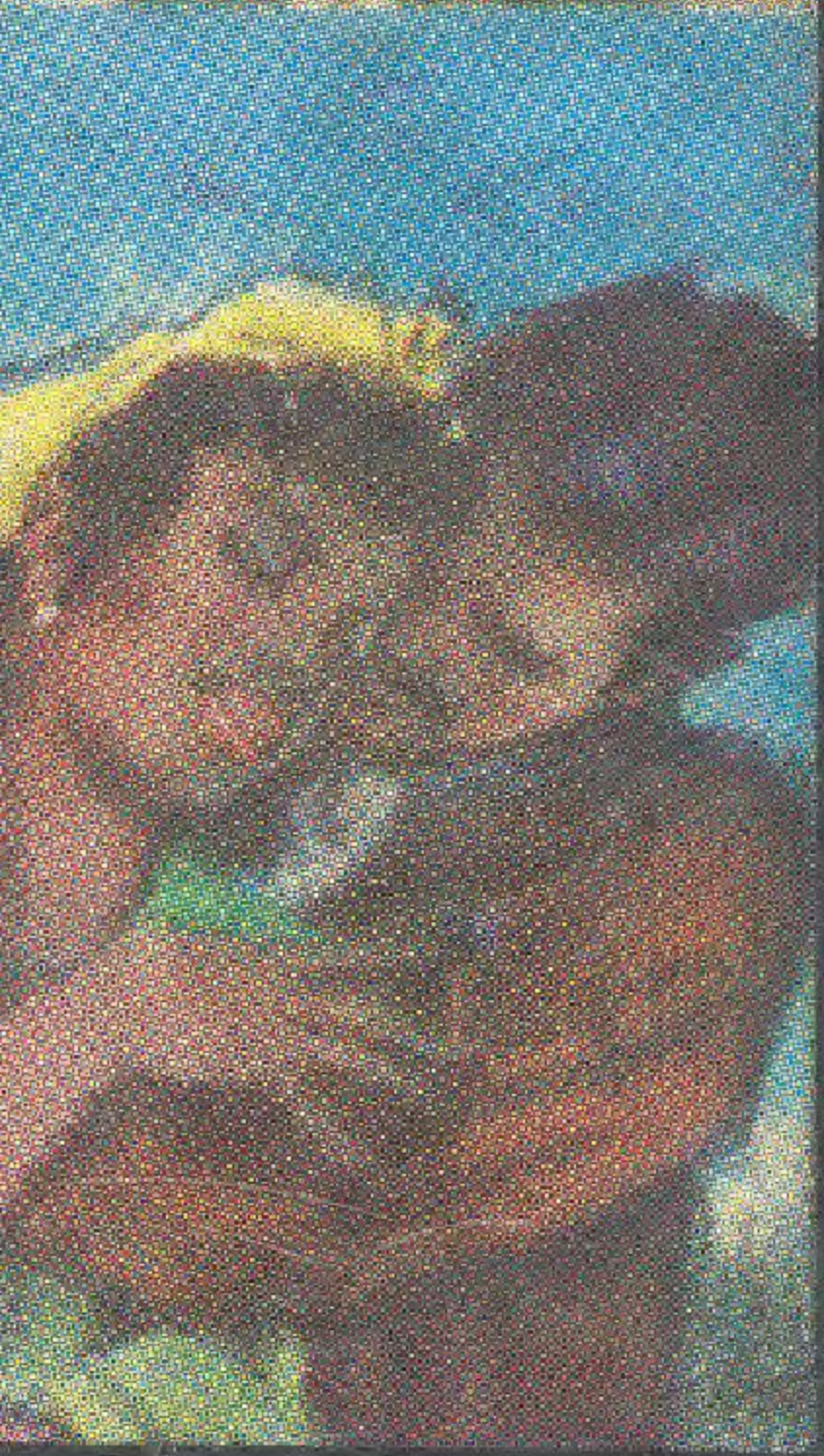


نجيب محفوظ



مكتبة مطر

طبرخان بکتنہ مرمر

المراآت

تالیف

نجیب محفوظ

الناشر : مکتبہ مصر
۲ شارع کاملہ صدقۃ النعمان

دار مصدر للطباعة

۳۷ شارع کاملہ صدقۃ

ابراهيم عقل

سمعت أول ما سمعت عن الدكتور ابراهيم عقل في مقالة للأستاذ سالم جبر • لا فكرة لي الآن عن موضوع المقالة ولكنه ذكر في سياقها الدكتور ابراهيم عقل باعتباره عقلا فذا بشرف في وقت ما بثورة فكرية في حياتنا الثقافية لولا وشابة حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه ، ردها شخص لا خلاق له زاعما بأنه - الدكتور ابراهيم - طعن في الاسلام ضمن رسالة الدكتوراه التي قدمها للسربون • وشن على الدكتور هجوم ناري في عديد من الصحف والمجلات ، فاتهموه بالالحاد ، وتبنى آراء المستشرقين المبشرين لنيل الدكتوراه على حساب دينه وقومه ، ثم طالبوا بفصله من الجامعة • واهتز الدكتور من جذوره حيال الحملة العاتية ، ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة ، ولا قبل له بتحدى الرأي العام ، فضلا عن حرصه على وظيفته وشدة حاجته اليها ، فأنكر التهمة ، وذافع عن عقيدته ، وتوسل بكثيرين - على رأسهم صديقه وزميله في هيئة التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم - لاختفاء الفتنة واسترضاء مؤججيهها • ولما التحقت بالجامعة عام ١٩٣٠ وجدته أستاذا مساعدا بها • والظاهر أن المحنة التي مر بها

علمته كيف يركز نشاطه فى دروسه الجامعية وينسحب من الحياة الفكرية خارج جدران الكلية • ولاحظنا أن همته يطويها الفتور والملال ، وأن دروسه أقرب الى انتوجيهات العامة منها الى المحاضرات الدسمة التى يلقيها علينا زملاؤه . رغم ما تمتع به من صحة وحيوية ، ونضج تربع فوق الأربعين من العمر • وما لبث أن انقلب فى مجالسنا نادرة ودعابة • ومرة سألته فى أثناء مناقشة بقاعة المحاضرات :

— لم لم تؤلف كتباً يا دكتور ؟

فرماني بنظرة متعالية وئال بصوته الجهورى :

— أتظن أن عالم الكتب فى حاجة الى مزيد ؟

فجعل يهز رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال :

— لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرتين !

ثم بامتعاظ وازدراء :

— ومع ذلك فلو عددنا الكتب المتضمنة جديداً من الفكر

لما غطت سطح زقاق !

ولم يكن من النادر أن ألقاه فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بقصره الكبير فى المنيرة • وما أكثر من عرفت من أهل الفكر فى ذلك الصالون العتيق ، وما زلت حتى اليوم أتردد عليه وإن تغير مكانه وزمانه • وثمة ذكرى لاجتماع فيه ترد على خاطر بوضوح ويسر كلما استدعتها الظروف والأحوال • ولعل الدكتور إبراهيم عقل كان أقرب الحاضرين تجانساً مع البهو الكلاسيكى الفخم بجسسه العملاق ومهابته الطبيعية

ونظرته الزرقاء الذكية • وعلى غير المؤلف خاض الحديث فى
شئون السياسة • وكنا نتجنبها اكراما لأستاذنا صاحب
الصالون لعلمنا المسبق بنفوره من الأحاديث الانفعالية ، ولكونه
من المنتمين الى الحزب الوطنى بحكم أسرته ونشأته على حين
أن تلاميذه جميعا كانوا من شباب الوفد • غير أن الانقلاب
الذى قام به اسماعيل صدقى فى ذلك التاريخ طوق المشاعر
وضغط على الأفكار فلم يكن من اليسير تجاهله • وتكلم كثير
من الطلبة الحاضرين حتى قال الدكتور ابراهيم عقل :

— ان حياتنا الدستورية مكسب ولكنها فى الوقت نفسه
فخ !

فتحفر الشبان للنصال ولكنه قال :

— انحرف الجهاد الوطنى عن غايته الأولى « عرقنا فى
معاركنا الحزبية ، ولدى كل انقلاب يحدث رد فعل فظيع فى
العلاقات والأخلاق ، ويوما بعد يوم تفتت البناء الشامخ
الذى ورثناه عن ثورة ١٩١٩ » .

فقال أحد أفراد مجموعتنا الشابة :

— بناء الشعب غير قابل للتفتت •

ابتسم أستاذنا ماهر عبد الكريم ، وتفكر قليلا ، ثم قال
بصوته الناعم الهامس :

— شعبنا مثل الوحش المذكور فى بعض الأساطير الشعبية
يستيقظ أياما ثم ينام أجيالا •

فعاد الدكتور ابراهيم عقل يقول :

— لن نضار البتة إذا استمسكنا بالمثل العليا •
وجعل ينقل عينيه الزرقاوين بن وجوهنا المتحفزة ثم كرر
ينبرة منغومة :

— المثل العليا •• المثل العليا •
وكان يردد لها كثيرا في ماضياته عن الأخلاق حتى أطلق
عليه زميلنا عجلان ثابت « دكتور مثل العليا » •
ولعل الدكتور تذكر موجة الالحاد التي كانت تجتاح
الكلية في ذلك الوقت فقال :

— أرجو ألا تعتبروا المثل العليا نتيجة لعقيدة دينية ،
اعتبروها إذا شئتم المنبع الذي تدفقت منه العقيدة نفسها ••
فقال شيخ أزهرى لا يحضرني اسمه الآن :

— السياسة ترمى بنا كل يوم في محنة جديدة ••

فقال الدكتور إبراهيم عقل باصرار :

— المثل العليا ، حسبنا أن تبقى لنا ••

فقال الأستاذ سالم جبر وهو غائص بجسمه البدين في
فوتيل وثير :

— يا سيدى الدكتور ما الأخلاق الا علاقات اجتماعية ،
وعلينا أن نغير المجتمع ••

فسأله بهدوء :

— أقرأت كتاب برجسون عن أصل الأخلاق والدين ؟

فقال سالم جبر باستهانة :

— انى أقرأ برجسون كما أقرأ قضية حالة !



فقال له الدكتور ماهر عبد الكريم :

— انك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت فى روسيا منذ أربعة عشر عاما ، وهى تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة ••

فقال سالم جبر بحدة :

— نحن لا نعرف عن روسيا الا ما نقرأه فى صحف الغرب وكتبه •

وحلت هدنة ريثما نشرب أقداح القرفة وننعم بحشوها الطيب من البندق والياوز والجوز • ثم خرق الهدنة شاب قائلًا :

— لا حل الا القضاء على أحزاب الأقلية الطامعة فى الحكم •

فقال سالم جبر :

— هذه ترجمة ركيكة لصراع الطبقات •

ولكن الدكتور إبراهيم عقل قال :

— ان رئيس الوزراء يزعم أنه يسعى للحصول على الاستقلال فلندعه يسع !

— وان فرض علينا معاهدة مثل تصريح ٢٨ فبراير ؟

فقال الدكتور بشيء من العنف :

— الاستقلال الحقيقى فى المثل العليا وبنك مصر !

طالما عذبني التناقض بين تناول الأوساط الشعبية للسياسة وتناولها فى الأوساط الثقافية الرفيعة ، فهى هناك انفعال

مضطرم سرعان ما يسيل دماً : وهى هنا مناقشات متفلسفة
لا تخلو من تثبيط للهمم وتخيب للآمال •

فكرت فى ذلك ونحن راجعون من قصر المنيرة ، وتبادلنا
الآراء فى سرعة محبومة :

— لابد من ثورة !

— أيكفى الاضراب لاشعال ثورة ؟

— هكذا قامت ثورة ١٩١٩ فيما يقال •

— كيف قامت ثورة ١٩١٩ ؟

— ما أقربها وما أبعدا ••

وفى صيف ذلك العام قابلت الدكتور — كان بصحبته
أسرته المكونة من زوجة وغلامين — فى كازينو الأنفوشى
بالاسكندرية • كنت أجلس هناك فى الصباح — عقب
الاستحمام — فأشرب القهوة وأقرأ الصحف ، وأشاهد فى
الموقت نفسه ما يجرى على مسرح الكازينو من بروفات للعروض
المسائية رغم نفورى الطبيعى من الغناء الافرنجى •

وقدمنا الدكتور الى حرمة وأظنها كانت مفتشة بوزارة
المعارف • ولاحظت بسرور غرامه الأبوى بابنيه وملاطفاته
لهما مما دعا زوجه لاعلان استنكارها لتدليله لهما • واستمالنى
لأول مرة بعواطفه الأبوية ، فلم أكن أكنّ له احتراماً يذكر
لعزوفه عن التأليف ، ولعدم إخلاصه فى عمله • وما أعجبني
فيه الا: منظره وخفة روحه وسخريته الموهبة بالتفلسف •
وسألنى :

— أتستحم عادة فى الأنفوشى ؟

فأجبت :

— ان أمواجه أهدأ بكثير من الشاطبى •

— عندما يتم بناء الكورنيش سيتغير وجه الاسكندرية •
فوافقته على قوله فقال باسمنا :

— ولكنكم تكرهون اسماعيل صدقى !

فقلت وأنا أدارى العواطف المريرة التى استفزها ذلك
الاسم :

— ليس بالكورنيش وحده يحيا الانسان •
فضحك قائلا :

— لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى •

ثم أشار الى زوجه وقال :

— والدتها — حماتى — عضوة فى اللجنة الوفدية
للسيدات •

فرمقت السيدة بامتحان اكراما لوالدتها •

وفى مطلع العام الدراسى تولى الدكتور ابراهيم عقل
منصبا جامعا كبيرا ولكنه اغتال فى سبيله جميع مثله
الطليا • كانت الهتافات العدائية للسراى تتردد فى جنبات
الوادى • ونشرت جريدة التيمز أن مظاهرة فى أسوان هتفت
لمصطفى النحاس رئيسا للجمهورية ، وانقسمت البلاد الى
أقلية موالية للملك وأغلبية معادية تكاد تجهر بعدائها • وإذا
بالدكتور ابراهيم عقل ينشر مقالة فى الأهرام يدعو فيها

للولاء لصاحب العرش وينوه بأيادي أسرته على نهضة البلاد
وبخاصة محمد علي وإسماعيل • كانت أزمة تهاوت فيها القيم
الى الحضيض وتقوضت كرامات الكثيرين من الرجال • ورمى
الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن حتى صفوفهم لم تبرأ من
فساد • عصر الزلازل والبراكين المتفجرة • عصر احباط الأحلام
وانبعاث شباطين الانتهازية والجريمة • عصر الشهداء من
جميع الطبقات • وظل الدكتور يخطر بيننا ، متظاهرا بالثبات
والشجاعة ، ييطالعنا بنظرات متحدية تخفى فى أعماقها احساسا
بالهزيمة والذنب • ونا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على
حين نضم له الاستهانة والسخرية • الاستهانة والسخرية
أجل ، لا البغضاء ولا الرغبة فى القتل ، كما شعرنا بهما نحو
كثيرين من رجال السياسة • لم تكن شخصيته تثير شيئا من
ذلك ، وكان لخفة روحه ومناورات البهلوانية خليقا بأن يتبدى
لنا مهرجا أو دجالا لا شريرا أو سفاكا للدماء أو عدوا حقيقيا
للشعب •

— وفى اليوم الأخير للدراسة ، ونحن ذاهبون لعطلة
قصيرة نتقدم بعدها لامتحان الليسانس ، دعانا الى الاجتماع
به فى مكتبه • كنا عشرة ذكور ، هم طلاب الليسانس للقسم
الذى يرأسه الى جانب منصبه العام •

أجلسنا أمام مكتبه وراح ينقل بين وجوهنا عينيه الزرقاوين
مطيلا الصمت والتأمل ، وأبتسم وهو يهز رأسه فى تعال
ساخر ، وقال :

— نحن على وشك الفراق ولا يجوز الفراق بلا كلمة ••

وعاد ينقل بصره بيننا مواصلا هز رأسه % ثم قال :

— طالما خمنت ما دار بنفوسكم يوما ، ولكن ليس الأمر
كما توهمتم !

ها هو يطرق الموضوع بعد صمت طويل • صمت طويل
جدا • ولكن علينا أن نلزم أنفسنا الأدب والحذر • علينا أن
نذكر أننا سنمتحن فى كل مادة تحريريا وشفويا معا • وعلينا
أن نذكر أن من حق مجلس القسم تعديل نتيجة الامتحان —
بصرف النظر عن الدرجات الحاصل عليها الطالب — لتتفق
مع مستواه العام كما يقرره الأساتذة • كل ذلك يضعنا تحت
رحمته بلا مراجع ولا معقب • وواصل حديثه قائلا :

— المسألة أننى وجدت أناسا يخطبون وأناسا يعملون
فاخترت الانضمام الى العاملين • وكلنا فى النهاية مصريون •
ولذنا بالصمت ألا واحدا فقال بجرأة :

— ان من يخطب مطالبيا بالاستقلال والدستور خير ممن
يبنى الكورنيش ويسفك الدماء ••

كان القائل يدعى اسحق بقطر ، وكان الغنى الوحيد
فيها ، وكان سيمضى عقب الامتحان الى مزرعته عند مشارف
القاهرة لزراعة أفخر أنواع الزهور • ولم يغضب الدكتور
ابراهيم عقل • ابتسم وقال شئ من الأسى :

— ليس كالسياسة مفسدة للعقل ••

ثم بنبرة تنهى بالرجاء :

— الحقيقة ، اعبدوا الحقيقة عبادة ، ليس ثمة ما هو
أثمن ولا أجل منها فى الوجود ، اعبدوها واكفروا بأى شئ
بتهددها بالفساد •

ظللنا ملازمين انصمت ، متذكرين الامتحان الشموى وحق
مجلس القسم ، أما هو فعاد يقول :

— لن أناقش بقطر ، لن أتفوه بكلمة فى السياسة ، انما
دعوتكم لتلقى نظرة معا على المستقبل ••

فانتشر الارتياح فى نفوسنا كالضوء • نجونا من مزلق
السياسة وما هو يفتح باب المستقبل الذى نرقبه بوجوم
قاتم مذ صدرت القرارات الوزارية بوقف التعيينات والترقيات
والعلاوات لأجل غير مسمى • ماذا بقى لنا من أمل وماذا عند
أساتذتنا من وعود ؟ • قال :

— هذه أيام أزمة ، أزمة تطلحن العالم كله وليست بخاصة ،
ببلادنا كما يصور البعض ، ماذا أنتم فاعلون ؟ !
وسكت قليلا ثم قال :

— لن تجدوا وظيفة بالسرعة المطلوبة ، ولن تكونوا أسرة
فى أجل قريب ، وربما تفاوتت بينكم الحظوظ ••
وتلقى نظراتنا التى اطفأ نورها الفتور بانتسام
وقال :

— حتى الفرص الضعيفة التي يفوز بها الطبيب أو المهندس أو الحقوقي في الميدان الحر ، حتى هذه الفرص لا نصيب لكم فيها ، ولكن يبقى نكم شيء هام ، جوهرة لم يتعود أحد أن يتحلى بها بعد !
فاشتعلت أعيننا بالاهتمام مرة أخرى فواصل حديثه قائلاً :

— أمامكم طريق الحقيقة والقيم !
تذكر كل منا آله وحبيبته والآمال المعقودة على الوظيفة المنتظرة ، أما هو فقال :

— تخففوا من غلواء الطموح الدنيوى وأرضوا من الدنيا بما تجود به أما الشوق للحقيقة فلا ترضموا له حدا !

ترى أذعانا الرجل ليعذبنا ويبخر منا ؟
— أن الجوس تحت شجرة في يوم صاف خير من امتلاك عربة •

أنت تقول ذلك يا من بغت جميع القيم من أجل ••
— أن حكمة الحياة هي أئمن ما نفوز به من دنيانا ذات الأيام المحدودات ••

وما غادرنا الكلية حتى انفجرنا ضاحكين من عنف المفارقة واليأس • واستبقنا إلى نعته بكل قبيح :

— الوغد •

— المهرج •

ـ الدجال •

ومنذ تخرجنا فى الكلية انقضى زمن طويل ثم أراه فيه مرة واحدة • غاب عن عيني كما غاب عن وعيى الأسمى النادر من المناسبات • وكان يتجنب صالون الدكتور ماهر عبد الكريم منذ وثوبه الانتهازى إلى الوظيفة الكبيرة أن يتعرض لهجوم بعض المتطرفين فاقتضرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة • لذلك مرت ثلاثة عشر عاما دون أن أراه حتى عرضت مناسبة غير سارة ، بل مناسبة مؤسفة غاية الأسف إذا فقد ابنه الوحيد فى وباء الكوليرا الذى اجتاحت البلاد عام ١٩٤٧ • عانيت صدمة وأنا أتلقي الخبر ورجعت بى الذاكرة إلى كازينو الأنفوشى وهو يلاعب الغلامين • يا لها من ذكرى ويا لها من نهاية • وذهبت إلى الجيزة للاشتراك فى تشييع الجنازة • جنازة مؤثرة مفعمة بالأشجان • وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى • ولا أظنه عرفنى وأنا أقدم له العزاء ، لم يتلفت إلى أحد ، ولم يهتم بشئ مما يدور حوله • ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيته خفض جفنية على دمع تفجر رغم أصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر • وعند منتصف الليل دعانى الدكتور ماهر عبد الكريم إلى مراقبته فى سيارته إلى المدينة • وفى أثناء الطريق تتمم بعطف :

— الله معه ، انها كارثة لا تحتل ..

فوافقته على رأيه وكنت فى الحقيقة متأثرا جدا فعاد
يقول :

— ولكن حديثه أقلقنى !

فسألته عما أقلقه فأجاب :

— جعل يقول بنبرة متهدجة ان الموت جميل ، وانه
مظلوم ، وانه لولاه لما كانت للحياة قيمة ..

فصمت متفكرا فعاد أستاذى يقول :

— الله معه ..

غاب الدكتور ابراهيم عقل عن عيني مرة أخرى وان
لم تغب عنى مأساته طويلا . وفى صالون قصر المنيرة علمت
بما طرأ عليه من أحوال فى الأعوام التالية للحادث . قيل
أنه أصبح يرى كثيرا فى جامع الحسين . وأنه يمضى الساعات
متربعا أمام المقام . وفى كآمة أنه يتدروش ويسلم للإيمان
تسلما بلا قيد ولا شرط . وأثار مسلكه الكثير من الجدل
عن الايمان بصفة عامة ، والايمان بالنشأة ، والايمان
بالاقتناع ، والايمان بسبب الكوارث ، وايمان الفلاسفة ،
وايمان العجائز ، وكان ماهر عبد الكريم يفند كل حجة يأنس
منها هجوما ولو من بعيد على مسلك صديقه القديم .
وفى عام ١٩٥٠ ترك الدكتور ابراهيم عقل الخدمة لبلوغه
السن القانونية فتفرغ تماما للدروشة . وفى يوم من عام
١٩٥٣ صادفته أمام الباب الأخضر بحى الحسين — ذاهبا

أو راجعا من الجامع لا أدري — فجذبتني طلعتة المهيبة المجلة
بالمشيبي • واقتربت منه ماذا يدى للمصافحة فصافحنى وهو
يحدجنى بنظرة لا يلوح فيها أنه عرفنى ، فلما ذكره بنفسى
هتف بصوته الجهورى :

— أنت ! • كيف حالك ؟ • ماذا تفعل ؟

فلما أجبته قال :

— لا، تؤاخذنى فأنا لا أقرأ •

وسايرته حتى موقف سيارته فى ميدان الأزهر وهناك
سألنى :

— ماذا يدور فى الدنيا ؟

فذكرت من الأمور ما رأيته جديرا بالذكر منوها بصفة
خاصة بالثورة الجديدة فقال :

— هبوط صعود ، موت بعث • مدنى عسكرى ،
فلتسر الدنيا فى طريقها أما أنا فأنى أستعد لرحلة
أخرى •

وغاب عنى من جديد حتى قرأت نعيه عام ١٩٥٧ على
ما أذكر • : أطرف ما سمعت عنه بعد ذلك ما قيل من عثور
ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية فى الجمال لديوان
« ازهار الشر » لبودلير لم يعرف بالضبط تاريخ ترجمته •
ولما كان ابن أخيه هو الوريث الوحيد له — توفيت زوجته فى
العام السابق لوفاته — فقد أذن بنشره ، وهكذا بقى اسمه فى
المكتبة العربية مقرونا باسم بودلير على ديوان «ازهار الشر» •

ولا خلاف في الرأي عن الدكتور ابراهيم عقل بين طلبته ، فقد اعتبروه — بلا استثناء — مهرجا • ولكن ثمة مفكرا له وزنه مثل الأستاذ سالم جبر كان يراه ضحية لمجتمع فاسد وان لم يغفر له انهزاميته • وذات يوم قال لي أستاذي ماهر عبد الكريم بصوته الهامس :

— انكم تظلمون ابراهيم عقل •

فلم أتكلم احتراما لعواطفه نحو صديقه ، فقال :

— انه عقلية فذة ، وكان يبهنا بذكائه ونحن في السربون •

فقلت :

— لم يفد أحد من ذكائه شيئا ••

فقال متجاهلا تعليقى :

— وهو الوحيد في مصر الذي يتمتع بعقل فلسفي ، بالنظرة الشاملة للأشياء ••

ونظر إليّ باسمنا ثم استطرد :

— لم يخلق كاتباً ، ولكنه مصدر موهوب ، نوع من سقراط ، اخص أصدقاء الحميمين بزبدة أفكاره ، وطرح أيسر ما عنده على الناس •

فقلت له :

— لعله يحتاج إلى أفلاطون جديد ليرد إليه اعتباره !

ولكنه أندثر فلم يبق منه إلا مأساة وترجمة نادرة لأزهار البشر •

أحمد قدرى

يقترن أحمد قدرى فى ذاكرتى بالشهد والفظائر المشلقة
والسينما ، كما يقترن بواقعة لا تنسى • وهو قريب لى من
أسرة ريفية ، كان يفد إلينا فى بعض المواسم لقضاء أيام
فى القاهرة • وكانت اقامته تنقضى فى اللعب فى شوارع
العباسية الهادئة المحفوفة بالحقول والحدائق • كنت فى
التاسعة أو العاشرة وكان يكبرنى بخمس سنوات ، وكان وحيد
أبويه ، وكان عفريتا بكل معنى الكلمة • واقترح ذات مرة
القيام برحلة ، ولكى يؤكد براءتها استأذن والدى فى أن
يصطحبنى معه • وذهبت معه مرتديا بدلتى القصيرة • وقال
لى ونحن فى طريقنا الى محطة الترام :

— سأشتري لك بسكوتا بشرط •

فسألت عن الشرط فقال :

— أن تحفظ تماما ما سأقوله لك ثم تردده عند

عودتنا ••

فسألت عما ينبغى لى حفظه فقال :

— اننا ذهبنا الى سينما أوليمبيا وشاهدنا فيما لشارلى

شابلن •

فوعده بذلك وأخذت البسكوت ثم ركبنا الترام ،

وغادرنا الترام فى شارع لم أره من قبل ، فمضى بى من حارة الى حارة فى عالم جديد وغريب ومثير • وجرنى من يدى الى مدخل بيت آية فى الغرابة كان يجلس فى دهليزه ثلاث نساء يبهرن النظر بألوان وجوههن وملابسهن ولا يبالين أن ينكشف من أجسادهن ما ينكشف فوق السيقان وتحت الأعناق • نهضت اليه احداهن فأجلسنى مكانها وهو يقول :

— لا تتحرك من مكانك حتى أرجع اليك ••

ووصى بى المرأتين ومضى بصاحبته الى الداخل • وركزت بصرى فى بلاط الدهليز المعصرانى متجنباً النظر الى المرأتين ، شاعرا فى الوقت نفسه بأن مخالفة خطيرة ترتكب على كذب منى ، ومتابعاً من حين لآخر صوت احدى المرأتين وهى تغنى « يوم ما عضتتى العضة » • ثم مالت نحوى الأخرى فسألتنى :

— هل معك نصف ريال ؟

فأجبت بالنفى فسألت :

— معك كم ؟

فأجبت بخوف وأدب :

— شلن •

— عال ، تحب أفرجك على شىء لطيف لم تره ؟

— ولكنه قال لى ألا أتحرك ••

— دقيقة واحدة فى هذه الحجرة أمامك ••

— كلا !

— لا تخف ، مم تخاف !

وأخذتني من يدي الى الحجرة وأغلقت الباب وهي
تقول :

— هات الثلثين ..

فأعطيتها اياه بلا تردد فقالت وهي تمسحني بعينها :

— اخلع بدلتك ..

فقلت بفزع :

— كلا ..

واذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامي عارية • رأيت امرأة
عارية لأول مرة • ملأنتني الحركة المقتحمة المستهترّة فزعا •
وملأني المنظر الذي رأيتُه خطفاً فزعا أشد • تراجعت نحو
الباب وأنا أنتفض •

فتحت الباب وهرولت الى الخارج وضحككتها المائعة
التموجة تتعقبني كثعبان • وتلفتني المرأة الأخرى بقهقهة •
وأشارت الى الكرسي كي أجلس • ولكني وقفت في وسط
الدھليز لا أريد أن ألمس شيئاً ولا أريد لشيء أن يلمسني •
وجعل المتسكعون خارج البيت ينظرون الى في دهشة ويطلقون
في وجهي أبشع النكات • وللبث أعاني محنة وأى محنة حتى
رجع أحمد فسألني بفتور :

— مالك واقف كالديديان ؟

فقبضت على ذراعه كالمستغيث فمضى بي الى الخارج ،
ولم تكن العودة يسيرة كالذهاب اذ صادفتنا مظاهرة ضخمة
فشق طريقه خلال أزقة جانبية وأصوات الرصاص تدوى في

الجو • ولما جلسنا في القرام سألني بنبرة الممتحن :

— أين كنا يا بطل ؟

فأجبت من فم جاف :

— في سينما أوليمبيا •

— ماذا شاهدنا ؟

— شارلي شابلي •

— عظيم ، ولكن مالك مخطوف الوجه ؟

— لا شيء •

— ضايقتك المرأتان ؟

— كلا ••

وجعل يراقبني بقلق ثم عاد يسألني :

— مالك ؟

ففاض بي الحزن حتى كدت أبكي فسألني بقلق :

— مالك ؟

فقلت بمرارة :

— لا شيء ، انه شيء خاص جدا ، دورا ، ليست دورا

جميلة كما توهمت ••

— دورا ! •• من هي دورا ؟

— حبيبة دان ••

— ومن هو دان ؟

— بطل المغامرات ، ألم تقرأ مجلة الأولاد ؟ !

— أولاد ؟ ! •• بم تهذي ؟ •• أبسط وجهك ، لن نرجع

الى البيت حتى ترجع الى حالتك الطبيعية !



لم يعلم بمدى شغفى بدوراً ، ولم يدر بأنى تخيلت جسدها
من الماس النقى ! •

ولكن بصفة عامة كانت أيامه بالقاهرة من أسعد أيامى •
علمنى كرة القدم والملاكمة ورفع الأثقال ، وأمتعنى بنوادره
الفكاهية ، وكان يقلد شابلىن فى مشيته ، ويغنى المنولوجات
المشهورة ، ويحاكى عمدة القرية وشيخ الخفراء • وانتقل
والداه الى القاهرة فأقاما فى عابدين فلم يعد يزورنا الا كل
حين ومين • وتعثرت فى دراسته الثانوية فاختار الالتحاق
بمدرسة البوليس • وعقب تخرجه عين فى القاهرة لتقدمه ،
وشغل بحياته الجديدة فانقطع عن زيارتنا وبتنا كالغرباء •
لم أره طيلة عمله الأول بالقاهرة الا خطفا ومصادفة وهو
يتسلل خارجا من سراى عصام بك عقب مغامرة غرامية •
وتوفى والداه وكدت أنساه تماما ، بل نسيت حتى ذكرتيه
الحوادث فى أثناء الحرب العظمى الثانية وما تلاها بعد أن
اختير عضوا فى البوليس السياسى • لم يعد أحمد قدرى
بأحمد قدرى الذى عرفته ، انقلب شخصية مخيفة تنسج
حولها أساطير الرعب ، سلّ سوط عذاب فى أيدي الطغاة
يلهبون به الوطن والوطنيين • وكنت أسمع عنه وأتعجب ،
كيف استحال الظريف الماجن شيطانا من شياطين العذاب ،
كيف يمثل بالشبان من ذوى العقائد الحرة فيجلدهم ويطفىء
السجائر المشتعلة فى جفونهم ويخلع بالآلات العذاب

أظافرههم ! • وحدث أكثر من مرة أن نوقش مسألة على مسمع منى في بعض مجالس الأصدقاء من أهل الفكر والوطنية مثل رضا حمادة وسالم جبر وغيرهما ، وقيل انه ما دام لا توجد ثورة شاملة فلا أقل من أن توجد جمعيات سرية لممارسة الاغتيال السياسى دفعا عن الشعب الأعزل • و قد حدثت بالفعل محاولة لاغتياله أمام نادى محمد على ولكنه نجا بأعجوبة وأفلت مما سموهم وقتها بالجناة الهاربين • وعقب ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم الى التحقيق فاكثفى بإحالة الى المعاش ، ومضى بالنسبة الى " يذوب فى ماء النسيان " حتى دعيت فى خريف ١٩٦٧ تليفونيا الى المستشفى الأنجلو أمريكى • هناك وجدته راقدا مصابا بأزمة قلبية • لم أعرفه لأول وهلة • جاوز الستين وذكرنى بصورة أبيه فى أيامه الأخيرة • قال :

— معذرة عن ازعاجك ••

فشجعتة بما حضرنى من كلمات فقال :

— لا أحد لى غيرك فى الواقع ••

ثم بصوت هامس :

— لكى تدفئننى اذا قضى الأمر •

فعدت الى تشجيعه • وخلوت الى الطبيب مستعلما فأكد لى أنه اجتاز مرحلة الخطر وأن صحته بعد ذلك تتوقف على إرادته • ولما سمع بتلك المعلومات قال :

— عندى أكثر من داء ! •

فخمنت وراء قوله الخمر والنساء والقمار ، فقلت :

— تجنب الانفعال لكى تتجنب أزمة أخرى •
فقال باستهانة :

— انها آتية لا ريب فيها !

وجعلت أنقب فى وجهه المريض عن الوحش الضارى
الذى نشر الفزع فى الزمان القديم أو الشاب المهرج
الظريف ولكن عبثا ، ولم يكن فى صدرى حياله إلا شعور
بالواجب • وعلمت أنه يقيم بشقة صغيرة بالزمالك وأنه
لم يتزوج طبعاً ، وأنه لم يعد له من صديق سوى نفر من
كهول اليونانيين المدمنين لسباق الخيل • وهز رأسه ثم
غمغم :

— يخيل الى أننى انتهيت كما انتهوا ••

ففطنت على البداهة الى من يعنى • كان • يونانية
ما زال ممتزجا بريقنا كالعلقم • وأدركت من فورى مدى
الحقد الذى عاشه منذ حالته على المعاش • وكرهت مناقشة
شماثته المنغصة بسوء حاله لتحديثها الجارح لمواطنى
الشخصية • وعلى أى حال نم تتحقق نبوءته السوداء فيما
يتعلق بحياته أو حياة الثورة • غادر المستشفى عقب ذلك
بثلاثة أسابيع • وزارنى فى بيتى للشكر • تبدى فى حال
صحية مقبولة وراح يغازل ذكريات الجيل السابق • وطيلة
الوقت وجدت اغراء لا يقاوم فى نبش ماضيه الغريب ، حتى
وانتنتى الفرصة فقلت :

— أتدرى أننى لم أكن أصدق ما يقال عنك ؟

خيل الى أنه تجأهل قولى تماما • اقتتعت بأننى

أخطأت . ولكنه قال وكأنه يقرر حقائق لا علاقة لها بحدثي :
— يحدث أحيانا أن تصدم سيارة أحد المارة فتترديه
قتيلا . . .

وأشعل سيجارة متحمدا أولى نصائح طبيبه ثم قال :
— من الخطأ أن نحمل السيارة تبعة ما حدث ، التبعة
تقع على السائق أو الطريق أو المصنع أو الضحية نفسها
أما السيارة فلا ذنب لها . . .
وقال أيضا :

— لم لم نعذب أحدا في عهد الوفد ؟ المسألة أنه يوجد
نوعان من الحكومة ، حكومة يجيء بها الشعب فهي تعطى
الفرد حقه من الاحترام الانساني ولو على حساب الدولة ،
وحكومة تجيء بها الدولة فهي تعطى الدولة حقا من التقديس
ولو على حساب الفرد . . .
وقال أيضا :

— لم نعذب أحدا بالمعنى الذي تظنه ، كنا نصب العذاب
كما تملأ أنت الاستثمار ٥٠ ع . ح . ، أو كما تكتب تقريرا بناء
على طلب الوزير ، عمل ليس الا له مقاييسه من الاتقان وتقديره
في حساب الواجبات العامة ، وإذا وجد بيننا من يغالي في
عمله أو ينفذه بلذة خفية أو ظاهرة فكما يوجد أحيانا في
أوساطكم من يفرط في العمل ليداري نقصا أو تعاسة
ملحة . . .

وفي أثناء الحديث ثبتت عيناه على صورة قائمة على
منضدة فنظر اليها مليا ثم تساءل :

— أليس هذا هو الدكتور إبراهيم عقل ؟
فقلت بدهشة :

— بلى ، بين بعض الزملاء القدامى وبعض الأساتذة ،
أكنت تعرف الدكتور عقل ؟

— كلا ، ولكن ظروفًا معينة جعلتني أتابع ما كان ينشر له
من صور في الصحف ..

— أى ظروف يا ترى ؟ !

تفكر طويلاً ثم قال :

— لعك تذكر وفاة ابنه ؟

— أجل ، هلكا فيمن هلك من ضحايا وباء الكوليرا ..
فضحك قائلاً :

— يبدو — والله أعلم — أن الكوليرا لم تكن هي الجانية ..
فهتفت بذهول :

— ماذا تقول ؟ !

— رئيسى رحمه الله همس لى يوما فى مجلس صداقة
حميمة بأنهما قتلا !

— قتلا ؟ !

— اضبط أعصابك ، ذاك تاريخ مضى وانقضى ..

— ولكن كيف قتلا ومن الذى قتلها ؟ !

— لا شئ مؤكد ، صدقنى لا شئ مؤكد ، حتى رئيسى

نفسه لم يكن لديه أكثر من همس ، تسلك اليه خير عن غرام
امرأة هامة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل فى بيت خلوى

بالطريق الصحراوى ..

— أعطنى مزيداً من المعلومات ••

— لا مزيد عندى ، ولا شىء مؤكد ، صدقنى لا شىء

مؤكد ••

وأصر على موقفه فلم أجد مبرراً لتكذيبه • وقد أفضيت
بما بلغنى منه الى أستاذى !دكتور ماهر عبد الكريم فأبدى
من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الهادىء من قبل • وقال لى :

— لا أصدق أن المرحوم إبراهيم عقل كان يخفى عنى

سراً ••

— لعل صلة الأمر بالسراى ألزمته بالصمت ••

فهز رأسه وهو فى شك وحيرة ، وقررت تناسى الموضوع
من أساسه • أما أحمد قدرى فقد اختفى من حياتى مرة
أخرى • وكنت ألمحه أحياناً فى مقهى فنكس وسط نفر من
كهول الخواجات ، وفى أوائل عام ١٩٧٠ رأيتَه — من بعيد —
ساراً فى ميدان طلعت حرب • وثبت لى من تهلك شذقيه
أنه خلع أسنانه ، ولكن صحته بدت خيراً مما توقعت •

أمانى محمد

كان المؤلفون واسطة التعارف بين أمانى محمد وبينى •
بدأت حديثها بالتحيات والمجاملات المعروفة • واستأذنتنى
فى طرح أسئلة عن بعض المناقشات التى تتابعها فى التلفزيون •
وأنست منها اهتماما بالفن ورغبة فى التزود ببعض المراجع
وحماسا للقاء تتم به الفائدة • دعوتها الى مكتبى ولكنها عالنتنى
بنفورها من جو المكاتب واقترحت لقاء فى الخارج • وتم
اللقاء فى استراحة الهرم فى أواخر ربيع عام ١٩٦٥ • توقعت
أن تجيئنى طالبة أو خريجة حديثة العهد بالتخرج • ولكن
التي أقبلت كانت امرأة ناضجة ، فى الأربعين ، ريانة أبدن
ملونة العينين ، تخطر على الحد الفاصل بين حرية المرأة
العصرية وبهرج الغانية • ولدى رؤيتها غازلنى شعور مستفز
بأن الفن لن يكون — وحده — ثالثنا • لم يهزنى قبول ولا صدنى
رفض فسلمت أمرى للظروف • جلسنا فى طرف الحديقة المطل
على المدينة ونظراتنا المتبادلة تعكس الحياء والترقب • قالت
بلسان يحور الرأء غينا :

— معذرة عن جرأتى ••

ثم كالمستدركة :

— كان لابد أن أقابلك ••

- فأكدت نها سرورى باللقاء فقالت :
- ان فراغ حياتى لن يملأه الا الفن ، ومن حسن الحظ
أننى لا أخلو من استعداد .
- سيدتى موظفة ؟
- كلا ، ولا حاصلة على شهادة عالية ، الثانوية العامة
فقط ، ولكنى قارئة ممتازة ، وكتبت أكثر من تمثيلية اذاعية .
- لم يسعدنى الحظ بسماعها .
- لا غرابة فى ذلك .
- وتفضلت باغداق الثناء فشكرت لها تقديرها فقالت :
- انى بحاجة الى مراجع تاريخية لأواصل الكتابة .
- مطلب يسير فيما أعتقد .
- أود أن أكتب عن أشهر : ساء الشرق وبخاصة اللاتى لعبن
أدوارا خالدة فى الحب .
- موضوعات شائقة .
- فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت :
- أطمح أن تشترك معى فى العمل .
- فاعتذرت بلا تردد قائلاً :
- ابنى مشغول بأعمال أخرى .
- ممكن أن تمدنى بالمراجع والمادة العلمية وأن تشترك
فيما يعجبك من الموضوعات .
- سأهذيك الى المراجع .
- ولكنها تجاهلت اعتراضى وقالت وهى ترمى بنظرتها الى
رعوس أشجار الحور تحتنا :

— سنعمل فى الأحداثق ••

ثم بعد توقف قصير :

— الا اذا تفضنت بتشريف بينى •

نجحت الغزوة الجديدة فى اقتحام ترددى فتساءلت :

— بيتك ؟

— لم أعرفك بحالتى الاجتماعية ، انى مطلقة ، أقيم

مع خالتى العجوز ، ولى ابن وابنة يقيمان مع والدهما •

— لكن خالتك ؟ !

— لا عيب فى العمل ••

ثم وهى تنظر بعيداً :

— يمكن تدبير الأمر لنهىء جوا صالحا للعمل •

— ولكن ••

— ولكن ؟

— أصارحك بأنه من المؤسف ألا تنعم سيدة مثلك بحياتها

الزوجية ••

فقالت بامتعاض :

— لم تكن حياة موفقة ، ولا يوماً واحدا ••

— عجبية •

— علمنى كيف أمقته ، ولم أحبه من قبل •

— ولم قبلت الزواج منه ؟

— زوجت اليه وأنا بنت ستة عشر ، أبعد ما تكون عن

المنضج وبلا وزن لرأى •

— زيجات سعيدة كثيرة بدأت كذلك .

— انه أنانى نذل متوحش .

لم تشأ أن تنتقل من العموميات الى التفاصيل ففتن اهتمامى بالموضوع ، وبخاصة وأنه أصبح من ذكريات ماض بدا أنه ذهب الى غير رجعة . حتى الفن نفسه تراجع الى الهامش وذاب فى الظلام . وبجركة غير متوقعة تسالت يدها البضة فاستقرت فوق يدى على طرف المائدة :

— انى فى حاجة الى انسان أطمئن اليه . .

ورغم احتمال المبالغات بن الأكاذيب فانى شعرت نحوها بعطف ورثاء . ومع ذلك سألتها مداعبا :

— يهيك الفن لهذا الحد ؟

فقالت ضاحكة :

— الفن والحياة !

ولكننا نسينا الفن والتاريخ ونحن نتجول فى صحراء الهرم . تركزت همومنا فى الواقع المعاصر : واقع البيت بالذات . وخالتها بصفة خاصة ، سنها الطاعنة ، ونومها الثقيل ، وحواسها الضعيفة . .

— الا اذا أردت أن نلتقى فى بيت آخر !

وباندماجى فى المؤامرة تدفق طوفان الرغبة فى دمي فقلت :

— ليكن اليوم .

ولكنها قالت بسرور وبلا مكر :

— أمهلنى حتى أهيبء الجو . .

وعندما جمعتنا !الحجرة هفت على حواسى أخلاط روائح
مركزة من العطر والبرفان والخمر تسبح فى أمواج نور أحمر
خافت فردتنى الى ذكريات بعيدة ما كنت أتصور أنها سنعود •
وجدتنى مرة أخرى موثقا بالحرير مذعنا لرغبة سكرى بيقظة
مباغته ، وبلا حب بالمعنى الحقيقى • أما أمانى فكانت متفانية
فى المودة ، اهتدت الى مرفأ بعد تخطيط فى ليك بهيم ، لهفة
بلا حدود على الحب والحنان يزفرها قلب محروم من الحب
والأمومة والثقة • وجعلت تصارحنى بخباياها فى لقاءاتنا
المتتالية :

— حالتى المالية حسنة ، ليس لدى ما أشكوه من هذه
الناحية ••

أو تقول :

— ربنا يسامح بابا ويرحمه ، كان السبب ••

أو تقول :

— لا أمان لشبان هذه الأيام ، ربنا يحفظ بنتى ••

وتضخم شعورى بالمسؤولية ، وكان يستفحل كلما تذكرت
بأن حياتنا المشتركة تقوم على غير أساس مشترك ، وأنه
لا يمكن أن تمضى هكذا الى الأبد ، وأن العطف والجنس
لا بكفيان لاستتباب الأمن فى أسرتنا ذات الجناح ائواحد •
وذاات يوم من أيام العام نفسه — أواخر الصيف أو أوائل
الخريف • زارنى فى مكتبى الأستاذ عبده البسيونى ، تذكرته
من أول نظرة رغم التغير الهائل الذى طرأ عليه • ورحبت به

بحرارة كأننا لم نفترق حوالى ربع قرن على الأقل • ترى ماذا
غيره بهذه الدرجة رغم أنه لا يكبرنى بأكثر من بضعة أعوام ؟ •
وسألته :

— ماذا تفعل الآن ؟

ولكنه تجاهل سؤالى وسأل بدوره :

— لعك تسأل عما دعانى الى زيارتك بعد ذلك العمر من
الانقطاع ؟ •

— لعله خير يا زميلى القديم •

فقال وهو يرمقنى بهدوء :

— انى أزورك بصفتى زوج أمانى محمد !

مرت ثانية وأنا لا أعى لقوله معنى وفى الثانية التالية
انفجر معناه فى وعيى كصاروخ • الحق أنى غبت عن الوجود
بمعنى ما ، تلاشى المكان والزمان ، لم أعد أرى الا وجه عبده
البسيونى الأسمر المستدير ، كأنه وجه شخص آخر ، وجه
تمثال يفوم إمام مكتبى منذ الأزل • لم أنبس بكلمة ، وطبعاً
لا فكرة سى عن الصورة التى انطبعت فوق صفحة وجهى ، ولكنه
هز رأسه بهدوء وقال بنبرة مستأنسة :

— لا داعى للجزع •

وابتسم ابتسامة ما وقال :

— لا علم لك بشيء ••

ثم بتوكيد :

— لم أحضر للانتقام •

مضيت أرجع الى مقعدي وحجرتي ولكن شعورا حادا
اجتاحني بأن دنيای على وشك التصدع والقتلاشى •
وسمعه يقول :

— من حسن الحظ أن الأيام التي عشتها فى باريس لم
تضع عبثا !

وقلت وأنا مستسلم تماما للمقادير :

— لعلك تعنى امرأة أخرى •

— أعنى المرأة التي كنت عندها أمس !

— ولكنها مطلقة !

— بل هي على ذمتي وأنا زوجها !

فغمغمت :

— يا لها من كارثة !

— لم أزرک بدافع غضب أو انتقام •

— ولكني أموت أسفا وحزنا •

— لا ذنب عليك •

ثم بامتعاض شديد :

— وما أنت الا آخر صيد لها !

— ماذا ؟

— مرة ومرة ومرة ، وفى كل مرة أتدخل لانقاذها من

التدهور ، لانقاذ مستقبل ابني وابنتي ••

— يا لها من حياة ! •• ولكن ••

وتريئت مرهقا ثم عدت أتساءل :

— ولم تتحمل ذلك كله ؟

— لا مفر ، انى أرفض تطليقها رغم مطالبتها به •
— لم ؟
— هى أم ابنتى وابنى ، وهما فى طور المراهقة ، والطلاق
يعنى لها التدهور حتى الاحتراف !
— قد تتزوج مرة أخرى •
— لم تعد أهلا لذلك !
— موقف عسير محزن •
— نذلك فانى مصمم على استردادها ، وانقاذ ما يمكن
انقاذه ، ومن حسن الحظ ان حياتى فى باريس لم تضع
هدرا !

فقلت بحزن :

— ما أبغض الحياة اذا فسدت ••
— أجل ، لعلها حدثتك عنى ، وعندى أيضا ما أقوله ،
ولكنى مصمم على انقاذ ما يمكن انقاذه ••
فقلت متأسفا :

— ما تصورت يوما أن أقف منك موقفى هذا !
فلم يكثرث لأسفى هذه المرة • أشعل سيجارة وراح يدخن
متفكرا • بدا لى هرما متهدما • ثم نظر الى قائلا :
— أنت تذكر بلا شك حياتى الماضية !!
أجل أذكر • زمالته فى الجامعة • سفره الى باريس فى
بعثة خاصة على حسابه • عودته بعد عامين أو ثلاثة بلا نتيجة •
انتخابه عضوا بمجلس النواب • تمتعه بجاء الأسرة والحزب
والنيابة • قلت :

— طبعا أذكرها ..

فقال :

لما قامت ثورة يوليو لم أجد تناقضا بينها وبين فكرى
الحر ..

— معقول جدا ..

— وعملت فى نطاقها بإخلاص ولكنى اتهمت ظلما فى
مؤامرة اتهم بها بعض أقطاب الحزب فقبض علىّ حينئذ ثم
صودرت أملاكى ..

وجمت لا أجد ما أقوله فقل :

— وجدت نفسى فى الطريق متسولا !

— ولكن حرمك ذات مال !

فضحك قائلا :

— أفقر من الفقر نفسه ، لها حالة غنية ولكن لها وريثا ،

ولعلها كذبت عليك فى ذلك أيضا •

وشملنا الصمت حينئذ حتى قلت :

— أذلك ما أفسد حياتكما ؟ •

— كلا ، لقد توثبت للعمل الجدى من أول يوم ، كرست

وقتى وما أزال للترجمة والاقتباس ، واستعنت على النشر

ببعض الزملاء القدامى المنتشرين فى الصحف والمجلات ، غير

أن أخلاقى تغيرت فى سياق المحنة ، ونشب نزاع متواصل بينى

وبينها ..

— ولكن تلك أمورا طارئة يمكن مغالبتها •

— كان قد فسد الأمر •

— خسارة فادحة وغير مقبولة ..

— انها حمقاء ، غير جذبرة بالمحافظة عليها لولا مصلحة
ابنى وابنتى ..

وصمت لحظات ثم قال بنبرة اعتراف :
— ضربتها مرة وأنا فريسة لجنون الغضب فلم تغفرها

لى ..

— يؤسفنى ما صادفك من سوء حظ ..

فقال بنبرة متجددة :

— ائى أطالبك بقطع علاقتك بها ..

فقلت وأنا لا أصدق بالنجاة :

— طبعاً ..

— وأن تحاول اقناعها بالرجوع الى بيتها ..

— سأبذل جهدى وفوقه ..

فقال وهو يلوح بحركة قاطعة :

— حسبنا كلام فى هذا الموضوع البغيض ..

تنفست من الأعماق • وجعل يتذكر عهدنا القديم • وذكر

فيمن ذكر الدكتور ابراهيم عقل وأستاذنا الدكتور ماهر عبد
الكريم • قال :

— لقد انقطعت عن صالوته منذ سفرى الى باريس ولكنى

زرتة مرارا زيارات خاصة ، وأفكر فى الرجوع الى اجتماعات

الصالون ..

وهز رأسه قائلاً :

— لقد ضاعت أراضى أسرته فى الاصلاح الزراعى ، وباع

قصر المنيرة وابتاع فيلا فى مصر الجديدة أنتقل اليها صالونه

العتيد •

— أعرف ذلك فأنا من المترددين عليه بانتظام منذ
عام ١٩٣٠ ••

فراح ينوه بنشاطي وتقدمي ثم قال :

— انى أكدح بلا انقطاع للمحافظة على كرامتي ••
— أنت مثال طيب •

— ولدى مشروعات ترجمة لا حصر لها •• كتب • مسرحيات
•• قصص سينمائية ••

— عظيم •• عظيم ••

— ولكن تلزمني عقود مع المؤسسات الثقافية ••
— اعرض ما لديك ••

فسكت قليلا ثم قال :

— قيل لى انه لا جدوى من العرض وحده ؟
فتساءلت متبالتها :
— ماذا تعنى ؟

— قيل ان الوصول قد يقتضى مالا ولا مال لدى !

— لا تصدق جميع ما يقال !

— أو أن أكتب مقالات نقدية تقديرا للبارزين فى

المؤسسات ••

— قلت لا تصدق ••

— أنا على استعداد لتقرير أن أى بغل فيهم أعظم من

أحمد شوقي ولكن المتنافسين فى التقدير لم يدعوا مجالا
لخص مثلى لم يعرف كناقذ من قبل ! •• وفضلا عن ذلك فلست
أذاعيا ولا تلفزيونيا لأدعوهم اننى برامج أو أعرض أعمالهم ،

فلم يبق أمامي إلا الطريق الطبيعي وهو كما تعلم غير
طبيعي ..

وضحك لأول مرة فشعرت بالإنجاة أكثر ، وخاولت تبديد
ظنونه وتشجيعه • وقام وهو يذكرني بمطلبه الأصلي فقلت له :
— سأبذل ما فوق طاقة الإنسان ..

وقد بررت بوعدى • وما أن طرقت الموضوع حتى هتفت
أمانى :

— الوحش وصل اليك !

واحترقت عيناها بنار الغضب فذكرتها بواجبها نحو ابنها
وأبنتها فصاحت :
— أنت لا تعرفه !

فقلت :

— بل أعرفه من قديم ، ليس سيئًا كما تتوهمين ، وهو
خير من كثيرين ..

— كلا .. أنت لا تعرفه ..

فأصبرت على نصحتها فصاحت :

— كفى .. لا تضطهدنى ..

— بل لى عليك عتاب ، كيف تخفين عنى علاقتك الزوجية
وأنت تعلمين أنه يطاردك ؟

فهتفت :

— لا غيرة عنده ألبتة !

— انه يحب ابنه وأبنته ..

— بل يحب نفسه وحدها ..

— المسألة ..

فقاطعتني بحدة :

— المسألة أنك لا تحبنى ..

ثم وهى تجفف عينيها :

— مات الحب فى هذه الدنيا منذ زمن بعيد ..

ثم رمتني بنظرة عتاب وقالت :

— لم تقل لى انك تحبنى ولا مرة واحدة : ولكنى
لا ألومك ..

فقلت معذرا :

— أنت تستحقين الحب! أما أنا فلم أعد أهلا له ..

— كلام .. كلام .. كلام ..

— ستجدين فى بيتك ما هو أهم !

رجعت وفى أعماقى شعور بالتححرر والنجاة والندم ثم
اجتاحنى حزن عميق • وظل احساس حاد بالرثاء يطاردننى
نحو زميلى القديم عبده البسيونى وزوجه أمانى محمد •
وتوقعت أن يتصل بى ولكنه لم يفعل • وأردت أن أتصل
بها لأطمئن عليها ولكنى لم أجد فرصة ولا وسيلة • والتقيت
بعد ذلك بأزمة متفاوتة وفى أماكن مختلفة بعبده البسيونى
فأشعرنى سلوكه بأنه يتقدم فى طريقه المرسوم بأرادته
الكادحة • وفى ١٩٦٨ أو ١٩٦٩ • وكنت سائرا بشارع رمسيس
أمام مبنى التليفون وجدت أمانى مقبلة نحوى على بعد

خطوات ! • وبحركة عفوية مددت يدي فصافحتني بلهوجة
وارتباك أشعراني بتسرعي وخطئي • وهمست معتذرا :
— ان شاء الله تكونين بخير • • ؟
فأجابت وهي تمضي :
— الحمد لله • •

تبدت مفرطة في البدانة والرزانة غير أن ارتباكها
أقنعتني بأنها تعاني مسئولية السيدة المتزمتة اذا
ورطتها ظروف خارجة عن الإرادة في مصافحة رجل
« غريب » •

أنور الحلوانى

اسمه قادر على استدعاء عالم متكامل بأسره • ميدان بيت
القاضي المتربع بين الجمالية وخان جعفر والنحاسين ، وأشجار
البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، وقسم الجمالية العتيق ،
وحوض الماء القائم فى الوسط تسقى منه البغال والحمير ،
وكشك حنفية المياه العمومية ، وهو ملعب طفولتى وصباى •
وكنت أتطلع باهتمام الى أنور الحلوانى فى ذهابه من بيته
الملاصق لبيتنا أو فى آياه اليه • لم يكن شابا عاديا ، كان من
رواد المتعلمين الأوائل فى الحى ، كان طالبا بمدرسة الحقوق •
وربما كنت معجبا بطربوشه المفرط فى الطول ، وشاربه المغزير
المبروم ، وبذلقته الأنيقة • وكان يسير فى رزاة لا تناسب
سنه فكان يحلو لى أن أقلده ما تيسر لى ذلك • وكنت أتذكر
نجيدا الشربات الذى شربته احتفالا بنجاحه فى البكالوريا ،
قدمته لى أمه بيدها وهى امرأة من أصل ريفى كان يحلو لى أيضا
أن أقلد لهجتها • والظاهر أن أحداثا كانت تجرى فى خفاء من
حولى وأنا ألعب تحت أشجار البلخ •

استيقظت ذات صباح على صوات يترامى من بيت
جيراننا • وحدث اضطراب شامل فى بيتنا فجعلت أتمسح فى
المضطربين والمضطربات مستظلا • وعرفت فى ذلك الصباح
أن جارنا الشاب أنور الحلوانى قد قتل ، برصاصه ، فى
مظاهرة ، بيد جندى انجليزى • عرفت لأول مرة فعل « القتل »
فى تجربة حية لا فى حكاية من الحكايات الشعبية ، وسمعت
لأول مرة عن « الرصاصه » فى أول اتصال سمعى باحدى
منجزات الحضارة ، وثمة لفظة جديدة أيضا « مظاهرة »
استدعت الكثير من الشرح والتفسير ، وربما لأول مرة سمعت
عن ممثل جنس بشرى جديد فى حياتى الصغيرة هو
« الانجليزى » • وتطايرت الأحاديث فى البيت وفى الميدان
مكررة لتلك الكلمات ومضيفة اليها غيرها مثل الثورة والشعب
وسعد زغلول • انهمرت على الكلمات حتى أغرقتنى وانطلقت
منى الأسئلة بلا حساب وبالحاح شديد ، قتل • • ما معنى قتل ؟
وأين ذهب أنور ؟ وماذا ينتظره فى العالم الذى ذهب اليه ؟
ومن الانجليزى ولم قتله ؟ وما معنى الثورة ؟ وما معنى سعد
زغلول ؟ وما وما ؟ وما لبثت الأحداث أن تدافعت الى
الميدان نفسه فى جنون خيالى •

قبعت وراء شيش النافذة أنظر بعينين محمقتين الى
جموع البشر المتدفقة من ذوى البدن والجيب والقفاطين

والجلابيب ، حتى النساء فى الحناطير والكارو ، يحملون
الأعلام ويهتفون • وسمعت أزيز الرصاص ، أجل لأول مرة
أسمعه ، ينطلق من اللوريات ومن فوق صهوات الخيل ، ورأيت
الانجليز رؤية العين بقبعاتهم العالية وشواربهم النافرة
ووجوههم الغريبة ، ورأيت الجثث بالعشرات مطروحة فى
جوانب الميدان ، ورأيت الدم البشرى ياطخ الملابس وأديم
الأرض ، وسمعت الحناجر وهى تهتف من الأعماق « يحيا
الوطن » ، و « نموت ويحيا سعد » •

بدر الزیادی

كان زميلا بالمدرسة الثانوية • وكان بدينا خفيف الروح ،
يحب الطعام واللعب والبنات ويحب الوطن • وكان أبوه
ضابط المدرسة ، عاصرناه عامين ، ثم اتهم في ظروف لا أذكرها
بالعيب في الذات الملكية فقدم إلى المحاكمة التي أدانته وحكمت
عليه بالسجن ستة أشهر مع وقف التنفيذ ولكنه فصل من
وظيفته • وكان بدر يفاخر بشجاعة أبيه ووطنيته فجاريناه
في ذلك إذ كان العيب في الذات الملكية يعد درجة لا بأس بها
من درجات الجهاد يضمن لصاحبه موصفا في صفحة
المجاهدين • وكان بدر تلميذا عاديا في الفصل ، بل خاملا ،
أما مجده الحقيقي فكان يتألق في فناء المدرسة • في فناء
المدرسة كان قطبا ينجذب إليه بعض تلاميذ فصله وتلاميذ من
الفصول الأخرى • وعندما يجد نفسه محورا تتحرك مواهبه
ويجيش صدره بالعطاء ، فيلقى بعض الأبطال الوطنية ، ويحكي
النوادر اللطيفة ، أو يتصدي لتحديات غريبة • سألنا مرة عن
أوفق الأماكن لممارسة الحب ، فأجاب كل بما خطر له ، ولكنه
جعل يهز رأسه ساخرا حتى نضب معين خواطرنا ، ثم أجاب
هو قائلا :

— القرافة !

ودهشنا ، وضحكنا مما ظنناه مزاحا فعاد يقول :
— فى المواسم يبيت الناس فى أحواش المقابر ، نساء
ورجالا ، والنساء يكن عادة أضعاف أضعاف الرجال ، وفى
ظلام الليل تسنح فرص لا تخطر على بال ..
فقال بعضنا :

— ولكنها مناسبة لا تفتح النفس للحب !
فقال بيقين :

— الحب لا يتخير مناسبة فهو صالح لكل مناسبة !
وقص علينا كيف انقض على خادمة فى مكان خال من البيت
وجثة عمته مسجاة تنتظر من بكفنها والنائحات ينحن فى ساحة
البيت • وفى ذاك المجال كانت له حكايات غريبة لا تتفد •
أما امتيازہ الحق فقد ناله بكل جدارة فى كره القدم • كان
قلب الهجوم فى فريق المدرسة • ورغم بدانته اشتهر بالسرعة
خفة الحركة غير أن اندفاعه المتناقض مع وزنه كان يثير فى
الملعب غاصفة من الضحك • وعرف بقدرته الخارقة فى
المحاوره والمداوره ، والسيطرة على الكرة كأنما يشدها الى
مجال قدميه بقوة مغناطيسية ، والمكر الأريب الذى يفقد
أعداءه توازنهم ويطرحهم أرضا ، كما امتاز بقوة ضرباته
للكرة •

وكان يعد نفسه للعب فى النوادى ويحلم بالاشتراك فى
الأوليمبيات العالمية • وكان مستر سمبسون المدرب
العام بوزارة المعارف يعجب به فنصحه فى ختام إحدى
المباريات العامة بين المدارس بتخفيف وزنت فكانت

استجابته للنصيحة أن التهم — فى حفل الشاي الذى أعقب
المباراة — طورطة كاملة وحده مع عديد من السندوتشات
والفطائر! •

وذات صباح وقف بدر الزياى يهتف — مع الهاتفين —
بحياة دستور ١٩٢٣ وسقوط الدكتاتورية •

كان الملك فؤاد قد أقال مصطفى النحاس وعهد بالوزارة
الى محمد محمود فأعلن هذا تأجيل العمل بالدستور ثلاث سنوات
قابلة للتجديد • وأضربت المدارس جميعا ، ومنها مدرستا .
غير أن قوات الشرطة حاصرتنا فلم نتمكن من الخروج • ولكى
نتسلح بما يلزمنا فى المعركة اقتلعنا الأشجار والنوافذ
والأبواب واقتحمنا المطعم فاستولينا على الأطباق والحل
والمغارف والمشوك والسكاكين • وتصاعدت هتافاتنا العدائية
مقتحمة كل مقام حتى مقام الملك • وعند ذاك هجم الجنود
فجأة ومن جميع الأبواب وانهالوا علينا بالعصى الطويلة على
حين أطلق الكونستبلات الانجليز الرصاص فى الهواء على
سبيل الارهاب • ودارت معركة غير متكافئة ، ولم ينج واحد
منا من ضربة أو أكثر ، وسقط جرحى كثيرون ، واستشهد
فراش وتلميذ • كان بدر الزياى هو التلميذ الشهيد اذ قضت
عليه ضربة أصابت مؤخر رأسه • وصممت المدرسة على تشييع
جنازته فى اليوم التالى ولكن الشرطة ضربت حصارا حول قصر
العيني الذى كان عامرا بالشهداء من جميع المدارس •
وحملت الجثث رأسا من المستشفى الى المدافن تحت حراسة

الشرطة ، ولكننا ذهبنا فرادى الى بيت ضابط مدرستنا القديم
لنقدم له واجب العزاء • وما زال الرجل حيا حتى اليوم ولعله
فى الخامسة والسبعين من عمره • أراه نادرا فى بعض
زياراتى للعباسية وهو جالس فى مقهى صغير قريب من
مسكنه • مهتما بالكبر وضيق ذات اليد فيما يبدو • لا يتصور
من يراه أنه كان من ذوى العقائد الحرة أو أنه جابه الحياة
بشجاعة وأنه فقد فى سبيل ذلك وظيفته وابنه • ومن مكانه
المنزوى يراقب السيارات المنطلقة حاملة الناجحين من رجال
المجتمع المعتزين باقبال الحياة الذين لم يكتووا بنار تضحياتها
وقيمها السامية • ترى ماذا يدور بخلده وهو يتابع هذا التيار
الغريب المتدفق ؟ ، أم أن الكبر والزمن قد أعفياه من كل شئ
الا ما يعانيه فى لحظته العابرة !! •

أما بدر فما زالت الصورة التذكارية لفريق كرة القدم
تجمعنا ، وهو يتوسط الفريق ، الكرة بين قدميه ، يطالع
الكاميرا بنرة مرحة مترعة بالثقة بالنفس ••

يلال عبده البسيوني

التقيت به مصادفة في فيلا جاد أبو العلا في أوائل عام ١٩٧٠ • ورغم أننا لم نتصادق ، بل ولم نلتق مرة أخرى الا أنه ترك في نفسي أثرا يستحق أن يذكر • ولما ذهبت الى الفيلا ذلك المساء لم يكن ببهو الاستقبال الا الأستاذ جاد أبو العلا وزميلي القديم عبده البسيوني وشاب وسيم به شبه منه سرعان ما قدمه لي قائلاً :

— ابني •• الدكتور يلال ••

وفي الحال تذكرت قصة الإبن والابنة اللذين كانا محور حديث ذي شجون بين عبده وبينى ثم بينى وبين أمانى محمد منذ سنوات خمس • واشتركت في حديث مما جرى بلا هدف وقد عاودنى شعور بالذنب القديم • وإذا بعبده البسيوني يقول مشيراً الى ابنه :

— الدكتور يفكر في الهجرة !

واسترعى قوله اهتمامى فنظرت الى الشاب من جديد بحب استطلاع آسر • ان كلمة « الهجرة » من الكلمات الجديدة التى غزت قاموس حياتنا وأثارت فى جيلنا القديم العجب • ها هو واحد من فرسانها فما أطيب الفرصة • وعاد عبده يقول :

— انه مرشح لبعثة دراسية قصيرة بالولايات المتحدة
ولكنه يضرر الهجرة ..

فسأله جاد أبو العلا :

— وما رأيك أنت ؟

فأجاب عبده ضاحكا :

— وما قيمة رأيي أو رغبتى ؟

— على سبيل العلم بالشئ ؟

— لا أوافق ..

— وأمانى هانم ؟

ضاعف من ارتباكى الخفى ذكر الاسم ولكنى عرفت لأول
مرة أنها رجعت الى أسرتها ، كما أدهشنى أن يتحدث جاد عنها
بتلك الألفة . أما عبده فأجاب :

انها ترحب بالفكرة وتتخيل أنه سيكون بوسعها أن تسافر
الى الولايات المتحدة كلما شاءت ..

فضحك مضيفا وجاريتة فى ضحكته ثم قال مخاطبا الشاب :
— ينتظرك هنا مستقبل باهر .

فقال الدكتور بلال :

— انى أتطلع الى بيئة علمية صحية ..

فقال عبده البسيونى :

— أن هجرة صديق له يدعى الدكتور يسرى أدارت عقله
ولكنه فى اعتقادى شخص شاذ لا يصلح مثلا طبيا ، كان
طبيبا ناجحا سواء فى المستشفى أم فى العيادة ولكن غضبه

على كل شيء لم يكن يهدأ لحظة واحدة ، ولم يكن يكف عن النقد
المر ، كان يفور بكراهية غريزية نحو البلد ومن فيه ، فانتهاز
فرصة وجوده في اجازة دراسية ثم قرر البقاء هناك ..
فقال دكتور بلال :

— ونجح هناك نجاحا فريدا ، في العمل والبحوث على
السواء ..

— وكان هنا ناجحا أيضا فما معنى الهجرة ؟ !
— البيئة العلمية يا أبى ! ، وأليك قصة وكيل قسم
بالمستشفى الذى أعمل به ، درس حتى حصل على درجة
الدكتوراه بامتياز رائع ، انتظر أى تقدير فلم يظفر منه بشيء ،
بل حارب حتى لا يحتل المكان العلمى اللائق به ، فما كان
منه الا أن هاجر ، ولدى عرض بحثه فى الولايات المتحدة
تلقى أكثر من عرض للعمل فى الجامعات والمستشفيات ..
لاحظت أنه كان يتكلم بحدة تقارب الغضب ، فقلت :
— قد يوجد خلل ولكن ليس للحد الذى يدفع الناجحين الى
الهجرة ..

فقال لى دون أن يخفف من حدته :
— بل الشأن فى كل شيء يدعو للثناء !
— حسن أن تشعر بذلك وأن تؤمن به ولكن منذ الذى
ينبرى للإصلاح سواكم ؟ ..
— لن أشغل نفسي بهذه الأفكار ..
— ولكن وطنك قيمة لا يمكن انكارها أو تجاهلها ؟
فقال بهدوء نسنى :

— وطنى الأول هو العلم !

ثم بعد تردد كأنما حاسب فيه نفسه :

— الوطن .. الاشتراكية .. القومية العربية .. ماذا

أقول ؟ .. لا تتصورنى عابثاً .. كلا .. ولكن ماذا بقى لنا بعد

ه يونية ؟ !

فقلت :

— مضيت على النكسة أعوام خليقة بأن تجعل منها درسا

لا نكسة ..

فقال لى عبده البسيونى :

— لا فائدة ، إنه جيل لا يقتنع الا بما فى رأسه ..

فقال جاد أبو العلا :

— لا بأس من ذلك ولكن لا يجوز أن ينسى وطنه ..

فقال الدكتور بلال :

— لا منقذ لنا سوى العلم ، لا الوطنية ولا الاشتراكية ،

العلم والعلم وحده ، وهو يواجه المشكلات الحقيقية التي

تعرض مسير الانسانية ، أما الوطنية والاشتراكية والرأسمالية

فتخلق كل يوم مشكلات نابعة من أنانيتها وضيق نظرها وتبتكر

لها من الحلول ما يخاعف فى النهاية من جسيمة المشكلات

الحقيقية ..

فسألته :

— وماذا يمنعك من أن تكون باحثا وعالما فى وطنك ؟

— توجد موانع وموانع ، استعداد بدائى للبحث وجو

خائق للفكر والعدالة والتقدير ، لذلك أفكر فى الهجرة ،

وسأكون فى أمريكا أعظم فائدة لوطنى مما لو بقيت فيه ،
فالعلم لجميع البشر ، باستثناء علم الحرب والهلاك فالعلم
لجميع البشر ..

وسأل جاد أبو العلا عبده البسيونى :

— وماذا عن شقيقته ؟

— ستحصل على بكالوريوس فى الصيدلة فى نهاية العام
الدراسى وهى متحمسة أكثر منه للهجرة ..

فضحك الرجل عاليا وقال :

— وفتى الأحلام ؟ .. ألم تفكر فى هذه المشكلة ؟

— أن ما نعدده مشكلة يعدونه لعبا ..

فقال جاد أبو العلا :

— من المؤسف أن الفن لم يقدم لنا بعد نموذجا من هذا
الجيل ، كم أود أن أسبق الى ذلك !
فقلت له :

— انه يتقدم بلحمه ودمه فوق مسرح حياتنا المسكينة !

فقال عبده البسيونى مخاطبا ابنه :

— انكم تحلمون بالهروب والسفينة تواجه العاصفة !

شعرت بأن عبده غير جاد فى معارضته وأنه لا يحسن
إخفاء إعجابه بابنه ، وهز الدكتور بلال منكبيه استهانة فأيقنت
أنه يمثل موقفا جديدا من « الوطنية » تلك الأمانة القديمة
التي أرهق جيلنا حملها ، وقال بلال ضاحكا وقد ذكرتنى
ضحكته بأمه :

— الحق أنى أحلم بهيئة علمية تحكم العالم لخير العالم •
فسألته :

— وماذا عن القيم ؟ •• العلم لا يتعامل معها ، وحاجة
الانسان اليها لا تقل عن حاجته الى الحقائق •
فنظر الى فيما يشبه العجز ثم قال :

— يجب ألا يعنى ذلك التمسك البائس عديم الجدوى بقيم
بالية ، انكم لا تتمسكون بها الا خوف المغامرة بالبحث عن
غيرها ، والعلم لا يعطى قيما ولكنه يضرب مثالا حسنا فى
الشجاعة ، فعندما تاهوت الحتمية الكلاسيكية كيف نفسه
برشاقة فوق أرض الاحتمال وتقدم لا ينظر الى الوراء ••
فقال جاد أبو العلا :

— من العبث أن تناقش قوما ليس بينك وبينهم لغة
مشتركة ••

فقلت وقد أخذ رأسى يحمى بالحدة :
— انكم تودون الهجرة الى الحضارة بدل أن تنموها فى
أرضكم ••
فقال محتداً :

— الانسان فى الأصل كائن مهاجر وما الوطن الا المكان
الذى يوفر لك السعادة والإزدهار ، لذلك لا تقبل على الهجرة
الا الضفوة ، أما المتخلفون ••

وتوقف كالمتردد فقلت :

— أما المتخلفون فيحسن التخلص منهم !



فباخت حديثه وقال ضاحكا :

— لو سار الازدياد السكانى على معدله الحالى وعجزت
الوسائل عن تغذيته فربما تقضى المصلحة العامة للحضارة
بافناء أجناس برمتها !

فهتف به أبوه :

— حسبك !

وقال جاد أبو العلا :

— ما أسعد إسرائيل بكم !

فعاودت الشاب حديثه وهو يقول .

— أتحدى إسرائيل أن تفعل بنا مثلما فعلناه بأنفسنا !

وقد بت ليلتى متفكرا فى حديث الدكتور بلال ، مستعيدا
جملة وعباراته ، متأملا الموضوع من شتى جوانبه ، حتى اقتنعت
فى النهاية بأنه لا نجاة للجنس البشرى الا بالقضاء على قوى
الاستغلال التى تستخدم أسى ما وصل اليه فكر الانسان فى
استعباد الانسان وخلق صراعات مفتعلة سخيصة تستنفد خير
ما فيه من امكانيات رائعة ، وذاك كخطوة أولى لجمع العالم
فى وحدة بشرية ، تستهدف خيرها معتمدة على الحكمة
والعلم ، فتعيد تربية الانسان باعتباره مواطنا فى كون واحد ،
وتهيئ لجسمه السلامة ولقواه الخلاقة . الانطلاق ليحقق ذاته
ويبدع قيمه ويمضى بكل شجاعة نحو قلب الحقيقة الكامنة
فى ذلك الكون الباهر الغامض . اما ذلك واما مستقبل جعلى

أشعر بالامتنان لكونى من جيل يوشك أن يختتم رحلته فى هذه
الحياة العجيبة التى تدور بخيرها وشبرها فوق فوهة بركان •
وقد التقيت بعبد البسيونى بعد مرور أشهر فى صالون
الدكتور ماهر عبد الكريم فبادرته بالسؤال عن ابنه فأخبرنى
بأنه سافر ، ثم قال :

— وستلحق به أخته فى القريب !

ثم قال بنبرة اعترافية :

— أجد كثيرا غمزا أليما فى قلبى ولكن زمانى علمنى
التسليم للمقادير ••

وبعد قليل من الصمت عاد يقول :

— لا أخفى عنك أنى مقتنع بقرارهما ، لم لم تؤهلنا
دراستنا العقيمة للهجرة ؟ !

فقلت :

— العلم لغة عالمية أما مهنتنا فالغاز محالية •

وأفضيت إليه بالخواطر التى اجتاحتنى عقب استماعى
لحديث ابنه فضحك طويلا ثم قال :

— نحن الكهول مطالبنا بيسيرة ، بسعادتى اليومية نتحقق
لدى شرب قدح من القهوة باللبن مع قطعتين من البسكوت ••

ثريا رأفت

رأيتها أول عهدى بالوظيفة عام ١٩٣٥ • كانت تتردد على الوزارة لزيارة عمها فقدمنى إليها فتعارفنا • وكانت طالبة بالمعهد العالى للتربية وعلى وشك أن تعمل مدرسة • وكانت متوسطة الجمال ولكن بارعة القد والقامة ، تتم عيناها عن ذكاء وشخصية • ولاحظ الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية اعجابى بها فقال لى يوما — عقب ذهابها مباشرة — وهو يوقع لى على بعض الأوراق :

— آن لك أن تفتح بيتا وتستقر •
فأدركت أننى ضبطت متلبسا وقلت :
— أترى ذلك ؟

— ان صافى مرتبك ثمانية جنيهات وهى تكفى للزواج من اثنتين !

فضحكت وقلت مرددا مشاعر جيلنا :
— ولكن هل تحبذ الزواج من موظفة ؟
فقال بتهكمه المعهود :

— كما قد توجد منحرفة بين سئات البيوت فقد توجد مستقيمة بين الموظفات !

فعلمت أنه يحذرنى بأسلوبه المتوى ، ولكن سيطرة الفتاة

الجنسية على كانت فوق أى تحذير فسعيت الى توثيق علاقتي بها • وكانت — كطالبة — تتمتع بقدر من الحرية خليق بأز يشير فى سوء الظن ، فضلا عن نظرة عينيها الساخنتين الجريئة ، واستجابتهما المثيرة للقلق • كان كل أولئك جديرا بأن يصدنى عنها ولكنه أغرانى بها فانتظرتها فى الخارج بدافع هو خايط من حسن النية والجري وراء مغامرة • صافحتها وسرت الى جانبها وأنا أقول :

— أود أن نجلس معا قليلا من الوقت ••

فسألتنى متظاهرة بالدهشة :

— لم ؟

فقلت :

— رغبة فى مزيد من التعارف •

— ليس اليوم ••

وأرادت أن تودعنى فقلت :

— ولكنك لم تحددى يوما آخر ؟

فأبطأت قليلا كأنما غلبت على أمرها وقالت :

— ليكن يوم الاثنين ، العاشرة صباحا ، بحديقة

الحيوان ••

ومع أن استجابتها لبث صميم أمنية القلب إلا أنها فى الوقت نفسه ثبتت سوء ظنى بحريتها ، وغلبت فى نفسى جانب المغامرة على حسن النية • والتقىنا أمام باب الحديقة ، ورحنا نتمشى فى أرجائها ونتكلم • أعلنت عن إعجابى بها ، ثم جرنا الحديث الى تفاصيل حياتينا ، ومستقبلنا • وكانت

عواطفى المكبوتة تعذبنى ، وكنت شديد الثقة فى أنها ستستجيب لها كما استجابت الى الميعاد • وحاولت لدى أول فرصة لخلو المكان أن أقبلها • وتجنبتنى ، ونظرت الى ، والظاهر أنها قرأت فى عينى معانى لم تترجح لها فتساءلت فى استياء :

— ماذا بك ؟

فأشرت الى خميلة وقلت :

— لنجلس هناك ••

فقلت بحزم تغيرت به صورتها :

— يخيل الى أنك أسأت بى المظن ••

فقلت وموجة باردة تجتاحنى :

— كلا ••

— أو أننى أحسنت بك المظن خطأ ••

فقلت بحرارة مصدرها الندم :

— لا هذا ولا ذاك من فضلك !

أجهضت العاصفة فجلسنا جلسة بريئة وواصلنا حديثنا الجاد السعيد ، ثم افترقنا على ميعاد جديد ، وانجذبت اليها بقوة فحتمى الزواج منها فكرت فيه جادا وراغبا • وفى اللقاء الثانى أهدتنى قلم أبنوس فأشرت فى الهدية تأثيرا نافذا وساحرا • وقالت لى :

— ترددت طويلا ، فكرت فى الانقطاع عنك ••

فسألتها بجزع :

— لم ؟

— أخاف من خيبة الأمل ••

فضغطت على يدها بحنو وقلت :

— أنت تدركين تماما أنني أحبك ..

وفى المقابلات التالية تبلور الاتفاق بيننا وفكرنا في الخطوات العملية التي تسبق عادة إعلان الخطوبة • وجاءت معها مرة شقيقتها الكبرى المتروجة ، وتركز الحديث في الوظيفة وهل تبقى بها أم تتفرغ للبيت • وقلت ببراعة :

— لا أتصور كيف يستقيم أمر البيت إذا تمسكت بالوظيفة ..

فتساءلت شقيقتها :

— وعلام كان الجهد والتعب ؟

فقلت :

— ان مرتبى يغنيننا عن توظيفها ويوفر جهدها للبيت ..
فقالت الأخت ضاحكة :

— رغم ثقافتك فأنت دقة قديمة ..
وقالت ثريا :

— لم يسألنى أحد عن رأى بعد ؟
فقلت :

— ولكنك تشتركين معنا بصمتك ..
— كلا !

— اذن فما رأيك يا عزيزتى ؟

— سأعمل فيما أهلت نفسى له حتى النهاية ..

ثم كان آخر لقاء قبل الميعاد الذى حددناه لاشراك

الأسرتين • وجدتتها على غير عادتها قلقة ، مشتتة الفكر •
فقلت :

— يوجد شيء يشغلك •
فقلت ببساطة :

— نعم !

— ما هو ؟

— لا يجوز تأجيله أكثر من ذلك ••
وبسرة استطردت :

— وأعترف أنى أخطأت فى تأجيله حتى هذه اللحظة •
— شيء خطير ؟

— يجب أن نتكاشف !

— ألم نتكاشف بما فيه الكفاية ؟

— كلا •• الحب يطالبنا بالصدق ••
فقلت بقلق :

— طبعاً ••

فقلت وهى تغمض عينيها :

— يجب أن أصارحك ••

اعترفت بأن شخصاً ما « خدعها » وهى فى سن
البراءة ! • وفى أثناء الاعتراف القصير اغرورقت
عينها • لم أفهم شيئاً بادية الأمر ، ثم أدركت كل
شيء ببلاهة كأنه دعاية ، ثم اجتأحتى شعور قدرى
بأن كل شيء محتمل وأنى لا شيء ، ثم هبطت فى هاوية
من الخمود والفتنور والاستسلام المثلول كأنها حفرة
فى قلب الشتاء ردمت بطبقات من الرماد • وجعلت

تردو الى من خلال رموشها المبتلة ثم همست بياس :

— ألم أقل لك ؟

فتساءلت ببلاهة :

— هه ؟

— ادت لا تحبني •

— أنا ! •• لا تقولى ذلك ••

— ن تنغفر لى ••

فسألتها جاذبا نفسى من تيار أفكارها :

— من هو ؟

— لا يهم ••

فسألت مصرا :

— من هو ؟

— وغد من الأوغاد !

— ولكن من هو ؟

— لا تعذبني ••

وتناولات حقيبتها وهى تقول :

— أستودعك الله ••

فقلت بآلية ::

— لا تذهبنى •

فنهضت وهى تقول :

— أعطيتنى الجواب بلا كلام •

— ولكنى لم أتكلم •

— انى أرفض ما دون الثقة الكاملة ••

فقلت وأنا أجد ارتياحا فى الأعماق لنهوضها :

— تازمنى دقائق للتفكير •

فقلت وهى تمضى فى كبرياء :

— أستودعك الله •

بدت لى المشكلة عقدة غير قابلة للحل • تكشف حبى عن
ولع عنيف ليس الا وكأن حبى القديم لصفاء قد استنفد طاقتى
للحب الحقيقى • وكانت تلك الهفوة مما لا يغتفر على أيامنا •
كنا نحارب طبقات كثيفة من الماضى العتيق كلما تلاشت طبقة
برزت نحتها طبقة راسخة تتطلب المعاناة والعناء لقهرها •
كان علينا أن نقطع خمسة قرون وستة فى ربع قرن • حزنت
وخاب أملى ولكنى لم أشك لحظة فى أن ثريا قد خرجت من
حياتى الى الأبد • وامتنعت عن الحضور الى الوزارة لزيارة
عمها فلم تقع عينى عليها حتى كان المعرض الزراعى الصناعى
الذى أقيم قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ • كنت
أمضى وقتا فى لونا بارك الملحق بالمعرض ومعى صديق صباى
عيد منصور فمرت بنا ثريا بصحبة شقيقتها الكبرى وأبنائها •
لم ترنى ولكنى رأيتهما ، ولما رآها صديقى مال على أذنى
هامسا :

— انظر الى تلك الفتاة !

فسألته :

— ما لها ؟

— من حى السكاكينى وجارة لخالتي ••

وضحك ضحكة خبيثة ورسم بيده حركة وقحة أدركت
منها أنه الوغد المعتدى فقلت بامتعاض لم يدرك مداه :
— أنت وغد !

فضحك باستهتار كعاداته وقال :
— ورغم ذلك سمعت أنها مخطوبة وستتزوج في هذا
العام !

ومرت أعوام كثيرة لم أر فيها ثريا ولم أسمع عنها حتى
ذهبت لزيارة الأستاذ سالم جبر عقب النكسة فوجدت ثريا
ضمن آخرين مجتمعين به في مكتبه ، كنت في تلك الأيام
ألتبس مجامع الزملاء والأصدقاء كما يلتبس المحترق مادة —
غطاء أو تراباً أو ماء — ليطفئ به النار المشتعلة في ملابسه •
وجدت عند الأستاذ سالم جبر نفرا من الزملاء مثل جاد أبو
العلا ورضا حمادة وعزمى شاكرو وكامل رمزي وسيدة وقورا
فوق الشمسيين عرفت فيها ثريا رأفت • ألقيت تحية عامة
وجالست فلم تلمس يدي يدها ولكنني شعرت بأنها تذكرتني
كما تذكرتها • وكان الحديث يدور حول النكسة ، تحديد
أبعادها ، تحليل أسبابها ، واستقراء الغيب عنها • ومضى
الزملاء في الانصراف ثم قامت ثريا فصافحت الأستاذ سالم
وهي تقول :

— « وعدنا يوم الاثنين •

فأكد لها الموعد وهو يوصلها حتى الباب ، ثم رجع الى
مكتبه وهو يقول :

— جاءت تدعوني الى مناقشة وطنية بنقابة المعلمين •
فسأله متجاهلا :

— من هي ؟

— الدكتورة ثريا رأفت ، مفتشة كبيرة بالتربية •
ثم استطرد بعد قليل :

— زوجها من رجال العلم الزاخرين المكرسين حياتهم للبحث
أما هي فمن وجوه نهضتنا النسائية ، امرأة تستحق أن يفخر
بها جنسها وأن يفخر بها الوطن ••
ثم قال :

— يندر أن تجد امرأة في قوة شخصيتها وعلمها وخلقها •
تذكرت عيد منصور • تذكرت ضعفى وانهازامى ، تذكرت
نفرا من أصدقاء الصبا مثل خليا، زكى وسيد شعير ، تذكرت
أحمد قدرى قريبي الذى لم أره منذ دهور ، تذكرت عشرات
وعشرات ممن تلاطمت معهم فى مجرى الحياة ، برزت وجوههم
وسط هالة من غبار متعفن. كما تبرز الحشرات فى أعقاب انهيار
بيت آيل للسقوط •.

جاء أبو العلا

هو موجود وهو غير موجود •

ويرجع تاريخ معرفتي الشخصية به الى عام ١٩٦٠ تالفن لى فى مكتبى طالبا مقابلتى فرحبت به متأثرا بما يتمتع به اسمه من شهرة فى دنيا الأدب • كان قد أصدر خمس روايات وربما أكثر • وكانت الاعلانات عن رواياته تلفت النظر لكبر المساحة التى تشغلها فى الصفحات الأولى من الصحف • ويتبع نشر الرواية سلسلة من المقالات النقدية فى الصحف والمجلات الأدبية مفرقة فى التقدير والثناء • وقد ترجمت رواياته جميعا الى الانجليزية والفرنسية ، كما ترجم ما كتب عنها فى الخارج الى صحفنا ، وهى تشيد بأعماله اشادة لا تتحقق الا لكاتب ذى خطر وشأن • وتبعنا لذلك قرأت له أكثر من رواية ولكننى لم أستطع أن أتم واحدة ، ولم أجد ضرورة لقراءة ما قرأت منها بعناية أو اهتمام ، وأدهشنى أننى لم أجد عنده موهبة تذكر ولا على المستوى المحلى • وجميع أعماله تحولت الى مسلسلات اذاعية وأفلام سينمائية فلم تحقق أى نجاح ولكنها كانت تشق طريقها بكبرياء كأنها درر •

ولما جاء لزيارتي وجدته لطيفا مهذبا ، لبق الحديث ،

سرعان ما تشعر بأنه صاحب قديم ، وألا مكان للمكلفة بينك وبينه • صارحنى بأنه يود أن يتخذنى صديقا ودعانى الى صالونه الأدبى ببيته الجميل فى الدقى • ومن يومها وأنا أتردد على صالونه من حين لآخر فأجتمع به منفردا أو ضمن مجموعة من الزملاء ، ولعل عبده البسيونى كان آخر من انضم إلينا بعد عامين أو أكثر من مقابلاته التى لا تنسى معى • ولم يتوان عن عرض تاريخه على منذ أول لقاء • أشار الى صورة كبيرة منوه اطارها بالذهب وقال :

— كان أبى رحمه الله من تجار التحف بخان الخليلى ••

وضحك عاليا وقال :

— لو سارت الأمور فى مجراها الطبيعى لسجلت تاجرا فحسب ونجوت من انقسام الشخصية !

فسأله عما يعنى بانقسام الشخصية فقال :

— شعرت منذ عهد مبكر بالموهبة فألححت على أبى حتى وافق على إرسالى فى بعثة خصوصية — عقب حصولى على الثانوية العامة — الى فرنسا ••

وهز رأسه وهو يبتسم الى ثم قال :

— لم أكن أومن بالدراسة النظامية ولا كانت هدفى فالتحقت بمعهد لتعليم الفرنسية ثم اتجهت بكل قواى نحو منابع الفن الحقيقية فى المقاحف والمسارح وصالات الاستماع والمكتب ••

وأسهب فى وصف تلك المنابع وتجربته التذوقية معها ••

— ولكنى اضطررت الى قطع دراستى بعد مرور ثلاثة أعوام لوفاة والدى فعدت لإدارة معرضه بصفتى أكبر اخوتى وأرشدتهم... .

وحتى لى كيف انقسم — وما زال — بين التجارة وبين الأدب ، وكيف استطاع أن يشق طريقه العسير ويحقق موهبته باستغلال كل دقيقة من وقت فراغه القليل • وترك حديثه — والأحاديث التالية على مر الأعوام — انطبعا فى نفسى لا يمكن أن يوصف بالثقة • كان كثير المرح عادى الذكاء أقرب الى السطحية ذا طلاء ثقافى بلا أعماق • ومن هذا ومن قراءاتى السابقة لبعض رواياته ملت الى تصديق ما يقال عنه فى مجالس الفكر مثل صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جيز وغيرهما • قالوا انه أنفق أعوامه الثلاثة فى فرنسا فى مجانبى اللهو والمعبث باسم اكتساب التجارب الحية ومعرفة الانسان • وشهدوا له بالمهارة فى تجارته مما عاد عليه بثروة طائلة ، تزداد مع الأيام ضخامة • وهو فى نظر الجميع محب للفن وربما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يعتد بها مما دفع به الى طريق ملىء بالمتاعب ، فقد صمم على أن يكون أديبا وأن يكمل ما ينقصه من موهبة بماله • وكان يكتب تجاربه • ثم يعرضها على المقربين من الأدباء والنقاد ، ويجرى تعديلات جوهرية مستوحاة من ارشاداتهم ، بل يقبل أن يكتب 'ه' بعضهم فصولا كاملة ، ثم يدفع بالعمل الى أهل الثقة منهم

فى اللغة لتهديب الأسلوب وتصحيحه ، غامرا كل صاحب فضل بالهدايا والنقود تبعا للظروف والأحوال • ويطبع الرواية على حسابه طبعة أنيقة فتخرج من المطبعة — على حد قول بعضهم — كالعروس ، ومن ثم يوجه عنايته الى بعض النقد فيها ألا نقدها أنهار الصفحات الأدبية ، وينفق أضعاف ذلك على ترجمتها حتى فرض نفسه على الحياة الأدبية • وبنفس الأسلوب شق سبيله الى الاذاعة والتلفزيون والسينما ، دون اهتمام بربح مايم واحد ، بل ويضيف الى ذلك من ماله اذا لزم الأمر • كان يحتقر بيئة التجار وهى مصدر جاهه وراثته وهو فيها كوكب محترم ، ويغرس نفسه غرسا شيطانيا فى بيئة الفن وهى تأباه وهو فيها غريب محتقر • وقد سألت مرة الدكتور زهير كامل وكان الحديث يدور حول جاد أبو العلا :

— أى لذة حقيقية يجنيها من جهده الضائع وهو أول من يعلم بزيفه ؟

فأجابنى الرجل :

— أنت مخطيء ، لعله انتهى بتصديق نفسه ••

— أشك فى ذلك ••

— ولعله بات يعتقد أن التجربة التى يقترحها أساسا لعمله هى كل شىء ، أما الشكل •• أما الأسلوب •• أما الصناعة فأمور ثانوية لا وزن لها يقوم بها عبيد مأجورون !

فقال الأستاذ رضا حمادة مصدقا :

— لا نهاية ولا حد للغرور البشرى ..

فعاد زهير كامل يقول :

— انزيف فى الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذى يجعل من باطن الانسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته فى الوقت الذى تتجلى فيه لأعين الجميع •

وضحك زهير كامل ثم قال نبرة تسليم يائسة :

— يت اعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق لهم ، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك ، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف ، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي : كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد والسفلة ؟ ١٠

وظهر عبده البسيونى فى صالون جاد أبو العلا متأخرا ، عام ١٩٦٨ أو بعد ذلك • وقلت لنفسى ساعة رؤيته — ولم أكن رأيته منذ لقائنا الرهيب بمكتبى — ها هو جاد أبو العلا يظفر بصيد ثمين حقا ! • وتصافحنا بحرارة كالأيام الخالية على عهد الدراسة وكأن الخطيئة لم تكن • وكبحت رغبة شديدة كادت تدفعنى الى سؤاله عن زوجه وهل رجعت اليه ، ومن ناحيته لم يشر بكلمة الى ذلك • وقال لى :

— القافلة تسير والصعاب تزدل ، وابنى بلال فى السنة النهائية بكلية طب القاهرة وهو شاب نابغة وسيكون له شأن ، وأخته لا تقل نباهة عنه وهى فى كلية الصيدلة ، وعما قريب سأستقبل عهدا من الاستقرار المالى والنفسى ..

فهناك و تمنيت له أصدق التمنيات ، وقلت له :

— الظاهر أنك عرفت الأستاذ جاد أبو العلا حديثا ؟

فقال لى همسا :

— منذ عامين ولكنى لم أتردد على هذا الصالون الا مرات

معدودات لم يتصادف وجودك بها ..

ثم وهو يبتسم :

— إن أغلب مسلسلاته الاذاعية والتلفزيونية بقلمى ! ..

وضحكنا معا ثم عاد يقول :

— وحتى الآن لم أوفق الى بيع سلسلة باسمى !

ولما فاز الأستاذ جاد أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعية

زارنى الأستاذ عجلان ثابت ومضى يضحك ساخرا وهو
يقول :

— ألا يتقون الله ؟ !

وتحدثنا طويلا حتى جاء ذكر عبده البسيونى فقال

عجلان :

— اعطك لا تعرف أن زوجه كانت خليلة للأستاذ جاد

أبو العلا ؟

فجرى فى باطنى تيار مضطرب لم يدر به عجلان

ولا بأسبابه الحقيقية .. وقلت :

— اتق الله بدورك ..

— صدقنى فأنا أخصائى فى هذا النوع من الأخبار ..

فسكت فعاد يقول :

— وعبدہ البسیونى يعرف ذلك أيضا وقد ضبطهما فى
فيلا بالهرم واكتفى بقطع العلاقة وتسلم حرمه ، ثم أعقب
ذلك صداقة وطيدة بين الزوج والعشيق السابق ..
قلت باذلا جهدا غير قليل لتمالك أعصابى :

— متى كان ذلك ؟

— منذ سنوات لعلها ثلاث أو أربع أو خمس !

— ليكن ..

— يا له من رجل زائف ! ..

— عبده البسیونى ؟ !

— هذا حمار بائس انى أعنى صاحب الجائزة الكبيرة ..

— نعم ..

— ومن عجب أن أبطال رواياته مثل للصدق والكرامة
والفضيلة !

— نعم ..

فهتف ضاحكا :

— علينا اللعنة جميعا حتى يوم الدين •

جعفر خليل

بذكره يذكر حينا « العباسية » فى العشرينات من هذا القرن • حى الهدوء الشامل والحقول المترامية والحدائق الغناء • شرقيه قصور كالقلاع وشوارع شبه خالية يجللها صمت وقور ، وغربيه بيوت مستقلة ذوات حدائق خلفية صغيرة تزدان بكرمة وشجرة جوافة وأرض مغروسة بالشيخ والورد والقرنفل ، تحديق بها الحقول ، فى طرفها ساقية تدور بين خمائل من أشجار الحناء ، وتزكو رقعتها بالجرجير والطماطم ، وتنتثر فوق أديمها نخلات معدودات ، أما فيما يلى أسوار البيوت فتتمدد غابة من أشجار التين الشوكى • فى النهار لا بخرق صمتها الا جلجلة الترام وفى الليل لا يتردد فى جنباتها الا صيحة الخفير • واذا هبط الليل لفها بظلامه فلا يخفف من غلظته الا اشعاعات الفوانيس المدلاة من أعالى أبواب بيوتها • ويوم أنتقلنا من الحى القديم اليها ، ومضى التحمالون بالأثاث الى داخل البيت الجديد تجمع فى الطريق صغار متقاربو الأسنان يستطلعون • فعدنما خرجت مستطلعا كذلك وجدت أمامى جعفر خليل ، سرور عبد الباقي ، سيد شعير ، عيد منصور ، رضا حمادة ، خليل زكى ، شعرواى الفحام • وقفنا نتبادل النظرات حتى سألنى خليل زكى :

- تلعب معنا ؟
- ترددت بلا جواب فسألنى سرور عبد الباقي :
- من أى حى ؟
- فأجبت متشجعا بأدب أختص به :
- حى الحسين •
- فسألنى جعفر خليل :
- نلعب الكرة ؟
- كلا •
- تعلمها ، متى تدخل المدرسة الابتدائية ؟
- عقب الإجازة ••
- سندخلها جميعا فى وقت واحد •
- وسأل رضا حمادة :
- هل قابلتكم مظاهرات وأنتم قاذمون ؟
- جئنا عن طريق الحسينية ، المحال والمقاهى مغلقة فى
- اضراب شامل •
- هل صادفكم انجليز ؟
- دورية واحدة • هل ترونهم هنا ؟
- فضحك جعفر خليل وقال وهو يشير ناحية ما :
- ثكناتهم هناك فى قلب العباسية ، نستراهم عند كل
- خطوة تخطوها ••
- وسأل سرور عند الباقي :
- أتممت المدرسة الأولية ؟

— مكثت بها عامين وعامين قبل ذلك فى الكتاب •

— لا توجد هنا كتائب ا

فسكت وأنا أرمقهم فى عدم ارتياح ، غير أن صداقتنا كانت قد بدأت ، وهى لم تنقطع بعد ذلك الا بالموت فى حال شخصين منهم • وفضلا عن ذلك كان جعفر خليل الوحيد الذى زاملنى أيضا فى مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية • وكان يمتاز بخفة الروح وجلالة النكتة والتفوق فى اللعب والجد معا • وقد دعانى الى مصاحبتهم لمشاهدة مباراة كرة القدم بالنادى الأهلى ولما سألته عن التكاليف أجاب بكل بساطة :

— ولا مليم •

ذهبنا بجلابينا وصنادلنا مشيا على الأقدام مخترقين شوارع الظاهر ، الفجالة ، ميدان المحطة ، عباس ، ميدان الخديو اسماعيل ، جسر قصر النيل ، حتى بلغنا النادى • واذا بالمجموعة تتسلق شجرة كبيرة وتتخذ أماكنها فوق الغصون فلم يسعنى الا أن أفعل مثلهم • فى ذلك اليوم شاهدت مباراة كرة قدم لأول مرة فى حياتى ، وعرفت لاعبين لم يمح أثرهم من نفسى حتى اليوم مثل حسين حجازى ومرعى ، ورأيت الانجليز وهم يلعبون وكنت أعتقد انهم يقتلون فقط ، وهالنى أن أرى على الحسنى وهو يكاتفهم فيطرحهم أرضا فلا يعقب ذلك معركة دامية • سررت وسعدت ، وبدأت أعشق هواية جديدة ، وآمنت بأنه يمكن الانتصار على الانجليز

ولو فى ملعب النادى الأهلى ، ولكننا تأخرنا طبعاً فى العودة الى بيوتنا وتعرضت هناك الى حساب شديد • وانضممت الى ناديهم « قلب الأسد » واشتركت فى اللعب الذى كان يجرى وسط غابة التين الشوكى ، وقدر لى أن أنافس فى المهارة جعفر خليل نفسه بل وعيد منصور الذى توهم فى ذلك الوقت أنه يعد نفسه لاحتراف اللعبة • وكان جعفر خليل حسن الصوت فكان يغنى لنا بعض أغانى سيد درويش ومنيرة المهدية وعبد اللطيف البنا ، ويتقدم السنين راح يؤلف الزجل • بل كان يحول بعض مناظر الأفلام الى مواقف زجلية ويخرجها ويشترك فى تمثيلها فى غابة التين الشوكى أيضا • ولم أعرف له قصة حب واحدة وأن ضبطته مرة وهو يعلم بنتا يهودية من جاراته كيف تركب الدراجة • ويتوثق علاقتى به عرفت أنه فقير بحق ، بل لعله كان أفقر المجموعة ، إذ كان أبوه موظفا صغيرا رغم تقدمه فى السن ورغم طول مدة خدمته ، ولكنه كان ورغم ذلك أكثر مرحا وسيطرة • ورغم تعدد ميوله فى اللعب والفن لم يبد اهتماما بالسياسة أو الوطنية كما كانت تعرف فى تلك الأيام • وظل على سلبيته تلك حتى الجامعة وبعد التخرج • وقلت له يوما :

— عجب ألا تهتم بما يصهرنا حتى الذوبان •

فقال ضاحكا :

— لا وطنية رجالها ، لست منهم وأن تمثيت لهم النجاح •

— ولكن كل مواطن فهو من رجالها ••

— ابنى أجد سعادتي بين أهل الفن ♦

فحتى وهو تلميذ بالثانوية كان يتردد على نقابة الموسيقيين الأهلية ويشهد حفلاتهم المجانية ، ويحضر مجالس الزجالين بالقهوة الخديوية ، وكان يتمتع في ذلك بجرأة انفراد بها وحده ♦ وعن طريق المرحوم كمال سليم عرف الطريق الى الوسط السينمائي ، فقام بدور ضمن الكومبارس في بعض الأفلام ♦ وقدم قصصا سينمائية وهو طالب بالجامعة ، حتى وفق الى المشاركة في كتابة سيناريو عقب تخرجه عام ١٩٣٤ ♦ وعين مدرسا للغة الانجليزية ، وعرف في المدرسة بنشاطه الرياضي واشرافه على فريق التمثيل ، وسحر بشخصيته الخلاقة الألعاب ♦ وقال لي :

— الوظيفة خطوة ليس الا ولكنى عرفت هدفى ♦♦

وكان من الشاق أن تعرف له هدفا محددًا ، أزجال هو أم ممثل أم مطرب أم سينارست ؟ ، فسألته :

— وما هدفك يا صاحب الأهداف ؟

— السينما !

— السينما ؟

— أجل ، هي مجمع الفنون ، هي دنيا السحر والرفاهية والجمال ، ولي فيها مجال وأي مجال في التمثيل والكتابة والغناء ♦♦

ثم وهو يضحك :

— وشكلى مقبول ، لا تحكم على بماضى ، الفقر ثم يوفر لى الغذاء الكافى لكنك سوف تحكم بعينيك عندما يستفيد جسمى من اللحوم التى طالما حرمت منها ظلما وعدوانا !

وفيما بين تخرجه ونهاية الحرب العظمى الثانية تقدم فى نشاطه السينمائى بحطى ثابتة ومنموسة ، اقتبس أربع قصص . وكتب ستة سيناريوهات ، ومثل أدوارا ثانوية فى عشرة أفلام ، وألف عشرات الأغانى ، وتحسنت أحواله المالية بدرجة طيبة جدا ، وكان بارا بأسرته الفقيرة فنقلها الى عمارة جديدة بالشارع العام الذى تغير مع الزمن شكله ومضمونه ، وأقام معها وأن استأجر شقة خاصة فى شارع شامبليون لعمله — أو قل لعمله ومزاجه — وحافظ بالمثل على علاقاته القديمة بحيه وأصدقائه . وإذا به يختار عضوا ببعثة الى الولايات المتحدة فى العام الذى أعقب انتهاء الحرب . ولم تكن البعثة فى حساباته ولكنه وجدها ممكنة بوساطة صديق من الوسط الفنى ذى صلة طيبة بوزير المعارف . ولم تنقطع عنى رسائله طوال مدة بعثته ، ومنها علمت أنه يعد رسالة للدكتوراه عن الفن فى المجتمع العربى ، ومنها علمت أيضا أنه ينوى دراسة السيناريو فى لوس أنجلوس . وفى رسائل تالية علمت أنه يرسل بعض المجلات بأجر طيب وأنه سيجرب حظه فى الكتابة للاذاعة ، وأنه سيعود بمقدار طيب من الدولارات الأمريكية .

وعاد الى مصر عام ١٩٥٠ ، وزرته فى اليوم التالى مباشرة لعودته فى مسكن الأسرة ولم يكن بقى فيه سوى أمه • تعانقنا بحرارة • ووجدت فى زيارته كثيرين من أهل الفن كما وجدت أصدقاء الطفولة جميعا عدا شعراوى الفخام الذى قتل فى غارة فى أثناء الحرب • وسئل أيبقى فى الوظيفة أم يستقيل للتفرغ للفن فأجاب :

— سأبقى حتى أستوفى المدة الانزامية بمقتضى البعثة
وهى خمس سنوات !

وقال :

— الحياة الأمريكية حياة غريبة وعظيمة ، والأمريكي ذو مزايا لا يستهان بها ، ولكنى لم أستطع التخلص من احساس عام بالنفور والكآبة بسبب قنبلة هوريتشما ••
وقال أيضا :

— يخيّل الى أن الأمريكيين يتجهون الآن نحو الاهتمام بالشرق اهتماما غير عادى ، وأن علينا أن نعمل لذلك ألف حساب !

وقال بحماس :

— لدى أفكار قيمة سيكون لها شأنها فى تطوير فن السينما فى مصر ••

ثم غلب المرح على الجلسة وضجت الحجرة بالقهقهات

وبخاصة عندما انضم اليها المرحوم الشيخ زكريا أحمد •
وغادرت البيت مساء بعد أن دعاني الى الاجتماع به
صباح الجمعة بمسكنه الخاص بشامبليون •
وفي صباح اليوم التالي قرأت في الأهرام نعيه •
نعيه ؟ !
أجل نعيه •

فقد غادر مسكنه في الثامنة مساء ، فزلت قدمه فوق
قشرة موز ففقد توازنه وسقط . فارتطم رأسه بحافة الطوار
وسرعان ما فاضت روحه في ثوان معدودات أمام باب العمارة •

حنان مصطفى

سمعت صوتا يناديني فتوقفت عن السير متلفتا الى الوراء
فرأيت سيدة فى الحلقة السادسة تنظر نحوى بعينين زرقاوين
باسمتين • تطلعت اليها لحظات متسائلا ثم اقتحمنى التذكر
والعرفان كنفحة من عبير الأزهار فهتفت :

— حنان !

فقلت فيما يشبه الامتنان :

— نعم •• حنان •• كيف حالك ؟

وتصافحنا بحرارة ونحن نميل الى جانب من الطوار ،
وراحت تقول :

— اذكرك بسهولة • لم تتغير تغيرا يذكر ، وخفت
ألا تتذكرنى ولكن الظاهر أننى لم أتغير بصورة تدعو لليأس ،
ماذا جاء بك الى جليم فى مابه أم أنك مقسم هنا فى
الاسكندرية ؟

— بل جئت لاستئجار شقة الصيف ، وأنت ؟

— نفس السبب ، وحدك ؟

— نعم •

— وأنا كذلك •

وتبدلنا السؤال عن أهل فعلمنا بمن ذهب وبمنبقى ،
وأخبرتها عن حالى الاجتماعية ، فقلت :

— نى أربع بنات متزوجات ، وأنا جدة من زمن ، أما زوجى
فقد توفى منذ عامين ••

ومشينا على مهل على الكورنيش حتى سألتنى :
— متى رأيتنى آخر مرة ؟

فتفكرت مليا ثم قلت :
— منذ أربعة وأربعين عاما ؟
فهتفت ضاحكة :

— يا للفضيحة ، وبرغم ذلك عرفتك من أول نظرة !
— كما عرفتك !

— بل ترددت قليلا •
— من المفاجأة ••

فضحكت ثم تساءلت :
— أتذكر حب زمان ؟

وجعلت تتكلم بتدفق وتضحك بين ذلك بصوت عال حتى
ذكرتني بما كان يقال عن جنون أمها • ولبثنا معا دقائق ثم
ذهب كل إلى طريقه • ورجعت إلى عباسية الحقول والحدائق
والهدوء الشامل • وعاود ذاكرتى بيت آل مصطفى ، الأب والأم
والابن وحنان • بيت بهر أخيلتنا بسحره الخاص • فعند
الأصيل يجلس الأب فى السلامك المظل على الطريق ، يجلس
على كرسي هزاز وبين يديه منضدة عليها زجاجة ووعاء ثلج
وكأس وطبق مزة • رجل بدين متوسط القامة أحمر الوجه
أصلع يتحدى بكل استهانة تقاليد الزمان والمكان • فى أول
الجلسة يبدو صامتا رزينا بل متعاليا منطويا • ثم ينشرح

صدره بالانتشاء فيجود بنظرات انسانية على الطريق
والعابرين ، وبعد ذلك لا يستتقف من مخاطبة بياعى الملاينة
والبطاطة والسحلب والندرمة نبعاً للفصول ، وربما مازحهم
واستعادهم الانشاد المطرب الذى يعلنون به عن بضاعتهم على
عادة ذلك الزمان • وكنا نقف غير بعيدين لنسمع ونشاهد
ونشارك فى السرور • ونتابع تعليقاتنا مرة مستتكرة فى
الغالب الا ما يصدر عن جعفر خليل الذى كان يحبه ويعجب
به ويعتبره فرجة لا تقل فى بهجتها عن السينما والسيرك •
وتظهر خلال تلك الجلسة اليومية ربة البيت ، طويلة نحيلة
تتوكأ على عصا لعرج خفيف بها ، فتلقى على ما حولها نظرة
مستكبرة متأففة • والويل لنا اذا رأتنا نتفرج ونضحك فتنهال
علينا قدحاً وتقريعا ، ولعنا لآلنا الذين لم يحسنوا تربيته ،
ثم تختفى من السلامك وهى تسب الناس والبلد • كانت
تعد — مثل زوجها — غير طبيعية ، وكثيرا ما كانت ترى وهى
تتساجر مع الباعة والخدم ، وقبل انها كانت تكبر زوجها
بعشرة أعوام ، وأنها غنية تملك أرضا ونقودا على حين لا يملك
زوجها الا حصة فى وقف ، وقد تزوجت منه رغم أنه بلا علم
ولا عمل لعراقة أصله • وكان ضمن المترددين على الطريق
غجرية ترعى الأغنام ، جافية فى جلباب أسود مشدود عند
الوسط بحزام ، متلعة بخمار أسود ينسدل من تحتها على
وجهها برقع أسود أيضا يخفى الوجه ما عدا العينين • وكان
بيننا وبينها معركة لا تهدأ فكلما أقبلت وراء الأغنام نصيح
بصوت واحد :

يا عجرية حلى حزامك من قدامك

فتتقذفنا بما فى مجال يديها من طوب • ومضى مصطفى بك يهتم بها ويزجرنا مدافعا عنها • ويوما قال لنا سيد شعير وكان أسرعنا الى المتطلعات الجنسية :

— ألا ترون ما بين الخروف والماعزة ؟ ! •

وأعقب ذلك مشاجرة عنيفة بين البك وحرمة تصدعت لها جدران البيت وعصفت بالشارع الهادىء حتى ازدحمت خصاص النوافذ بأشباح الحريم • وغادر الرجل البيت فلم ير بعد ذلك ، ولكن شاع فى الحى أنه تزوج من العجرية وأقام معها فى الدرب الأحمر • ووجدت الزوجة نفسها بلا رجل فلعبت دورى الرجل والمرأة معا •

كانت غريبة الأطوار حقا ، ومن آى ذلك أنها سمحت لحنان باللعب مع أترابها على حين منعت أخاها الأكبر سليمان من مغادرة البيت الا بصحبتها ! • كان صبيا جميلا رشيقا ، كنا نراه وهو يلعب فى الحديقة منفردا أو مع خادمة ، وكان وديعا مهذبا أرق من أخته نفسها ، وكنا نبادله النظرات فنود لو يلعب معنا ويود لو نلعب معه ، ولكننا ظللنا غرباء حتى غادر مع أسرته الحى • وتعلق قلبى بحنان قبل أن أناهز البلوغ • كانت بيضاء زرقاء العينين ناعمة الصوت ، وكانت ليالى رمضان فرصة هنية للصغار من الجنسين ، يجتمعون فى الشارع بلا اختلاط ، ويتراءون على ضوء الفوانيس وهم يلوحون بها فى أيديهم ، وكنا نقرنم بأناشيد رمضان ونتبادل مشاعر الحب

وهو كامن فى براعمه المغلقة • وقنعت عواطفنا الساذجة
بتبادل النظرات ، واطهار الرشاقة فى الجرى والغنباء ،
أو المخاطبة بالابتنسار فى خفاء • ولما بلغت الثانية عشرة
من عمرها منعت عن الطريق والمدرسة معا • لم يكن بيتها
يؤمن بالتعلم أو العمل ويعتبرهما من ضروريات الفقراء
فحتى سليمان هجر المدرسة قبل أن يحصل على الابتدائية •
وباختفاء حبيبتى من الطريق اشتد ولعى بها وصارت تشغلى
الشغل • وكانت ترينى نفسها خطفا من النافذة ، أو نتبادل
المشاعر باشعال أعواد الثقاب فى الظلام فوق الأسطح •
وخطونا خطوة جديدة بفصل خادماتها التى ترددت بيننا خفية
حاملة التحيات والورود • وسعدت بذلك سعادة لا توصف ،
فطمعت فى المزيد منها ، ولكنى لم أدر كيف ، وتسلل الى
روحى قلق نشيط غامض تتجاذبه قوى خفية من البهجة
والكآبة • وإذا بأما تزورنا ونادرا ما كانت تزور أو تزار •
وبصراحة لا يمكن أن تصدر الا عن امرأة مثلها اقترحت أن
نتزوج ! •

وأحدث اقتراحها ذهولا ، وقالوا لها :

— أنه شرف كبير ولكنهما لم يبلغا الثالثة عشرة من
عمرهما •

فخبريت بعصاها الأرض وقالت باستهانة :

— الزواج يعقد أحيانا بين أطفال فى الأقمطة •

فقالوا :



— ولكنه لم يتم دراسته الابتدائية بعد وما زال أمامه
مشوار طويل ..

فقالت بعجرفة :

— بنتى غنية ولن يجد حاجة الى شهادة أو وظيفة •

— ولكن التعليم ضرورى والوظيفة ضرورية •

— كلام فارغ ..

— أنه لا يملك ولن يملك شيئاً ، ولن يقبل أن يكون مجرد

زوج لزوج غنية ..

فتساءلت بحدة :

— وانعمل ؟

— لا سبيل الا الانتظار حتى يتم تعليمه ثم له أن يتزوج

بعد ذلك ..

— وما مدى هذا الانتظار ؟

— عشرة أعوام على الأقل ..

فصرخت المرأة :

— انكم تركلون النعمة ..

ووقفت غاضبة ثم رددت بنبرة أقوى :

— انكم تركلون النعمة !

وغادرت البيت عابسة متعجرفة • ودار تحقيق معى

لمعرفة الأسباب المجهولة التى تقف وراء تلك الزيارة الغريبة •

ولم أكن أتخيل امكان وقوع ذلك • ولم أشك فى أن الأم

المجنونة أطلعت على سر ابنتها فتنازلت لاقتراح الحل السعيد

كما تتصوره وهى وأثقة من قبوله ، وتأثرت لذلك غاية التأثير ، ورغبت رغبة صادقة فى الاعتذار الى حنان : ولكن هالنى أنها لم تعد تلوح فى نافذتها ، كما كفت خادمتها عن المجيء الى ، ورجعت عصر يوم من المدرسة لأعلم أن آل مصطفى قد غادروا البيت والحي الى مكان مجهول • وعانيت لأول مرة فى حياتى عذاب الحرمان والهجر • ولكن حدثه لم تقتلنى بل ولم تبطش بى ، أطبقت على حينا ، ثم مضت تخف وتبهت حتى استحالت ذكرى مجردة من أى انفعال •

ولم تقع على حنان عيناى مذ غادرت حينا حتى التقيت بها فى جليم فى مايو ١٩٦٩ وهى تقترب من الستين من عمرها • أما شقيقها سليمان فقد ترامت الى بعض أنبائه عن طريق المرحوم جعفر خليل عقب انعطافه الى الوسط السينمائى • اذ صادفه ليلة فى استديو مصر وهو يعمل راقصا ضمن فرقة جىء بها للتصوير فى بعض مناظر فيلم استعراضى ، قال : — سلمت عليه وذكرته بنفسى فتذكرنى وأخبرنى بأنه هوى الرقص وكرس له حياته ••

ودهشت يومذاك لتلك النهاية غير المتوقعة فقال لى جعفر وهو يضحك ضحكته الكبيرة :

— يبدو لى أنه يمارس هوايته وحياته فى حرية مطلقة ! وفى لقاء جليم أخبرتنى حنان أن أباهما توفى فى ختام عام انتقالها من العباسية اثر جراحة لاستئصال الزائدة الدودية ، وأن أمها توفيت منذ عامين فقط ، أما سليمان فقد انقطع عنها انقطاعا كليا فهى لا تعلم أخباره الا من المجلات الفنية ••

خليل زكى

كان اسمه يطلق على الشر والعدوان بين أصدقاء العباسية •
فرضته الجيرة فرضا لا حيلة لنا فيه ولا اختيار • وأى اختلاف
معه يعنى معركة فلم يفلت أحدنا من عدوانه • حتى اليوم فى
جبينى أثر من ضربة قبقابه • اختلاف رأينا فى حسين حجازى
ومحمود مختار أيهما أوفر فى اللعب فقلت انه حسين حجازى
وقال انه محمود مختار ثم كانت ضربة القبقاب فسال الدم على
وجهى وجلبابى • وتشاجر مع جعفر خليل لاختلاف حوك
شارلى شابلن وماكس لندر • وتضارب مع عيد منصور
لاقتراضه منه قرشا ومماطلته غي رده • ولم يكن له كفاء فى
مجموعتنا سوى سيد شعير ، ولما نشب بينهما القتال شهدنا
معركة عادلة لأول مرة ، فسال الدم من أنفيهما معا وتمزق
جلبابهما ، وتخيلا ما ينتظره غي البيت بسبب تمزق جلبابه
فتضاعف سرورنا • ولم تجد معه المقاطعة فسرعان ما يتناسى
الخصام ويقبل علينا هاتفا « صافية يا لبن » فاما نقبله واما
يتجدد القتال • على أنه من الحق أن أعترف بأنه لم يخل من
فائدة لنا فقد كان قائدا فى المعارك التى تنشب بيننا وبين
غلما الأحياء القريبة خاصة فى أعقاب مباريات الكرة • وكان

أبوه عطارا فى بين الجنائين ، وكان يعامله بفظاظة ضرب به
المثل ، وكثيرا ما كان ينهك عليه ضربا فى الطريق على مرأى
من أصحابه ، كان يضربه بقسوة وحشية وبلا رحمة ، وكان
خليل يمقته مقته ويحلم ليل نهار بموته • وكان الأب مدمن
أفيون ، وكان خليل من أفشى سره وشهر به فى كل مكان ،
وكان أسوأ مثال لرب الأسرة ، ولكنه خص خليل بلب كراهيته
وشراسته • وكنا نتابع تلك العلاقة باستغراب وفزع ، وفسرها
سرور عبد الباقي تفسيراً دينياً فقال :

— ان الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح !

ولم يفلح خليل فى دراسته الابتدائية ، ولما تكرر سقوطه
شغله أبوه فى دكانه • وتتفلسنا الصغداء كما يقولون ، وخيل
الينا أننا تخلصنا من شره ، ولكنه لم يغب عنا أكثر من شهر
واحد ، وأقبل علينا ضاحكا وهو يقول :

— عادت ريمة لعادتها القديمة ••

فقلنا ونحن ندارى خيبتنا :

— خير أن شاء الله ••

— فردنى ابن المجنونة !

— من الدكان ؟

— ومن البيت !

وجاءنا سيد شعير بالأخبار — كان أبوه تاجرا ومن

أصدقاء والد خليل — فأخبرنا بأن خليل اعتدى على زبون بالضرب ، وتكررت سرقاته لنقود الدكان حتى اضطر الرجل الى طرده • وجمنا للأخبار وأدركنا أنه سيتفرغ لنا بثقله وعناده • وبالفعل تحملنا نفقاته فى المقهى والرحلات ، وعدا ذلك فلم ندر شيئاً عن أين يذهب بقية الأوقات ولا أين ينام ولا كيف يأكل • وفى تلك المرحلة من دراستنا الثانوية اتصل جعفر خليل بدنيا السينما فجره معه ليعمل ضمن الكومبارس فدرت عليه قليلاً من النقود ، وهناك التقى بسليمان مصطفى الراقص فحام حوله بغريزته الانفعالية • وما لبثت أن نشأت بينهما صداقة غريبة فصار فى ركابه وانتفع الى أقصى حد بماله • وكان جعفر خليل يحكى لنا مغامراته السينمائية تلك وهو يضحك من أعماق قلبه ، حتى قال لنا يوماً :

— صاحبنا تمادى كعاداته حتى ضاق به سليمان فطرده !

فهتفنا ونحن نتوقع شراً :

— طرده ؟ !

— وانقلب عليه يهدده ويتحرش به ••

— وقع المسكين فى شر أعماله !

— ولكن سليمان صديق لقوم من الكبراء فما يدرى صديقنا خليل الا وهو يساق الى نقطة الشرطة ، وهناك جلد حتى يح صوتته من الصراخ ، ثم أفرج عنه بعد ما أخذ عليه تعهد بالآلا يتعرض للشباب ••

وعاد خليل يتسكع هنا وهناك ، ثم اختفى زمنا فلم نر
نسمع عنه خبرا ، وكان عيد منصور أول من جاءنا عنه نبأ ،
اذ تسلل ذات ليلة الى بيت دعارة سرية بالسكاكيني .
— فلمحته هناك يجلس مع المعلمة كأنه شريك !

ولكن جعفر خليل هو الذى جاءنا بالخبر اليقين . كان
أحب مجموعتنا اليه مذ فتح له بابا للرزق فأفضى اليه بسره .
كان يذهب الى أى بيت دعارة كأنه زبون ، ولما يقضى وطره
ويطالب بالفتود يهدد بإبلاغ الشرطة ، فاذا استعانوا عليه
بحامى البيت جندله ، وما يلبث أن يفرض نفسه « حاميا »
للبيت ، ولم تمر فترة طويلة حتى شمل بحمايته جميع بيوت
الدعارة فى منطقة السكاكيني . بذلك تحسنت أحواله واستقرت
ميزانيته وعرف النعيم . وكانت حياة خطيرة مهددة ولكنها
كانت تناسبه كما كان يناسبها . وتدرج فيها فى مدارج الرقى
حتى وثب به نشاطه الى بيوت الدعارة الفاخرة فى وسط
المدينة . وابتسم له الحظ فقدم خدمة (غرامية) لطبيب كبير ،
وابتسم له الحظ مرة أخرى عندما عين الطبيب عميدا لكلية
الطب فكافأه بالحاقه بوظيفة ادارية بمستشفى قصر العينى .
هكذا وجد خليل زكى نفسه موظفا فى مستشفى كبير ، موظفا
يخطر تحت رعاية العميد ، مرتبه بسيط حقا ولكن أرباحه
خيالية . ورجع يزورنا فى المقهى وهو يادى النعمة فيطاب
النارجيلة والشاي الأخضر وينظر إلينا من فوق كما يجدر

بموظف يجالس تلاميذ • وقد سألت جعفر خليل مرة :

— وماذا عن المهنة الأخرى ؟

فقال ضاحكا :

— الظاهر أنه لا فكرة لك عن أرباح المستشفى ! ؟

— اذن قطع علاقته بالبيوت ؟

— طبعا • • عدا المختار من البيوت الرفيعة • • الممتازة

جدا • • ومن بعيد لبعيد • • وليؤدي خدمات نادرة للصفوة • •

وكان على علاقة بقصاب غني من مدمني المخدرات فخطب منه كريمته • وكانت الوحيدة التي بقيت من ذرية الرجل بعد أن قتل أخوانها في المظاهرات التي اجتاحت البلاد في أول عهد اسماعيل صدقي • وتزوج خليل من فتاة موعودة بميراث كبير عبارة عن أربع عمارات في شارع فاروق غير النقود السائلة ، وعقب الزوج بعام واحد ضبط القصاب الغني متلبسا بتعاطي المخدر فقبض عليه وحكم عليه بالحبس عاما ولكن صحته لم تحتمل ذلك فمات في مستشفى السجن ، وانتقلت ادارة الأملاك الى يد خليل زكي • وعندما ترامت اليها تلك الأخبار لم يشك أحد منا في أن خليل هو الذي أوقع بحميه ليستولي على ثروته ، وتسلطت علينا تلك الفكرة لحد الايمان • قال عيد منصور فيما يشبه الحسد :

— صفة تاريخية • •

وقال جعفر خليل ضاحكا :

— عليه العوض في العمارات الأربع ••

وقال رضا حمادة :

— مسكينة ، سنراها متسولة في الطريق عما قريب !

وجاءت الحرب وذهبت ولم أكن ألقاه إلا في النادر •
ومنذ اجتمعنا في مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ لم أراه
ولم يكن يخطر ببالي حتى عام ١٩٧٠ ، كنت جالسا بالتريانون
في أوائل الخريف حين وقفت أمامي سيارة بويك بسوداء
ورأيت وجهها ينظر نحوي من نافذتها • وأقبل نحوي ضاحكا
فسلمنا وجلس • رغم كبره بدا بجسمه القصير مدمج التكوين
قوى البيان ، كما بدا شرس السحنة همجي المنظر فلم ترفعه
بذلاته الشركسيين إلا قليلا • وظل محتفظا بطربوشه ليخفي
صلعة مشوهة بأثار خياطات جراح قديمة من مخلفات معاركه •
تذاكرنا أخبار الصحاب ثم قال :

— لعلك لا تعلم بأننى أصبحت من أهل الاسكندرية ؟

— حقا ؟

— آخرة العنقود طالبة بالآداب لم تجد في القاهرة متسعا
فقررت الإقامة في الاسكندرية وابتعت فيلا في لوران ،
سنراها بنفسك !

فشكرته وسألته :

— ووظيفتك ؟

— أصبت منذ عامين بذبحة صدرية فاعتزلت الخدمة ..

— سلامتك ..

— صحتي عال وإكنى لا أحترم كثيرا الارشادات الطبية ..

وضحك حتى كشف عن أسنانه الملونة ثم قال :

— سى غير البنيت التي حدثتك عنها ثلاثة مهندسين وطبيب !

فأبديت الاعجاب والاستحسان فقال وهو يغرق في الضحك .

— عرفت كيف أكون أبا !

ثم بنبرة أسف :

— وددت لو جاءوا مثلى لا يهتمون الا بأنفسهم ومستقبلهم

ولكنهم دوخونى بمناقشاتهم السياسية ..

وجعات أختلس اليه النظرات متسائلا ، ترى هل يثب

الى العدوان اذا تهبأت أسبابه ؟ ، الى أى مدى تغير حقا ؟ ،

وكيف ينظر اليوم الى ماضيه ؟ ، وبأى صورة يتصور أمام

أبنائه ؟ ، وهل يطيق أن يعيد أحد أبنائه سيرته ؟ ، وألا يعتبر

ثلاثة مهندسين وطبيب كفارة عن أى ماض أسود ؟ ، وأى

الحلين كان أفضل ، أينجو من القانون رغم جرائمه ليهذى

للوطن أربعة من العلماء أم كان يقبض عليه لتستقر العدالة فوق

عرشها ؟ ! ، وتذكرت قول الأستاذ زهير كامل « بت

أعتقد أن الناس أوغاد لا يخاف لهم ، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك ، وأن يقبموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف ، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي : كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد ؟

درية سالم

- اسمحى لى أن أحبيك ••
- فارتسم ظل ابتسامه على شذتيها فقلت متشجعا :
- غير معقول ألا نتبادل تحية بعد ما كان ••
- فخرجت عن صمتها قائلة :
- بعد ما كان ؟
- بعد ما كان من عشرة طويلة بين أعيننا •
- فضحكت ببراعة وقالت :
- نقبل التحية •
- هذه هي الخطوة الأولى •
- هل توجد خطوات أخرى ؟
- كان تجيء بأبناء ثلاثة الى المنزه ، فيستحم ثلاثتهم فى البحر على حين تجلس هي منفردة فى الكازينو تراقبهم من النافذة • لفت نظري اليها وجه بشوش وجسم فسوار • بالنضج الأنثوى • وعشقت فى عينيها نظرة ودودا كأنما خلقت للاستقبال والترحيب • وسرعان ما شعرت بأن ثمة دعوة رقيقة تطالعني كالزهرة الناعمة وأن تجاهلها فوق طاقة البشرية وتبادلنا كلمات عابرة فاتفقنا على موعد فى حديقة البجعة •

وآمنت وأنا فى الطريق اليها بأنها امرأة من نوع خاص ،
فلعلها أرملة أو مطلقة • ولكنها قالت لى ببساطة :

— أنا متزوجة !

فقلت، مأخوذاً :

— ولكننى أراك دائماً منفردة •

— هو فى بعثة قصيرة تنتهى هذا العام ١٩٦٠ •

فوجمت فسألتنى ضاحكة :

— أتخاف من النساء المتزوجات ؟

— أنى أفكر ••

فقاطعتنى قائلة :

— فكر فى اعداد مكان آمن نلتقى فيه فى القاهرة !

فقلت بحماس ظاهرى :

— اتفقنا •

— ولا تسيء بى الظن !

— كيف ولم ؟

— !علك تتساءل عما وراء امرأة لبت لك أول اشارة ؟

وكان ذلك ما يبدو ببالى ولكننى قلت :

— لم أكن دونك استجابة وكنت البادىء !

فقالت برقة :

— من حقنا أن ننعم ببركة الصراحة •

تأملت كل شىء بوعى شأن من لم يقع تحت سيطرة
مجنونة • وقلت لنفسى انى أعجب بهذه المرأة وأرغب فيها
ولكننى لن أحبها • وتهيأ لنا المكان فى طريق سقارة • وتخيلىت

خلوة حمراء مشتعلة • ولكن ما أن أغلقت الباب ورائنا حتى
وجدتني بحضرة امرأة جديدة • جلست مسترخية على كنبه ،
حتى التأفيعه الحريرية لم تنزعها من حول عنقها • تبدت هادئة
مستسلمة تطالعني بعينين ملوَّهما الحنان ، ورحت أداعب
أطرافها وألثم فاها فتبادلني عواطفى بابتسامة محبة قانعة •
ولما قدمت لها كأسا اعتذرت فلما دعوتها الى الفراش همست
فى أذنى :

— ليتنا نمضى وقتنا فى سعادة بريئة هادئة ••

فقلت محتجا :

— لا أصدق ••

قنهضت وهى تقول :

— ولكن لا تعتبره غاية فى ذاته ••

وبالرغم من أن التلاقى كان جذابا الا أنى آمنت بأنه كان
من الممكن لها حقا أن تمضى الوقت فى سعادة بريئة هادئة •
ثم تناقض كبير بين المرأة اليسيرة المستجيبة لى أول اشارة
وبين هذه المرأة الرقيقة الزاهدة • وقلت لها :

— أنت شخصية غريبة !

— حقا ! •• لم ؟

ولما تأكأت فى الاجابة سألتنى :

— هل تجد صحبتى عزيزة محبة ؟

— بكل جدارة •

— هذا ما يهمنى حقا •

وتتابع اللقاءات أسبوعيا • بلا حب حقيقى من ناحيتى

وبلا دافع يبرر الخيانة من ناحيتها • ولما رفعت الكلفة بيننا
قلت :

— اعترف لك بأننى — فى كازينو المنتزه — توهمت أنك
امرأة لعوب !

فسألتنى باهتمام :

— ماذا تعنى ؟

— أعنى معنى بزيئا !

— سامحك الله !

فتناولت يدها بين يدي وقلت :

— أسي أتساءل عما يدفعك الى حزن رجل آخر ؟

— آخر ؟ !

— أعنى غير زوجك ؟ ••

فقلت وهى تسبل جفنيها فى استياء :

— لذلك يضيق الناس بالمحققين !

ولكن باطراد اللقاءات استأنستها العادة فاستسلمت بحرية
الى تيار الذكريات الحميمة • وفى مناسبة ما قالت بصدق :

— تزوجت بعد قصة حب ، حب عميق ••

وكانت تعمل ممرضة وكان هو طبيب امتياز •

— تبادلنا حبا جميلا كاملا ، وأصارحك بأننى استسلمت

فى أول لقاء ••

— وتزوج منك ؟

— كان شهما ، كان محبا صادقا •

— ما أجمل ذلك •

— وعشنا طويلا كأُسعد ما نكون فأنجبت له ثلاثة أولاد .
وسكتت فسألت :

— نُم ماذا ؟

فأجابت كمن تفيق من حلم :

— لا شيء •

— كيف حالكما اليوم ؟

— حال عادية !

— ماذا تعنين ؟

فقالت ضاحكة :

— كل ذلك الوقت الضائع على حساب حبنا !

— ممكن نواصل لقاءاتنا بعد عودته ؟

— لم لا ؟ !

لم يعد يربطني بها الا المجاملة ثم العادة • وازدادت هي
رقة ومودة وحنانا حتى قالت لى يوما :

— لا أتصور حياتي بدونك •

فوجدت أن أسلم سبيل أن أجيبها بقبلة طويلة ولكنها
تساءلت فى عناد :

— وأنت ؟

— مثلك وأكثر •

— لم تقل لى صراحة انك تحبني •

فقلت :

— لكنى أحبك بالفعل وهو الأهم •

ورجع الدكتور صادق عبد الحميد من بعثته القصيرة •
تحدثت عنه بموضوعية كأنه ظاهرة لا تربطها بها علاقة حميمة •
ولكن باحترام لا مزيد عليه • وفى ذلك التاريخ كنت بدأت
أتردد على صالون الأستاذ جاد أبو العلا ، وهناك التقيت
بالدكتور صادق عبد الحميد ! • وقص علينا جاد أبو العلا
كيف زار الدكتور فى استشارة طبية وكيف توثقت العلاقة
بينه وبين الدكتور • وبدأت بيننا صداقة روحية نادرة ، فقدمته
بدورى الى مجلس سالم جبر وزهير كامل وصالون الدكتور
ماهر عبد الكريم • وأدهشنى أن أرى فيه رجلا يماثل درية فى
السن أو لعله يصغرها ببضع سنوات ، وسيما ذكيا ذا طموح
روحى لا حد له • هكذا بدأت صداقتنا بعد توطد علاقتى
بزوجته بأربعة أشهر ! • وضايقتنى ذلك وأزعجتى لحد العذاب •
ولم تتوقع درية ذلك فذهلت له • ولاحظت دون جهد ارتباكى
وقلقى ، وجو الكتابة الذى خيم بثقله فوق لقاءاتنا فحنقها •
وبدا أن تيار الحياة يمضى الى زاوية مسدودة ليظهر موته •
قالت لى بتوسل :

— انس تماما أنه زوجى ، ألم يكن من المحتمل ألا أشير
بكلمة الى هويته أو اسمه ؟

فقلت بارتباك :

— لا فائدة من افتراض احتمالات لا أصل لها ••

— يجب أن نحافظ على علاقاتنا فهى أهم من كل شئ •

فقلت بحزن صادق :

— انى أتعذب •

فقالت بانفعال غير معهود .
 — لعله لو علم بعلاقتنا ما اكثرث لها !
 فنظرت اليها بذهول غير مصدق فقالت :
 — انه لا يحبني ، لم يعد يحبني منذ ثلاثة أعوام أو أكثر .
 صدقني ..
 — انى أصدقك وأنا آسف ..
 — وهو بعاشر امرأة أخرى ، ولولا تفانيه فى حب أولاده
 لهجرنا ليتزوج منها !
 — اى آسف يا درية ..
 — ماذا تعنى بقولك آسف ؟
 — آسف لحالك ، ولحالى التى لا أحسد عليها ..
 — لو كنت تحبني لما شعرت بأسف على الإطلاق !
 — الواقع أنى لا أطيق ذلك الموقف بحال ..
 أشاحت بوجهها عنى محمرة العينين وتمتمت :
 — أنت لم تكذ تعرفه ، هل تنشأ الصداقة من العدم ؟
 ثم بحزن شديد :
 — والحب أقوى من الصداقة ولكن الحقيقة أنك لا تحبني !
 لم أجد ما أقوله فصمت . وبالصمت أسدل الستار على
 علاقتنا الحزينة المفتعلة . وعندما غادرنا عشنا تأملت شخصها
 الناضج الذى يعانى أخرج فترة من العمر تحت وطأة الهجران
 والخيبة فثقلص قلبى ألماً وحزناً . ولفحنا فى الخارج هواء
 بارد كاسع السياط ، فى ظلمة الليل ..

رضا حمادة

يرتبط فى الخيال بالعباسية ، عباسية الحقول والحدائق ،
مثل جعفر خليل و خليل زكى وحنان مصطفى • ولكنه يرتبط
أيضا بقيم ومبادئ لا يستهان بها ، ويعنف تيار الحياة فى
صعوده وهبوطه ، وبارادة الانسان حيث تتوثب للصراع
والتحدى وتجاوز اليأس والأحزان • وهو عملاق كصديقنا
سرور عبد الباقي ، امتاز بالعلاقة حتى ونحن غلمان نلعب فى
غابة التين الشوكي ، ولعله من القلة التى واجهت عنف خليل
زكى برباطة جأش • وعرف منذ عهد المدرسة الابتدائية
بالاهتمام الشديد بالوطنية • كان يتكلم عن سعد زغلول
أكثر مما يتكلم عن حسين حجازي أو شارلي شابلن
أو المصارع عبد الحليم المصري • ولعله ورث ذلك عن أسرته
التي اشتهرت فى شارعنا بالوطنية والعام فكان أبوه مدير عام
مستشفى الحميات بالعباسية ، وكانت أمه مدرسة من السابقات
الى التعلم ومن طلائع النهضة النسائية ، ونبغت أخته فى
العلوم فأرسلت فى بعثة الى انجلترا • كما تفوق أخوه فى
مدرسة الحقوق • ولكن أسرته اشتهرت أيضا بالكوارث التى
حلت بها ، فماتت أمه وهو طفل ، وفصل أبوه من الخدمة لفرط

نشاطه فى خدمة الوفد المصرى فى ابان تكوينه ، وماتت أخته
فى انجلترا ، واستشهد أخوه فى ثورة ١٩١٩ • وكان يفاخر
بأخيه واستشهاده وينوه بذكائه واجتهاده حتى ضاق خليل
زكى بذلك فقال لى مرة :

— لم قتل هذا المجنون نفسه ؟

فقلت ببرائة :

— هى سبيل الاستقلال ••

فتساءل ساخراً :

— وهل كان الانجليز يقيمون فوق صدره ؟ !

ولما عرفت رضا كان يعيش مع والده وخادم عجوز ولا رابع
لهم فى البيت • وكان يضيق بالبيت ويعتده سجنًا بلا قضبان ،
ويرهب جانب أبيه ويعمل له ألف حساب • اعتكف الوالد فى
البيت عقب فصله من الخدمة : لا يغادره الا اذا استدعى
لاستشارة خاصة فى أحد البيوت ، والظاهر أنه كان يريد
أن يخلق من رضا شخصًا يعوضه عن جميع خسائره ، فاشتد
فى معاملته ، وحمله ما يطيق وما لا يطيق ، وطالبه بالعلم
والأخلاق والوطنية والتفوق ، وراقبه مراقبة بلا هوادة
ولا تسامح • لذلك نشأ رضا متطهرًا متقشفًا مجتهدًا مطلقًا
طموحًا ولكنه افتقد دائماً الحنان والعذوبة • وكثيراً ما كان
يقول :

— حدثنى عن أمك ، كيف تحبها وكيف تحبك !

ويتغنى بالنشيد المعروف :

أيها الطائر أهلاً بمحيياك وسهلاً

ويتهدج صوته وهو ينشد :

أمكن أستودعتنى شوقها اذ ودعتنى
وخطابا حملتنى لفظه يشفى العليل

ومرة أهانه أبوه فى الطريق لاهمال تورط فيه فتأثر تأثرا
بالغا • وسرنا وهو صامت حتى وقفنا عند السبيل كعادتنا كل
أصيل فى العطلة • وغاب عنا بعض الوقت ثم رجع فلم يكذ
يلحظ أحدنا شيئا • وبغته تكور وهو يقبض على بطنه بيدين
متشنجتين ويصرخ من الأعماق • وانطرح على الأرض تحت
شجرة ، وراح يتمرغ فى التراب ، ومن شدة الألم يعض أصول
الشجرة الضاربة فى الأرض ، واجتمعنا حوله فزعين واجتمع
الناس • وما لبث أن جاءت الشرطة والاسعاف فحمل الى قصر
العيني حيث أسعف من حمض الفنيك الذى شربه بقصد
الانتحار • شد ما هزنى الحدث والمنظر • وسألته فيما بعد :

— كيف هانت عليك نفسك ؟

فابتسم فى حزن وتمتم :

— ألم تر كيف أهاننى أمامكم ؟

وأعتقد أن تلك المحاولة المشؤومة غيرت من سياسة أبيه
نحوه كما أن تفوقه النادر وفر له المزيد من التقدير والاحترام •
ولم يمنعه تفوقه الدراسى من الاسهام فى النشاط السياسى
الذى خفت حدته وتغير لونه بعد انحسار موجة الثورة
العارمة • فقد بلغنا أولى درجات الوعى بعد أن انقلببت الثورة

الدامية أسطورة مقدسة من أساطير الغيب • وكان كل منا يحتفظ من ذكرياتها بمشهد عابر عجيب أو ذكرى شهيد أو هتاف مثير ولا شيء أكثر من ذلك • وقد اشتركتنا معا في المظاهرة التي قادها نادر برهان تأييدا لسعد زغلول — وهو رئيس وزارة — في اختلافه الدستوري مع الملك فؤاد • وتوطدت علاقته في الثانوية مع بدر الزياى لتقارب مشاربهما • ولما تولى محمد محمود الحكم قال بدر :
— لم يكن لنا من عدو فى الماضى الا الانجليز •
فقال رضا حمادة :

— والملك •

— هما شيء واحد •

— موافق •

فقال بدر :

— رها هو عدو جديد ينضم الى الميدان ••

ولما قتل بدر الزياى فى فناء المدرسة حزن رضا حزنا شديدا ، وقال لى :

— مات بدر على حين يحيا خليل زكى !

فقلت له بحزن :

— ومحمد محمود يحيا أيضا !

وتقدم رضا فى نشاطه السياسى فجالس مصطفى النحاس فى بيت الأمة ضمن وفود الطلبة • وقبض عليه فى حكم محمد محمود ، وكاد يقتل فى عهد صدقى ، وفى كلية الحقوق

صار من زعماء الطلبة فاستمعت مرات الى خطبه الحماسية فى الحرم الجامعى • كان مثالا للوفدى الصادق فى ايمانه بالاستقلال والدستور والحياة الديموقراطية • وكان ينظر بامتعاض شديد الى مجرى السياسة فى مصر حتى آمن بفكرة نبئت فى يقينه • قال :

— لقد فقد الوفد أو قل الشعب قوته الضاربة يوم قبض على زعماء جمعية الكف السوداء • •
فقلت ببراعة :

— ولكن الوفد يدعو الى الجهاد المشروع !

فضحك وقال :

— دعك مما يقولون • •

ثم قال بحنق :

— لا نجاة لنا الا بآبادة السراى وأحزاب الأقلية ثم نواجه الانجليز كتلة واحدة !

وقد أحب ثريا رأفت وأراد أن يخطبها وهو طالب بكلية الحقوق • لم يصارحنى بذلك فى حينه كما لم أبح له بعلاقتى بها فى حينها ولكنى عرفت الحكاية عقب النكسة ! • كان رضا ضمن المجتمعين فى مكتب سالم جبر الذى تراءت فيه ثريا رأفت • وتقابلنا بعد ذلك فى بيته بمصر الجديدة فسألنى :
— أتذكر السيدة التى كانت فى مكتب سالم جبر ؟

فقلت باهتمام :

— ثريا رأفت • •

فضحك قائلاً :

— كانت من أهل السكاكيني وقد أحببتها وأنا طالب في الحقوق حتى عزمت على خطبتها لولا ..
— لولا ؟

— لولا أن رأيته بصحبة صديقنا عيد منصور !
وعند ذاك قصصت عليه قصتي معها !

وتخرج رضا في الحقوق عام ١٩٣٤ فاشتغل بالمحاماة •
ومات أبوه تاركاً له ثروة لا بأس بها • وبزغ نجمه ككاتب
سياسي كما رسخت قدمه في المحاماة • وانتخب نائباً عن
دائرتنا في انتخابات ١٩٤٢ ، وكانت موقعة ٤ فبراير قد
هزنتى من الأعماق ورمت بوفديتي في أزمة خانقة • وصارحته
بذلك فقال لي :

— انى أعتقد أن مصطفى النحاس قد أنقذ الوطن والعرش !
فقلت بأسى :

— تصور أن الدبابات البريطانية تجيء بزعيم البلاد
رئيساً للوزارة !
فقال باصرار :

— لقد كان الانجليز أعداءنا ولكنهم يقاتلون في
الجانب الذى نرغب فى أن ينتصر ••
— نمة خطأ يفرى روحى كالسم !
فسألنى :

— أتود للفاشستية أن تقتصر كما يود الملتفون حول
الملك ؟

— كلا طبعاً ••

— فانظر الى ٤ فبراير اذن على ضوء ذلك الضوء •

وانتخب مرة أخرى عام ١٩٥٠ عن نفس الدائرة • وكانت
تعتريه نوبات حزن شديد كلما شعر بأن الوفد لم يعد على
المستوى الرفيع الذى طالما تربع عليه بجدارة ، أو أنه تسلل
اليه خور فى الارادة والاستقامة وفقر حماس الشعب له •
وكم اهتز طربا يوم ألغى مصطفى النحاس المعاهدة ثم أعلن
الجهاد ، يوم سرت فى الوادى نفحة من روح ١٩١٩ ، ثم
تتابعت الخيبات كالمطارق حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ •
وتحمس لها فقال لى :

— سيعود الوفد بلا منازع !

ولما سارت الثورة فى طريقها المرسوم أمل أن تتخذ من
جماهير الوفد قاعدة لها • حتى اذا صدر قرار حل الأحزاب
تقوضت آماله وقال لى :

— نحن مقبلون على حكم عسكرى لن يعرف مداه الا الله •
غفلت له باخلاص :

— اعتزل السياسة وتركز فى مهنتك !
فقال ضاحكا :

— لا خيار !

ولكن وفاءه لزعيمه وزملائه رمى به فى موضع الشبهات
فاعتقل أكثر من مرة • وكان قد تزوج عام ١٩٤٠ فأنجب ابنا
وحيدا قبل أن تصاب زوجه بما منعها من الانجاب • وطالما

أعجبت بابنه لذكائه وحيويته • ولما اعتقل رضا تعرض لحملة تشهير كبقية زملائه فعانى ابنه — وكان طالبا في المدرسة الثانوية — تجربة مريرة بين أقرانه • وكان شديد الحساسية فامتحن بأزمة نفسية عنيفة أتلقت أعصابه • وسرعان ما كره المدرسة ، واعتكف في بيته ، ومضت حياته من سيئ إلى أسوأ حتى اضطر أبوه إلى إيداعه مستشفى الأمراض العقلية • ولم تحتل أمه الصدمة فشلت وماتت في نفس العام • هكذا وجد رضا نفسه كهلا وحيدا غارقا في الأحزان ، وهكذا أدركته لعنة أسرته • قلت لنفسي :

— انتهى رضا حمادة •

ولكنه لم ينته في الواقع • غادر حيه القديم إلى مصر الجديدة ، وكرس حيويته لمهنته ولكتبته • ولعل العشرة الأعوام الأخيرة كانت أنجح سنى حياته • إنه اليوم من أبرز المحامين • وهو عاكف على تأليف ما سماه بدائرة معارف العلوم الجنائية • وقد ضمن مقدمتها من الآراء الفلسفية والنظرات النفسية ما يشهد له بالموسوعية في المعرفة والمقدرة الفائقة في التفكير ، وليس هذا بالجديد على " فقد سَمِعْتَهُ يَنَاقِشُ الأساتذة ماهر عبد الكريم وسام جبر وزهير كامل وغيرهم فكأنه موسوعة في الفلسفة والسياسة والأدب ، أما عن القانون فهو حجة من حججه المعاصرة بلا جدال • غير أن أعجابه الأول به إنما يرجع إلى شخصيته الأخلاقية قبل كل شيء ، وقائلون جدا من عرفتهم يماثلونه في ذلك مثل كامل

رمزى وسرور عبد الباقي • ولا غرابة فى أن تبهرنى الأخلاق
البناءة كرجل عاصر فترة انهيار فى الأخلاق والقيم لا نظير
لها حتى خيل الىّ فى أحيان كثيرة أننى أعيش فى بيت كبير
للدعارة لا فى مجتمع • ففى رضا حمادة عرفت رجلاً نقى
النوايا والسلوك ، نزيها مخلصا ، آمن طيلة حياته بمبادئ
لا يحيد عنها كالحرية والديمقراطية والثقافة الى عقيدة دينية
مستتيرة متطهرة من شوائب التعصب والخرافة •

أجل وقف موقف الرفض من أى رأى يسارى ، وعجز عن
التطور مع الزمان ، فعاصرته أول العهد بصداقته وهو مثال
للشباب الثورى ثم عاصرته فى شيخوخته وهو محافظ عنيد
وان لم يعترف بذلك ، فما برح يردد أن الليبرالية هى آخر
كلمة مقدسة فى تاريخ الانسان السياسى • ولعل شخصيته
الأخلاقية هى التى سندهت حيال انكوارث التى عصفت بحياته ،
وأيدته بسحرها وهو يشهد اختفاء القيم والأشخاص الذين
عندهم مثل الحرية والديمقراطية ومصطفى النحاس وزوجته
وابنه ، توارى كل جميل من دنياه فلم يتهدم ، ولكن ثابر على
العمل بقوة مضاعفة ، وجابه الحياة بإرادة من فولاذ ، وظل
على علاقاته الطيبة بالأصدقاء والصالونات والمجالس • وكلما
أقبل على بquamته المديدة ورأسه الأبيض ، أو أمتعنى بأحاديثه
المتنوعة ، أنبعث فى أعماق روحى نشاط متألق بالأفراخ فأجدد
اعجابى به وبالحياة المباركة التى خلقتة ••

زهران حسونة

ثمة أصحاب من نوع خاص ، أصحاب يرتبطون بمكان ما لا يتجاوزونه ، خلا لى يوما ان أدعوهم أصحاب المقاهى • فى المقهى :تصافح بحرارة ونتجالس وننتسامر ثم يذهب كل الى سبيله • ومنهم من يختص بصفة تستحق التأمل فيترك أثرا قبل أن يذوب فى النسيان • من أولئك زهران حسونة • عرفتته فى مقهى ركس فى أيام الحرب العظمى الثانية وكنت أتردد عليه من حين لآخر بصحبة جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوى الفحام وعيد منصور • كان يزور المقهى مع آخرين من صحبه فى يوم الأحد ، وكان بدينا متوسط القامة كبير الرأس جدا كأن به عاهة • وعن طريق النرد تعرفنا بهم ثم صاحبناهم • قال يعرفنا بنفسه :

— كنت موظفا بوزارة التجارة والصناعة ثم سويت معاشى لأشتغل فى الأعمال التجارية ••

وكان اذا حضر وقت الصلاة قام هو وصحبه فانتحوا جانبا فيما وراء البار وأدوا الصلاة جماعة وهو يؤمهم • وهو يؤمهم لأنه الوحيد بينهم الذى أدى فريضة الحج • والحق أن الدين كان يشغل حيزا من أحاديثهم لا يستهان به ، وهى تفصح عادة عن ايمان بسيط صادق تختلط فيه العقيدة

بالخرافة بالأساطير الشعبية ولكن لا شك في صدقه • وكانت
صحبتهم ممتعة ، وكانوا كرماء ، وفيهم شهامة أولاد البلد •
غير أن عيد منصور قال لنا يوما :

— جئت لكم بمعنومات طريفة عن الحاج زهران حسونة •
فسأناه عنها فقال :

— لم يستقل ولكنه اضطر إلى الاستقالة لسوء سمعته ••
— أي نوع من سوء السمعة ؟
— الرشوة !

وعيد منصور يسره دائما أن بثبت أن جميع الناس لا خلاق
لهم مثله ! • قال وهو يضحك :

— انى أشك فى جميع الناس ولكنى أشك بصنفة خاصة
فى المتدينين !

فقال رضا حمادة :

— ولكن ليس كل متدين منافقا !

فقال عيد منصور وهو يضحك أكثر :

— النفاق درجة لا يرتقى اليها عم زهران حسونة !

فضحكنا فراح يفسر قوله :

— النفاق أن تبطن الكفر وتعلن الإيمان ولكنه أغبى من
أن يكون كافرا ، أنا لا أشك فى إيمانه ••

— إذن لعله تورط فى الرشوة تحت ظروف ضاغطة !

— لعله ••

ولاحظنا أن زهران حسونة يعمل بهمة في السوق
السوداء ، في تجارة الثقاب والويسكى ، ثم اشتغل في المواد
التموينية ، ولم يكن يخفى ذلك بل كان يبدى استعدادة لتقديم
الخدمات لنا ، فلم أملك أن أسأله :

— ألا ترى يا حاج في العمل في السوق السوداء ما يناقض
ورعك ؟

فأجابنى بثقة :

— للدنيا أسلوب في المعاملة وللآخرة أسلوب آخر !

— ولكن الله لا يمكن أن يرضى عن تجويع الفقراء •

فقال باطمئنان :

— انى اكفر بالصلاة والصوم والزكاة فماذا تريد ؟

فقلت لأصحابى بعد انصرافه :

— ان رجل يرتكب الاثم عن علم لا عن جهل أو نفاق !

فقال عيد منصور :

— ويثرى ثم يلجأ الى الدين ليكفر فتتحول سرقاته

بقدره قادر الى ربح حلال ، الدين عند عم زهران هو المشجع

الحقيقى على ارتكاب كافة الآثام !

ثم وهو يضحك عاليا :

— ولذلك فهو يسرق قوت الفقراء ويمضى ووجهه ينور

بالايمان والطمأنينة !

وكننت أتابعهم وهم يصلون في المقهى بعين متألمة

ساخرة ، يركعون ويسجدون ويسدلون جفونهم خشوعا

وامتثالا ، وأتذكر كم أنهم أوغاد لنصوص لا يحق لهم أن

ييقوا ساعة واحدة فوق سطح الأرض • ولم أجد جدوى في

مناقشاته فدائما أراه مطمئنا واثقا من نفسه ، يؤمن بالشر كما يؤمن بالخير ، ويطيع الشيطان كما يطيع الله ، ويتردد بينهما تردد التاجر الماهر في السوق الحرة الذي يحرص في النهاية على أن يزيد دخله على منصرفه • وجعلنى ذلك أتلصص وجوه الأعذار لأوغاد مثل خليل زكى وسيد شعير بل وعيد منصور ممن لم يتعاملوا معاملة جادة مع دين فانطلقوا فى الحياة بوحى غرائزهم وعقولهم العملية الجافة خلال أجواء من الصراع العنيف القاسى • ولذلك أيضا ترديت كثيرا فريسة لكآبة روحية معتمة كدت أرفض تحت وطأتها التجربة الانسانية كلها • وكانت تلك الاشكلة مدار أحاديث لا تنتهى بيننا • قال رضا حمادة :

— الظاهر أنه لا يوجد تاجر شريف 1

فقال عيد منصور :

— لا يوجد انسان شريف ••

فتساءلت :

— ماذا عن دور الدين ؟

وتساءل عيد منصور :

— لم نتمسك بالأخلاق ما دامت تقود الى الفشل ؟

وعاشت تلك المشكلة معى أعواما وأعواما حتى ناقشتها فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ، بدعا من نقد الواقع المصرى وانتهاء الى دراسة الخير والشر فى ذروتها الفلبينية • ويدعونا ذلك الى تذكر الدكتور ابراهيم عقل وفلسفته فتح المثل الأعلى

وسلوكة المناقض لفلسفته ! • وأذكر بالمثل قول الأستاذ سالم جبر :

— مهما يكن من أمر فلا يمكن تجاهل المرحلة التي قطعها الانسان من الغابة الى القمر !

أو قول رضا حمادة :

— توجد سجايا قيمة جدية باسترداد الثقة ، مثل تفانى الرجل فى خدمة أسرته ، مثل الذكاء الوقاد المولع بالحقيقة ، مثل بعض مواقف البطولة النادرة •

وقوله أيضا :

— لا تغال فى المثالية والا مت تقززا !

وأثرى زهران حسونة فى أثناء الحرب ثراء فاحشا فارتفع الى مرتبة أصحاب الملايين • وأسس شركة للمقاولات عام ١٩٤٥ ولكنى أغضيت عن التشهير به مذ قتل ابنه الطالب بكلية الهندسة فى معركة القنال عقب الغاء معاهدة ١٩٣٦ • سار الرجل وراء النعش معتمدا على ذراعى صديقين محمر العينين شارد اللب • واقتصرت علاقتنا وقتذاك على تبادل المجاملات فى المناسبات ، ولكن عيد منصور وكذلى أنه ما زال يجمع النقود ويؤدى الصلاة ، وكان أوثقنا صلة به بحكم أعماله التجارية • واستمر ازدهاره المالى فى صعود ، وأقام فى قصر المعادى • وتزوج فى الخمسين من فتاة فى العشرين بحجة زهد زوجته الأولى فى المسرات الزوجية عقب وفاة بكرىها ، ولكن ظل الحج نزهته الروحية كل عام ، وازداد نشاطه بعد

الثورة • لم يكن من الملاك الزراعيين • ولكن شركته أمت فيما
أمم من شركات عام ١٩٦١ ، وهكذا تقوض ذلك البناء الشامخ
الذى نحتت أحجاره من الذكاء والغش والارادة والانتهازية
والايمان والفجور • وكان رضا حمادة يعلق على الأحداث
بامتعاض شديد ، مؤكدا موقفه الثابت من الثورة ، فقالت له :

— ولكنك عرفت الرجل تماما •

فقال :

— ولو ، انها مسألة مبدأ ••

فقالت :

— ليست مسألة مبدأ ولا رجل ولكنه نظام بارك ذلك

كله ••

فقال بمرارة :

— انتظر حتى يتبين لك النظام الجديد ، لقد كان زهران
حسونة في البدء موظفا كهؤلاء الموظفين الذين انقضوا على
شركته ليديروها !

ولما أفاق الحاج زهران من الصدمة باع قصره ففتح
مقهى فى مصر الجديدة ، وضمن لنفسه مستوى من المعيشة
لا بأس به ، وهو يتظاهر دائما أماما بالشجاعة ورباطة
الجأش ، ويعلق على الأحوال بعبارات ذات مغزى دينى مثل
الحمد لله ، والأمر لله ، لا حول ولا قوة الا بالله ، له فى ذلك
حكمة ، ويذهب به الحذر أحيانا الى الثناء على القرار الذى
جرده من ثروته فيقول :

— عدالة علينا أن نقبلها على العين والرأس •
ولكن تقضحه أحيانا ومضات فرح للكوارث لا يحسن
مداراتها : مثل الأزمة الاقتصادية وورطة اليمن ، وأخيرا
• يونية ااذى دار رأسه فيه بنشوة النصر ! • لقد لاطمتنى
فى ذلك اليوم المشؤوم تيارات متناقضة كاد يختل لها عقلى ،
ولعله مما زاد اكبارى لرضا حمادة أن المأساة قصمت ظهره
كما قصمت ظهرنا ، وأنه نسى فى ذلك اليوم كل شيء الا حبه
العنيد لوطنه ••

زهير كامل

عندما التحقنا بالجامعة كان معيدا بقسم اللغة العربية تمهيدا لارساله في بعثة الى فرنسا • وسمعنا عنه ثناء طيبا من الدكتورين ماهر عبد الكريم وابراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة :

— انه مثال للفلاح اذا نبغ •

وحدثني رّضا حمادة عنه فقال :

— عرفته في بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمود ويعرف مصطفى النحاس معرفة شخصية •

وسافر في البعثة عام ١٩٣٢ ثم رجع دكتوراً عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فعين مدرس (ب) بهيئة التدريس الجامعية • وفيما بين تاريخ تعيينه وعام ١٩٥٠ تركز نشاطه الفكري في الجامعة والتأليف ، فأصدر كتبه المعروضة عن نظريات النقد العامة ، ونقاد من الشرق والغرب ، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودلير واليوت والشعراء الأندلسيين • وكان يتردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطدت بيننا صداقة متينة • وتزوج في أثناء الحرب من فتاة يونانية كانت تعمل في محل فينوس فأنجب منها ولدين وبنتا • وكان أستاذا جامعيا بالمعنى

الدقيق ، يكرس حياته للبحوث الأكاديمية ، ولا حديث له خارج مضامينها ؛ فلم أعرف له اهتماما عاما آخر . وحاولت أحيانا أن أستشف فيه الطالب الوفدى القديم فلم أفلح ، ولكنه بخلاف الكثيرين كان يتمنى النصر للحلفاء ، ربما حبا فى الديمقراطية كما قال ، أو ميلا مع عواطف زوجته ، أو تعصبا لفرنسا التى عشقها من أعماق قلبه . وفى عام ١٩٥٠ فاجأنا بما لم نتوقع أبدا . فرشح نفسه على مبادئ الوفد فى إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة ، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكن الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد :

— انه قرار يستحق الأسف .

وقال لى رضا حمادة :

— لعله بحلم بوزارة المعارف .

ولقد قد يطول الزمن حتى يتحقق الحلم فكيف يواجه أعباء الحياة بمعاش صغير ومكافأة النيابة التى لا تتجاوز الخمسين الجنيه ؟ . قال رضا حمادة :

— ستخبرنا الأيام !

وأخبرتنا الأيام بأسرع مما تصورنا ، فظهرت مقالاته السياسية فى الجرائد الوفدية ، بل برز ككاتب سياسى من الدرجة الأولى ، إلى مقالات فى النقد فى المجلات الأسبوعية . وحدث أن كان لزهرا ن حسونة أعمال فى الحكومة تحتاج فى إنجازها إلى واسطة فطلب منا أن نقدمه إلى صديقنا النائب هفعلنا ، ومن يومها توطدت بين الاثنين علاقة متينة . ثم

مضت تترامى اليها همسات عن تصرفات الدكتور زهير كامل
غربية بل مربية • وقد سألت رضا حمادة يوما :

— ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل ؟

فأجابني بامتعاض شديد :

— يقال انه أصبح سمسار وظائف ••

ثم وهو يهز رأسه في أسف :

— ويقال انه يقدم خدمات لزهرا ن حسونة وأنه ينال عن
خدماته مكافآت سخية ••

— وهل صحيح ما يقال ؟

— نعم للأسف الشديد ، وانى أتساءل أحيانا والحزن
يمر ريقى أى فارق هناك بين الوفد وبين غيره من الأحزاب ؟

— ولكن هل نتصور أن زهير كامل نبذ الأستاذية فى
الجامعة ليمارس النهب والفساد ؟

— انى أتصوره وغدا من البدء غير أنه كان يتخين فرصة
لاستغلال مواهبه حتى وجدها فى السياسة ••

وجلسنا يوما نتبادل الأحزان على صديقنا النابغة وحزبنا
العتيد • ولما أقيمت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول
الدكتور زهير الرجوع الى الجامعة ولكنه لم يفلح • وواصل
حياته ككاتب سياسى وناقد ولكنه بات ينظر الى المستقبل بقلق
وبخاصة وأنه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة •
واجتمعنا يوما عند الأستاذ سالم جبر ، وكان منفغلا ويقول :

— ما هذا الذى يحدث بالوطن ؟ .. الملك جن ، وكل شيء
ينهار ..

فقال الدكتور زهير كامل :

— ما أشبه حالنا السياسى بالدكتور ابراهيم عقل الذى
بدأ باحثا نابها وانتهى بالدروشة !

وقال رضا حمادة :

— أصبح الوفد كزعيمه فهو شيخ هرم طيب يزحف عليه
العجز والتدهور ..

فقال سالم جبر :

— لا يمكن أن تدوم الحال على هذا المنوال فماذا عن
الغذ ؟

فقال زهير كامل :

— ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطر الملك الى
استدعائه عاجلا انتقاء لانفجار ثورة شاملة !

فقال سالم جبر :

— الثورة أفضل من الوفد ..

فقال رضا حمادة :

— وفى الانتظار الاخوان والشيوعيون ..

فقال زهير كامل بحدة :

— لا أغلبية لهؤلاء أو أولئك ..

فقال سالم جبر :

— الوطن غير مؤهل للشيوعية ولا عقيدة هناك جديدة

باستيعاب الشباب المتفتت بين الثورة والانحلال !

وقامت ثورة يوليو متحدية كل تخمين • وسرعان ما وجد زهير كامل نفسه في مأزق لم يعمل له حسابا • أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتحرير ماذا يفعل وماذا يكتب • ولما اتجهت السياسة العامة نحو تصفية الأحزاب وتركز الهجوم عليها بصفة عامة وعلى الوفد منها بصفة خاصة باعتباره القاعدة الشعبية القديمة ، أذ بالدكتور يرمينا بالمفاجأة الثانية في حياته ، فانقض بمقالات من نار على الوفد مرجعا الى فساد كل فساد نخر في عظام الوطن • وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم في صدور الوفديين ولكن أحدا لم يستطع أن يقلل من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعي الوقور فضلا عن اشتراكه في برلمان الوفد الأخير • وتعين صحفيا في إحدى الجرائد الكبرى ، وسرعان ما اعتبر قلمه من أقلام الثورة ، كما عهد اليه بتحرير صفحتها الأدبية فقاد نقد الأدب المعاصر • وبسبب مسئولياته الجديدة ، وربما خجلا من انقلابه المفاجيء تجنب الى حين التردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم • وتساءل الدكتور ماهر :

— ألم يكن الأفضل له أن يبقى في الجامعة ؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة :

— رأيت ماذا فعل الوغد بنفسه ؟

فقلت :

— لعن عذره أنه فعل ما فعل لحساب قوة وطنية لا شك
فى وطنيتها •

وعاد زهير كامل للظهور فى مجالسه المفضلة كصالون
الدكتور ماهر غبد الكريم ومكتب سالم جبر فعدنا للتلاقى
المنتظم كما كنا ، وعاودت الاطلاع على فؤاده • قال :
— لم تكن ثمة جدوى من المقاومة ، ولم أقاوم ؟
وقال أيضا :

— كنت على وشك الافلاس ، ولكن لم يكن المال وحده هو
الدافع فأنا مطمئن الضمير !
فقلت :

— اذن فأنت تؤمن بثورة يوليو ؟
فقال وهو يتفحصنى بعينه اذكيتين :
— انها حركة مباركة منعت بقوتها الذاتية اشتعال ثورة
لاحت مخالبتها فى الأفق !
— يا لها من فكرة ! ••

— وأعترف لك بأئنى لست ثوريا ، فكما لا أوافق على
رجعية الاخوان فأنى لا أوافق أيضا على ثورية الشيوعيين ،
وأومن بالاصلاح الرزين الذى نتأثر خطاه ، وهو طريق الوفد
أيضا لو قيض لجناح شبابه أن ينتصر ••

ولكنى لاحظت بدقة المراقبة أن عواطفه لم تتسجم
تماما مع أفكاره ، وأن حماسه الظاهر كان لتبرير

انقلابه قبل كل شيء • وعلى مدى الأيام اضطر الى أن يعترف
لى قليلا :

— ألم يكن الأفضل أن يتم ما تم بيد انتفاضة شعبية
بقيادة شباب الوفد !
فقلت :

— المهم أن يتم ما تم •
فقال بعد تأمل :

— ولكن الانسان لا يستطيع التخلص من عقليته الخاصة
ولذلك فقل على الحرية السلام !
وكان الأستاذ رضا حمادة معتقلا فى ذلك الوقت فجاء
ذكره فقال زهير :

— ربنا معه •
فقلت بثقة :

— انى أعتقد ببراءته •
— لم ؟

— انى من أعلم الناس بنقاء أخلاقه ••
ترى أضايقه قولى ؟ •• على أى حال قال :
— على ذلك الجيل من السياسيين أن يتخذ من أستاذنا
القديم أبراهيم عقل مثلا يحتذى ••
فدهشت لقوله وقلت :

— الدكتور أبراهيم عقل يعانى حال دروشة كاملة وقد
لمست ذلك بنفسى فى لقاء عابر معه بحى سيدنا الحسين !
— هذا ما أعنيه تماما ، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة
الكوليرا التى قضت على أبنيه ••

— ماذا تعنى ؟

— أعنى اذا صادفتك كارثة يستحيل التغلب عليها فعليك بالدروشة ، أى نوع من الدروشة ، أما المقاومة غير المجدية فترمى بك الى المعتقل !

وزهير كامل الناقد عانى انقلابا من نوع آخر فى نفس الوقت • فبكل استهانة مضى يتاجر بالنقد • مضى يتقبل الهدايا والنقود ويقيم الفن والفنانين تبعا لذلك • وبازدهار الحركة المسرحية والانتاج السينمائى تضاعفت أرباحه فشيد فيلته الأنيقة بالدقى واقتنى المارسيديس ، وبخلاف اعتداله القديم أفرط فى الطعام والشراب فزاد وزنه لدرجة أصبح من المتعذر معها التعرف عليه من أول نظرة • لم يبق من مزاياه القديمة الا ثقافته الواسعة وذوقه المدرب فى شتى ألوان الفن • ورغم الثورية التى اتخذها مهنة كان اذا ذكر الوفد تجلى الحنين فى عينيه ، بل علمت أنه حمل صديقا رسالة خاصة الى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عما بدر منه فى حقه ، ويشير له الظروف القاسية التى اكتتفت قراره • ولما أعلنت ثورة يوليو عن سياستها الاشتراكية توثب بهمته المعروفة لدراسة الاشتراكية ليؤيدها عن علم ويحتفظ لنفسه بمستواه ككاتب من كتابها الأول • وفى أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية ، ثم أصدر فى النهاية مؤلفه المعروف « اشتراكية هذا الوطن » • وفى هذه الناحية بالذات يئس من اقناعى بإخلاصه لسابق علمى بديمقراطيته الليبرالية ، وقد سألته مرة ضاحكا :

— كيف انقلبت اشتراكيا بهذه السرعة الجنونية ؟

أجابني ضاحكا أيضا :

— الناس على دين أوطانهم !

— أعتقد أنهم يصدقونك ؟

— لم يعد أحد يصدق أحدا .

ثم قال والضحك يعاوده :

— المهم هو ما تقول وما تفعل !

واجتاحته موجة من الضحك ثم قال :

— يتساءلون كثيرا عن سر ازدهار المسرح ، أتدرى

ما هو سر ذلك ؟ ، السر أننا صرنا جميعا ممثلين . . !

فقلت :

— وبالرغم من ذلك فقد حقق هذا العهد من الخير ما لم

يحققه عهد سابق بلا استثناء !

فقال وهو يتنهد :

— وأصبح لكل شيء قيمة الا الانسان !

فتساءلت بمرارة شديدة .

— متى كان للانسان قيمة فى بلادنا ؟ ! ، على الأقل

فهو يحرر اليوم من عبوديته الاقتصادية والطبقية والعنصرية

وستجىء الخطوة الذاتية عندما يستحقها بجدارة !

وقد بلغ قمة سقوطه الأدبى عندما ألف رسالة صغيرة

عن أدب « جاد أبو العلا » ! • وكان جاد أبو العلا يسعى الى

التعرف به حوالى عام ١٩٦٠ نفس العام الذى تعرف به فيه .

ورغم ذلك كانت الرسالة مفاجأة لى لم أتوقعها بحال • ومهما

يكن الثمن الذى قبضه — قيل انه طاقم تحف عربية وألف جنيه — فقد دل على أن صاحبى تمرغ فى السقوط حتى فقد احساس الحياء الذى يصاحبه ، وصدق عبده البسيونى عندما قال لى يوما فى حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة :

— هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه الا مومس !

وأوشك زهير كامل أن يعلن ارتداداه فى ظرفين لولا حسن حيله ، أولهما الاعتداء الثلاثى عام ١٩٥٦ والآخر النكسة عام ١٩٦٧ ، وفى كل مرة خيل اليه أن الثورة صفيت وانتهت فتوثب للعمل لمستقبله من جديد . ووضح لى فى المرتين مدى ما ينطوى عليه من افتهازية وزيف ، بالرغم من أنه يدين للثورة بجاهه وماله . وقارنت بينه وبين رضا حمادة ، فكلاهما يتمتع بتقافة انسانية عميقة وشاملة ، وكلاهما من الجيل السياسى السابق الذى أجهضته الثورة ، وكلاهما ينتمى الى عقيدة معادية للاشتراكية ، ولكن أحدهما يحتوى على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات ، والآخر تستقر فى أعماقه روح نبيل يستحق الفرد من أجله أن بقدرس ويعبد . وفى العام التالى للنكسة دهمته أحداث فى صميم أسرته لم تخطر له ببال ، اذ صمم ابناء المهندسان على الهجرة الى كندا ، ولم يستطع أن يثنيهما عن عزمهما ، أما أمهما فمالت الى تشجيعهما ، وما لبث الشبان أن حققا رغبتهما بالفعل . وحزن زهير لذلك حزنا شديدا وراح يقول لى :

— نأ فلاح ؛ ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به •

فسأله عما دعاها للهجرة فقال :

— الأمل فى مستقبل أفضل ••

وهز منكبيه فى أسف وقال :

— نعم يعد للوطن قيمة ، تركاه فى محنة قاسية ، عن عدم
اكتراث أو يأس ، وجريا وراء الأمل الخلاب ••

واجتاحه غضب مفاجئ فقال :

— علقى معهما ، ولكن قلبى يتوجع ••

وأما كريمته فقد أحببت تسابا يونانيا وهى فى رحلة الى
اليونان بصحبة أمها • وبكل بساطة تزوجت منه هازئة بكافة
التقاليد • وجعلت زوجته تتردد بين القاهرة وأثينا حتى
استقرت بصفة نهائية فى موطنها الأصلى قبيل انقضاء العام •
ووجد الدكتور زهير كامل نفسه وحيدا فى الستين ، مريضا
بالسكر والضغط •• وهو فى ذلك يشبه رضا حمادة غير أن
هذا خلق نهايته بنفسه متجاوزا كافة أهزائه ، أما زهير فعانى
مرارة الوحدة والسأم والهجر • ويوما سألتى عبده البسيونى
فى صالون جاد أبو العلا :

— هل تعرف نعمات عازف ؟

فأجبت بالنفى فقال :

— هى ضحفية تحت التمرين ••

— وماذا يعنينى من ذلك ؟

فقال ضاحكا :

— انها عشيقة الدكتور زهير كامل !

— زهير كامل ! .. انه شيخ فى الستين أو أكثر ..

— ستسمع عن زواجهما فى القريب ..

وسمعت .. وعرفت العروس وهى جميلة فى العشرين ،
وركن الأستاذ معها الى اللهو والراحة فلم يمسك بالقلم
الا لكتابة يومياته الأسبوعية فى الموضوعات اليومية العامة
مقلما عن مراجعة الكتب والمراجع . ولكن مرضه استفحل
حتى أقعده بصفة نهائية فى الفراش ، فأطفأ الشعلة المضيئة
الوحيدة فى حياته المعتمدة ، شعلة العقل . وما زلنا نزوره من
حين لآخر ، فتدور المناقشات فى حجرة نومه ، ويشارك هو
فيها بسمعه أو ببضع عبارات موجزة فقدت اشاراتها الذكية
وأفكارها الموحية ، لتذكرنا بأن لكل شىء نهاية ..



سبابا رمزي

زأملنا في المدرسة الثانوية • زأملنا عامين ثم اختفى • وبالرغم من أن زمالته ترجع إلى عام ١٩٢٥ فما زلت أتذكر بوضوح عينيه اللوزيتين الحادتين وقامته القصيرة لحد الرثاء • وكان رياضيا متفوقا في القسم المخصوص والكرة • كان الجناح الأيمن لبندر الزيادي وكان تبادل الكرة بينهما يشكل خطرا على أي فريق نلعبه • لذلك اكتسب في المدرسة شهرة واحتراما رغم قصر قامته • وكنا في أوقات الفراغ نقرأ المنفلوطي معا ونستظهر ما نختاره من جملة الموسيقى • وحدثته مرة عن روايات ميشيل زيفاكو فتجهنم وجهه وسألني :

— أصدقت ما جاء في رواياته عن البابوات ؟

فقلت ببراءة :

— ولم لا أصدقها ؟

فقال بنبرة تحذير :

— انه عدو للكاتوليكية ولذلك فهو يعتمد تشويه سمعة

البابا • •

عرفت لأول مرة أسماء جديدة كالكاثوليكية والبروتستنتية والأرثوذكسية • وتحيرت بينها حتى أخبرني زميلنا ناجي

مرقس أن المذهب المسيحي المصري هو الأرثوذكسية وأن
المبشرين أفسدوا بعض الأقباط فجروهم الى اعتناق الكاثوليكية
أو البروتستنتية • وراح جعفر خليل يداعب سابا رمزي
قائلاً :

الآن عرفنا أنك قبطى فاسد !

وجعفر خليل هو الذى أفشى سره فقال لنا يوما :

— فبكم من يحفظ السر ؟

فتساءلت أعيننا باهتمام فعاد يقول :

— الجناح الأيمن سابا رمزي يحب مدرسة بمدرسة
العباسية للبنات !

ورافبناه عقب انصراف المدرسة فرأيناه وهو يتبعها فى
طريقها حتى مشارف باب الشعرية • وكنا يوما نقرأ بالتبادل
فى مجدولين فلاحظت تهديج صوته حتى كف عن القراءة من
شدة التأثر • وشعر بعينى فوق جفنية المسدلين فتمتم :

— رأيتمكم، وأنتم تتبعونى !

ثم بمزيد من التأثر :

— أنا أحب مثل ستيفن وأكثر !

ووجد منى مشاركة وجدانية اذ كنت عاشقا مثله فقال :

— سأحبها مهما يكن الثمن !

فقلت له بعطف :

— ولكنها مدرسة وما زلت تلميذا صغيرا •

فقال باصرار :

— الحب أقوى من كل شيء •

وقال :

— انى أحاول محادثتها ولكنها تتجاهلنى ، يقال ان ذلك أسلوب من الدلال ، ما رأيك ؟

— لا أدرى ••

— كيف أعرف ان كانت تحبنى أو لا تحبنى ؟

— لا أدرى ••

— هل نسأل جعفر خليل وبدر الزياى ؟

فقلت، محذرا :

— كلا •• انهما يحبان المزاح وسيجعلان منك نادرة !

واستمرت مطاردته اليومية للمدرسة بلا نتيجة ، وأخذت ثقته بنفسه تضعف ويغلبه الحزن • وشهدنا عصر يوم منظرا ليس من السهل أن يمحي من الذاكرة • رأينا يعترض سبيل المدرسة بجرأة ويقول لها :

— من فضلك ••

فمالت عنه ناحية وسارت فى طريقها فتبعها وهو يقول :

— لا بد من كلمة ••

فهتفت به غاضبة :

— لا يمكن أن أحتملك الى الأبد ••

فقال بتوسك :

— اسمعى كلمة بىك أدب ••

— دعنى والا ناديت الشرطى ••

وابتعدت تسير بخطوات غاذية سريعة • وقف ينظر اليها
يذهول • وبحركة سريعة غير متوقعة دس يده في جيبه
فاستخرج مسدسا فسدده نحوها وأطلق النار ! • صرخت
الفتاة صرخة فظيعة وارتفع وجهها الى السماء في حركة
متشعبة ثم تهاوت على ظهرها • وجعل سابا ينظر اليها ،
ذراعه مدلاة ، ويده ما تزال قابضة على المسدس • وظل كذلك
حتى قبض عليه • وفاضت روح الفتاة قبل مجيء الاسعاف •
وعرفنا فيما بعد أن سابا سرق مسدس أخيه الضابط في
الجيش ليرتكب جريمته عند اليأس • ولم ندر عنه شيئاً
بعد ذلك ، ولم نره مرة أخرى • لقد طبع في خيالنا صورة
لا تتسى ثم ذهب •

سالم جبر

عرفت اسم سالم جبر ككاتب مقال بجريدة كوكب الشرق عام ١٩٢٦ • كان بدر الزياىدى أول من نوه به أمامى فوصف كتابته بانبلاغة والفائدة • ووجدته داعيا متحمسا للحضارة والاستقلال الاقتصادى وتحرير المرأة كما دعا الى اتخاذ القبعة غطاء للرأس بدلا من الطربوش • وكان حقوقيا ولكنه لم يشتغل بالقانون ، وكان يقوم بجولة ثقافية فى انجلترا وفرنسا كل عام تقريبا • ولما قامت ثورة ١٩١٩ اشترك فيها ضمن طلبة مدرسة الحقوق ، وأصيب برصاصة فى كتفه يوم الهجوم على الأزهر ، ثم عمل فى الصحافة الوفدية ، وظل يعمل فى الصحافة حتى اليوم • وتغير موقفه السياسى بعض الشئ منذ تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ • وقد قال لى يوما بعد أن جمعتنا صداقة متينة ملقيا ضوئا على تلك الفترة من حياته :

— كان من رأىى ألا يتولى سعد زغلول الوزارة ، وأن يظل الوفد وراءه فى الميدان الشعبى حتى تتحقق رسالة الوفد الوطنية ••

فسألته :

— خرجت وقتذاك على الوفد ؟

— كلا ولكن تحول اهتمامي الحقيقي الى ناحية أخرى .

أجل ، تحول الى اعتناق الشيوعية . وعرف بذلك منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم . ولم ينس أنه صحفى فى جريدة الوفد ، فتجنب مناقشة الموضوعات الجديرة باخراج الزعيم ، واختط لنفسه منهاجا خاصا فى الكتابة بنفس به عن عقيدته الجديدة بطريق غير مباشر ، ولا يتنافى فى مظهره مع سياسة الوفد ، فراح يدعو الى حرية المرأة والعلم والصناعة . وتقدم خطوة أخرى فألف رسالة فى المذهب الاقتصادية مؤرخا ضمنا للاشتراكية ! . وحوالى عام ١٩٣٠ أصدر رسالته الثانية عن « كارل ماركس ورسالته » وسرعان ما صدرتها السلطة ، وتعرض بسببها لحملة عاتية من الجهات المحافظة التى اتهمته بالالحاد والفوضوية . تعرفت به وأنا طالب بالجامعة فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة ، وكنا نلتقى كثيرا بالصالون أو فى مكتبه بالجريدة .

وقدمت اليه من زملائي رضا حمادة وجعفر خليل ، وكنا نتحدث فى السياسة والاشتراكية ، ولم نفتح صدورنا لما قال عن صراع الطبقات و«كتاتورية الطبقة العاملة» ، وقلت له :

— اشتراكية تجيء عن طريق البرلمان ، هذا ما أحلم به !

فقال متحديا أفكارى :

— أنا عدو للوفد !

— أنت تقول ذلك ؟

— ونصير للملك وأحزاب الأقلية ..

فضحكت غير مصدق فقال .

— الوفد أفيون الشعب !

ثم وهو يضرب مكتبه بقبضة يده :

— الوفد هو المسئول عن استسلام الشعب لأحلام لن
تتحقق أبدا ، وسيعجز دائما عن تقديم أى خدمة حقيقية
للشعب ، أما إذا سيطر الملك وأحزابه ، واستشرى الفساد
واستوطن ، يؤس الشعب وتوثب لثورة حقيقية !
فسألته :

— وما جدوى ذلك والانجليز يكتمون أنفاسنا ؟

— توقع المعجزات عند اليأس .

وآنس الدكتور ابراهيم عقل منى ميلا لترديد بعض آراء
سالم جبر فقال لى :

— احذر فلسفة سالم جبر الكاذبة !

فأخذت بموقفه وقلت له :

— الحق أنى أول ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له

يدافع فيه عنكم !

فقال ساخرا :

— لم يكن دفاعا ولكن كان احرأجا فهو لا يرضى عن مفكر

الا اذا أشهر الحاده أو فوضويته ..

وكان ذلك بحضور الأستاذ عباس فوزى — بصالون النير
فقال عباس منضماً للأقوى كعادته :

— أنه رجل فاجر ومن آى ذلك أنه لا يؤمن بالزواج !
فقلت بدهشة !

— ولكنه متزوج وقدمنى للمدام فى حديقة الأورمان !
فقال عباس فوزى ضاحكا :

— انها عشيقته ، وهى أرملة فرنسية ، فكيف تجهل ذلك ؟
وتؤكد لى أنها عشيقته بعد ذلك ، وظل مخلصا لها حتى
توفيت عام ١٩٦٠ • وروى لى حكاية غرامهما الأستاذ عبد
الرحمن شعبان المترجم فقال ان المرأة كانت زوجة لمهندس
فى شركة الكهرباء ، وأنها أحبت سنالم جبر فى حياة زوجها ،
فلما توفى اتفقا على المعاشرة دون زواج • وكانت امرأة حرة
وشيوعية مثله ، أملاكها فى مصر ولكنها تحب السفر كثيرا
الى فرنسا ، وتكره فكرة الانجاب •

وآلف سنالم جبر كتابا عن الدين المقارن قبيل الحرب
العظمى الثانية ، عرض فيه الأديان بأسلوب علمى موضوعى ،
فأثار الكتاب ضجة ، واتهم صاحبه بالافتراء على الدين
الاسلامى ، ومن أجل ذلك قدم الأستاذ الى المحكمة ، ولكن
المحكمة برأته وصادرت الكتاب • وفى أثناء الحرب شن
حملات صادقة على النازية والفاشستية كان لها صدى حسن
فى دار السفير البريطانى •

ودعى لالقاء محاضرات أسبوعية فى الاذاعة ، وقلت :
بمكتبه بجريدة المصرى :

— يقولون انك أصبحت من أصدقاء السفارة البريطانية •
فقال ساخرا :

— لا عداوة تدوم ولا صداقة ، أعترف بأننى فى هذه
الحرب حليف للانجليز !
فقلت له :

— يبدو أن نجمهم آخذ فى الأفول !
فقال بحدة :

— لا خوف من انتصار النازية حتى اذا انتصرت فان
للتاريخ قوانينه وهى أقوى من الحرب والنصر •

ولما جاءت حكومة الوفد عمل معها باخلاص كئسانه قبل
أن يتولى سعد زغلول وزارته ، ولما زحفت جيوش رومل نحو
الحدود المصرية هرب مع الهاربين الى السودان • ثم رجع
عقب انقلاب الميزان ليواصل جهاده الصحفى • وأذكر أنه
جلس بينى وبين رضا حمادة فى مأتم المرحوم جعفر خليل
عام ١٩٥٠ فحدثنا عن أفراح الوطن بعودة الوفد ولكنه قال :
— لم يعد بوسع حزب من الأحزاب مهما تكن شعبيته
أن يواجه الموقف •

وتكلم عن الولايات المتحدة باعتبارها روح الشرف فى العالم ،
قال :

— لا نجاه للعالم الا بالشيوعية العالمية •

ولما انصرف قال لى رضا حمادة :

— لا يوجد انسان كهذا الرجل يجمع الكل على بغضه !

فقلت بصدق :

— ولكنه رجل ذو عقيدة ومنزه عن الأغراض •

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تكشف ذلك البناء المنطقى المنسجم مع ذاته عن تناقضات كالخيال فى غرايتها • وهو فى الظاهر لعب الدور المنتظر منه • كان حقيقة فكرية واضحة للصديق والعدو • عمل فى جريدة الثورة واضعا قلمه فى خدمتها • ولكنه تكشف لخاصته المقربين عن حزمة من المتناقضات جعلت منه فى النهاية شخصا مجهول الهوية • تخمس لالغاء النظام الملكى تحمسا لا مزيد عليه واعتبره معجزة من المعجزات ، ولكنه همس فى فتور :

— ذهب الملك وحل محله عدد غير محدود من الملوك !

وفرح بالقضاء على الاقطاع وتحديد الملكية الزراعية ولكنه قال :

— المسألة هى ملكية أو لا ملكية ، أما توزيع الأرض على الفلاحين فمن شأنه أن يقوى غريزة الملكية المتوارثة من عصور الظلام !

ولما حلت الأحزاب التى طامح حمل عليها حزن على الوفد حزنا غير مفهوم وقال :

— وكيف تمضى البلاد بلا قاعدة شعبية ؟ !

وقال أيضا :

— التضحية بالحرية فعل مؤقت معقول من أجل الشيوعية
ولكننا نسير بلا حرية ولا شيوعية !

ولما حاربت الحكومة الشيوعيين والاخوان المسلمين
قال :

— ها هم يقضون على القوى الايجابية في الأمة
فلا شيوعية ولا اخوانية ولا أحزاب فعلى من يعتمدون في
تحقيق سياستهم ؟ ، ولم يبق الا الموظفون والمأجورون ،
وسبقيمون بنيانهم على قوائم من قش ..

حتى الشيوعيون أنفسهم لم يكونوا بأحظى عنده من
غيرهم ، وما نالوا عطفه الا في فترات الاعتقال أو السجن ،
وسرعان ما يرميهم بالتفسخ والانحلال والسقوط ، واقتنعت
أخيرا بأنه شخص غريب خلق ليكون معارضا ، حبا في
المعارضة قبل كل شيء ، فاذا كانت الدولة اقطاعية فهو شيوعي ،
وان تكن يسارية فهو محافظ . أجل محافظ ! . فعندما ساند
الاتحاد السوفييتي الثورة وعاونها في الحرب والسلام ،
سمعت منه ما لم يجر لى على بال . قال مرة والجنق يلتهم
قلبه :

— الشيوعية نظام عظيم حقا ولكن ما هو الانسان
الشيوعي ؟ .. هو شيء ميكانيكي لا انسان حي !
وبغير حياء سألني مرة :

— لم يود الناس أن يهاجروا الى الولايات المتحدة ؟
فأجبت بسخرية واضحة :

— لأنهم يجدون هناك الخبز والحرية !

فقال بامتعاض :

— لا قيمة للحياة بلا حرية فلا تكن متعصبا •

فقلت وأنا أضحك :

— أنت الذى علمتنى ذلك !

فقال بمزيد من الامتعاض :

— متنا • • متنا • • فمتى نبعث ؟

وقلت له بشيء من الصراحة :

— أحيانا يتعذر فهمك ،

فقال بحدة :

— أنا واضح كالشمس ولكنكم اعتدتم الشروح المطولة
والهوامش وهوامش الهوامش !

وقد علمت بوفاة صديقته الفرنسية عرضا فى بار الأنجلو
بعد مرور أيام على وفاتها مبادرت الى زيارة مسكنه بشارع
قصر النيل ولكنى وجدته مغلقا لا يرد ، ولم أجده بمكتبه
بالجريدة كذلك ، ثم تبين أنه سافر عقب دفنها الى أسوان فخلا
الى نفسه شهرا كاملا • ولما قابلته بعد ذلك وجدته يمارس حياته
بنشاطه المعهود ولكن مسحة من الكآبة طبعت وجهه بطابعها
فلم تفارقه دهورا طويلا • ولم يكن يحب الخوض فى شئون
الخاصة ، فلم يحدثنى بكلمة واحدة عن حبه أو أسرته
أو طفولته ، وكأنه إنسان عام فحسب ، عام فى الظاهر
والباطن ، فى الحضور والغياب • وسألته مرة :

— ألم تأسف مرة على أنك لم تتزوج ولم تتجب ؟

فأجاب بسخرية :

— الندم عادة دينية سخيّة •

ولكني شعرت — ان صدقنا وان وهما — بأنه يعاني مرارة الوحدة في الشيخوخة • وحفلت تلك الفترة من حياته بالمناقشات الحادة التي بلغت في أحيان كثيرة حد المصارحة الجارحة في مخاطبة أصدقائه • قال مرة لرضا حمادة :

— عليك أن تعترف بأنك رجعي ترسب في مجرى الزمن •

وقال مرة أخرى للدكتور زهير كامل :

— أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم •

وسأله جاد أبو العلا عن رأيه في أدبه فأجابه على مسمع منا :

— من الخير لك أن توفر وقتك لتجارة التحف ! •

وكان من بين الدين سروا في أعماقهم بالكارثة التي حلت بالوطن في ٥ يونية ١٩٦٧ ! • وهو موقف غريب ولكن تبناه جميع أعداء الثورة ، وشاركهم فيه ذلك الرجل الشاذ الذي خلق ليعارض الدولة وليقف منها موقف النقيض دائما وأبدا • قال منفساً عن حقه :

— ما جدوى أن نتحرر من طبقة لنقع في قبضة الدولة الفولاذية ؟ • السلطة الحاكمة أثقل من الطبقة ، أثقل من الشيطان نفسه !

ولكن الثورة لم تتلاش ، بل مضت تضمد جراحها وتجدد

حيويتها وتتأهب لمعركة جديدة • ومضى هو يحنق من جديد ويتمزق بين المتناقضات ، وان حافظ في الظاهر على شخصيته التي عرف بها منذ عام ١٩٢٤ وان ظل قلما أميناً من أقلام الثورة • ورغم بلوغه السبعين من عمره ، ورغم وحدته وخلوه من روح الدعابة ، فهو يتمتع بصحة جيدة ونشاط موفور • ولعله المصرى الوحيد من معارفى الذى لم أسمع به يمزح أو ينكت أبداً ، ولا عرفت له هواية فنية ، حتى الغناء لا يتذوقه . والأدب النادر الذى يطلع عليه يقرأه قراءة سياسية خاصة كأنه خلق شاذ مقطوع الصلة بالامتناع والجمال • وركز فى الأيام الأخيرة على الايمان بالعلم ، ايماناً نسخ ايمانه القديم بالأيديولوجية ، ويتساءل مراراً :

— متى يحكم العلم ؟ • متى يحكم العلماء ؟ ! • •

هذه هى آخر هتافاته ، وهى خليقة باشباع معارضته الأزلية لجميع أنواع الدول ، حتى قال رضا حمادة :
— انه رجل مجنون ، هذه هى الحقيقة !

فقلت :

— وثمة حقيقة أخرى وهى أن أقواله التى تنكر لها خلقت فى أجيال أثرا لا يمحي !

سرور عبد الباقي

من أصدقاء العباسية • وكان أبوه محاميا ذا شهرة ومال • وكانت أمه قوية الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم فخضع لها الأب والابن والبنتان • وكانت بخيلة فيما بدا • تساوم الباعة المتجولين بلا رحمة ، ومن أجل مليم واحد تلغى صفقة • وتزن مشترياتها في ميزان خاص ابتاعته لذلك • وظهر أثر ذلك كله في سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد • وكانت علاقته بنا ذات نوع خاص ، فهو لا يفارقنا ، وهو لا يندمج فينا ، ويتجنب مشاركتنا في مزاحنا الطليق ونكاتنا اللا أخلاقية • وتذاكرنا يوما مطربة جديدة هي أم كلثوم فقال سرور عبد الباقي :

— سمعتها في فرح وأعنفد أن صوتها أحلى من صوت منيرة المهدية !

فكبر علينا ذلك وقال جعفر خليل :
— صوت منيرة يعلو ولا يعلى عليه •
وانتهره خليل زكى ، رعم عدم اهتمامه بالغناء ، قائلاً بوقاحتة المعهودة :

— لا تردد آراء أمك بيننا !
وغضب سرور عبد الباقي وصاح به :

— لا شأن لك بأمرى يا غليل الأدب •

وجاء الرد فى صورة اطمئة ، ثم اشتبكا فى معركة حتى فصلنا بينهما • وكان تلميذاً مجتهداً ، ولكن نجاحه كان دائماً دون اجتهاده ؛ والحق لم نكن نؤمن بذكائه ! • وأوشك يوماً أن يقسمنا فريقين ، اذ طالب بشدة بالتزام الأدب فى السلوك والكلام ، قال :

— يا جماعة •• يجب ألا تتردد بيننا كلمة بذيئة وأن نتعامل باحترام •

وفى الحال شخر خليل زكى وسيد شعير فى وقت واحد تقريباً ، فعاد سرور يقول :

— والا سأضطر الى مقاطعتكم !

فقلت بجزع لحبى له :

— اقترح ما تشاء ولكن لا تفكر فى المقاطعة •• وقال رضا حمادة :

— كلامه يستحق التقدير.

فقال جعفر خليل :

— البذاءة فى الكلام كالمالح فى الطعام •

وقال عيد منصور :

— يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أخدمكم أو أمه

الا اذا قرنته بالسب المناسب •

وقال شعراوى الفحام محذراً :

— يا جماعة اذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقل عليها

السلام !

وتداولنا فى الأمر باهتمام جدى ثم تم الاتفاق على

مواصلة المعاملة الحرة فيما بيننا مع استثناء سرور عبد
للأبقى فيعامل معاملة مؤدبة خاصة •

وكان يتخذ من السياسة موقفا مماثلا فلا يتعامل معها على
الاطلاق ولا يهتم بها ، حتى المظاهرة السلمية التي زحفت على
ميدان عابدين تأييدا لسعد زغلول رئيس الوزراء لم يشترك
فيها ، ويوم الاضراب الذي قتل فيه بدر الزياى تخلف سرور
فى بيته • ورغم رشاقتة ووسامة وجهه الأسمر تجنب البنات
ولم يلعب بعينييه هنا أو هناك وكان يشعر دائما بأن عيني أمه
تراقبانه وتتبعانه حيث ذهب • والأوقات التي كنا نخصصها
للقراءة كان يقضيها فى حديقة بيته ممارسا هوايته فى رعاية
الزهور أو رفع الأثقال • ومن فترة مبكرة وضح ميله لدراسة
الطب ولكن نجاحه فى البكالوريا لم يحقق له المجموع المطلوب ،
ولذلك أقنع والديه بوجوب الالتحاق بكلية الطب فى لندن ،
وكان المتبع أن تقبل الكلية المصرية الطالب اذا نجح عامين فى
انجلترا • وسافر الى انجلترا فدرس الطب عامين بنجاح ثم
رجع الى مصر فالتحق بكلية الطب ، وناقشنا تلك الواقعة يوما
فقال رضا حمادة :

— ليس سرور غيبا كما توهمنا والا ما نجح فى انجلترا !

فقال عيد منصور :

— وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليما كما
يظن •

فقال جعفر خليل :

ـ ولبست الفرصة متكافئة بين الأغنياء والفقراء !

وتخرج سرور عبد الباقي فى الكلية عام ١٩٣٦ ، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة ، وتقدم فى عمله عاما بعد عام حتى عد من كبار الجراحين فى مصر ، وربح من ذلك أموالا طائلة فشيد عمارة كبيرة فى وسط المدينة وبنى لنفسه فيلا غاية فى الجمال بالمجادى . ولم يتخل يوما عن مبادئه الأخلاقية حتى عرف بأخلاقه وإنسانيته كما عرف ببراعته . وهو طبيب مثالى ، مهارة فى العمل ، وغزارة فى العلم ، ورحمة بالمرضى ، وبعدا عن الجشع والاستغلال . وهو محبوب جدا من طلابه ، وكثيرا ما خاض معارك حادة فى مجلس الكلية بسبب مثاليته التى لا تعرف المهادنة ، وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذة ظل طفلا ساذجا بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأى نظرة شمولية للمجتمع الذى يتألق فيه كنجم من نجومه . ومزت به الأحداث الكبرى وهو منها يما من لا تعنيه فى شئ حتى قامت ثورة يوليو بثقلها الاجتماعى فشده من مأمنه لأول مرة ، بدأ يهتم بهذه الثورة التى تتعرض للأرزاق وتغير الأوضاع ، وتسلك اليه قلق لم يعرفه من قبل . وطبق نظام الإصلاح الزراعى على زوجته فطارت من ملكية أسرته خمسمائة فدان بجرة قلم . وذهل الرجل الذى تعود على تقديس المال والملكية ، ونبض قلب أسرته بالعداوة ، وعد هو ضمنا من الأعداء . ولذلك لم

يتعين عميدا للكلية رغم استحقاقه العلمى لها فامتألت نفسه
بالمرة والحزن • قال لى :

— فكرت طويلا فى الاستقالة للتفرغ لعيادتى الخاصة •
ثم قال باخلاص أنا أول من يقدره :

— ولكنى لا أحب أن أتخلى عن واجبى العلمى !

وبدأ من ذلك التاريخ مضى يهتم بالحياة العامة ، والسياسة
بصفة خاصة — التى تجنبها طوال حياته — بعد أن غزته فى
صميم داره • وكنا نقابله فى نادى المعادى على فترات متباعدة
كلما سمح وقته المشحون بالعمل • وكنت أنا ورضا حمادة
الصديقين اللذين استمرت علاقتهما به • وثمة آخر هو خليل
زكى اتصل به دون صداقة حقيقية بحكم عمله فى قصر
العينى • ولكنه كان يذكر الجميع بقدر من الحنان ، وقد حزن
لمصرع شعراوى الفحام ووفاة جعفر خليل وضياع سيد شعير ،
فاذا ذكر عيد منصور ضحك نائلا :

— شيلوك ! • • عليه اللعنة !

وفى تلك الأثناء ساء حظ رضا حمادة فأصيب فى وحيدة
وزوجته ، فوثق بينهما سوء مصير واحد على تفاوته بينهما •
وبعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا جزع الدكتور
سرو عبد الباقي وقال :

— هذه هى الخطوة الأولى نحو الشيوعية !

فلما كان الاعتداء الثلاثي وما أعقبه من انسحاب القوات
المعتدية ، جعل يلتبس العزاء في طوايا الموقف ، قال :
— لولا الولايات المتحدة لقضى علينا ..

فقلت :

— بل الانذار الروسى ..

ولكنه رفض ذلك بشدة وقال :

— يحسن بنا ألا نفرط في الصداقة الأمريكية بعد اليوم ..

ولما أعلنت القوانين الاشتراكية اجتاجه الرعب وغشيته
كآبة ثقيلة ثابتة • قلت له :

— انك صاحب مهنة ولن تعرف الفقر •

فقال :

— لم يعد لشيء قيمة ..

ثم قال :

— زوجتي تنصحنى بالهجرة ..

فقال له رضا حمادة :

— لا داعى لذلك على الاطلاق •

فقال :

— الاشتراكية تعبير عن الحق على المتفوقين .. وقد

استولى حكامنا على السلطة بقوة السلاح لا العلم •

فسأله :

— وما ريك في مشكلة انفق في مصر ؟

فأجاب بسذاجة :

— كل يتقرر موضعه على قدر طاقته وتلك هي حكمة الله سبحانه !

فأدركت أنه مهما يكن من علم الانسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعي الثقافى المتضمن طبعا الوعي السياسى • وأنه مهما يكن من تفوقه وبراعته وفائدته فلن يعتصر من ذاته امكانياتها الانسانية حتى ينظر الى نفسه لا باعتباره جوهرًا فردًا مستقلًا ولكن باعتباره خلية لا تتحقق لها الحياة الا بوجودها التعاونى فى جسد البشرية الحى • لذلك بدا الدكتور سرور بجسمه القوى ووجهه الوسيم ومهارته العلمية الخارقة ، بدا متدهورًا مترنحًا لا لشيء الا لأن يدا أخذت من فائض الذين يملكون كل شيء لتضميد جراح الملايين الجائعة • وشد ما جزعت عندما آنتست فى نبرته شماتة عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ ، عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنه النجاة • وناقشت ذلك الموقف مع الصديق كامل رمزى فقال :

— لا تدهش ولا تجزع ، الأفضل أن تعرف الحقيقة مهما تكن غريبة وقاسية ، ثمة جانبان يتصارعان بلا هوادة يقف فى أحدهما الروس والاشتراكيون العرب وطوائف الشعب التى وجدت فى الاشتراكية جنتها الموعودة ويقف فى الآخر الأمريكان واسرائيل والذين رأوا فى الاشتراكية ردعا لطموحهم وجشعهم ••

فسألته :

— والوطن والوطنية ؟

فأجاب :

تغير مفهوم الوطن ومضمونه ، لم يعد أرضاً ذات حدود
معينة ولكنه بيئة روحية تحدده الآراء والمعتقدات !

سـماد وهبى

تلك الزميلة الجامعية التى عاشت فى كليتنا عاما واحدا ولكنها بهرت خيالنا عهدا طويلا . كان الزميلات عام ١٩٣٠ قلة لا يتجاوزن العشر عدا . وكان يغلب عليهن طابع الحريم ، يحتشمن فى الثياب ويتجنبن انزيئة ويجلسن فى الصف الأول من قاعة المحاضرات وحدهن كأنهن بحجرة الحريم بالترام . لا نتبادل تحية ولا كلمة واذا دعت ضرورة الى طرح سؤال أو استعارة كراسة تم ذلك فى حذر وحياء ، ولا يمر بسلام فسرعان ما يجذب الأنظار ويستثير القيل والقال ويشن حملة من التعليقات . فى ذلك الجو المتزمت المكبوت تألفت سعاد وهبى كأنها نجم هبط علينا من الفضاء . كانت أجمل الفتيات وأطولهن وأحظاهن بنضج انجسد الأنثوى . ولم تقنع بذلك فلونت بخفة الوجنتين والشفقتين ، وضيق الفستان حتى تطق ، وتبخترت فى مشيتها اذا مشت ، وكانت تتعمد أن تدخل القاعة متأخرة بعد أن نستقر فى مجالسنا ويتهيا الأستاذ لالقاء محاضرتة . ثم تهرول كالمعتذرة فيرتج ثدياها النافران فتشتعل الفتنة فى الصفوف وتتد عنها همهمات كطين النحل . وعرف اسمها وجرى على كل لسان ، ونحتت له الأوصاف

والأسماء فهي « أبلة سعاد » و « كلية سعاد » و « بانة سعاد » • وكانت بخلاف زميلاتها غاية في الجرأة ، تواجهنا بثقة لا حد لها ، ولا تخفى اعجابها بنفسها ، وتناقش الأساتذة بصوت يسمعه الجميع ، وبالجملات تحدث الزمان والمكان • وقال محمود درويش :

— انها غانية لا طالبة ••

يقال لي مرة جعفر خليل :

— ترى كيف كانت وهي تلميذة مراة بالمدرسة الثانوية ؟
هاتنا نصف عمرنا ••

فقلت :

— لم تلتحق بالكلية الا لاصطياد عريس !

— أو عشيق !

وجرت عنها الأخبار لا أدري ان كان مصدرها الواقع أم الخيال •

— انها من حي اليهود بالظاهر ، ولدت وترعرعت في جو من الحرية الجنسية المطلقة !

— وأسرتها منحلة ، الأب والأم والأخوات ••

— وهي امرأة لا عذراء مجربة للسهر والسكر والعريضة !

وتشجع جعفر خليل بذلك فحاول أن ينشئ معها علاقة ولكنه صد ولم يفلح • وصد غيره ولم يفلح • ومع ذلك فلم تكن بصداقتها على طالب اذا التزم بحدود الأدب • وطبقت شهرتها الآفاق الجامعية فجاء طلبة من كلية الحقوق للمشاهدة

والمعينة • وكانت فى الأدب الانجليزى تتلو أحيانا ما تيسر
من مسرحية عطل فتلقيه القاء مسرحيا ناعما يسحر الألباب ،
فحتى الأستاذ الانجليزى أعجب بها وعاملها معاملة ودية
خاصة • وأخذ الطلبة الوقورون — الريفيون خاصة — يناقشون
الظاهرة السعادية ويتساءلون عن عواقبها الوخيمة • وسرت
عدوى اهتمامهم الى الدكتور ابراهيم عقل الذى يفرض
بقامته المديدة رعاية أبوية على الطلبة والمثل العليا معا •
وانتهز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الشديين
المنافرين وجعل يسلط سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتى
ثابوا الى الرشد والسكينة ، ثم قال :

— يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعة
وبين صالة بديعة !

فضجت القاعة بالضحك فى غير موضعه ••

ثم وهو يهز رأسه بطربوشه الطويل :

— تذكروا أننا جميعا — نساء ورجالا — هدف لمجهر
الناقدين وأن جمهرة منهم لم تسلم بعد بمبدأ اختلاط
الجنسين فى الجامعة ، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليما عاليا ••

وفى نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهبى لمقابلته
فى حجرته ، وخممتا موضوع الحديث وتنبأنا بنتيجته
المحتومة ، وكثيرون شعروا مقدما بالأسف لحرمانهم

الوشيك من الاثارة اليومية انفاثة • وغادرت سعاد وهبي
حجرة الدكتور متجهة الوجه ، ولما رأت جموع المنتظرين
فى الخارج قالت بحدة وبصوت مسموع متحد :

— لن أسمح لأحد بمصادرة حريتى الشخصية ••

وأصرت على التمتع بحريتها حتى فوجئنا بصدور أمر
بفصلها من الكلية ! • وفرح البعض وأسف البعض أسفا عابرا
بالرغم من اجتماع كلمة الجميع على مقاومة الحكم السياسى
الرجعى الذى بطش بحرية الوطن • وجاء والد الفتاة لمقابلة
العميد ، وما زال به حتى حمته على سحب قرار الفصل بعد
أن تعهد له بتحقيق مطالبه • وأعجب ما سمعت عن رجوع
سعاد حدثنى به جعفر خليل ، اذ سألتنى باسمها :

— أما سمعت بالسر وراء عودة سعاد ؟

فسألته بدورى :

— أى سر ؟

— يقال أن وزير المعارف أوصى العميد بها ••

— ولكن وزير المعارف رجل رجعى كثير التشدد باحترام
التقاليد ؟

— ويقال أيضا انه على علاقة بالفتاة ••

على أى حال عادت سعاد • وعندما هلت علينا بعد انقطاع
استقبلناها بالتصفيق • رأينا وجهها الطبيعى لأول مرة وكان
وسیما أيضا ، ورأينا فستانها يحتشم طولا وعرضا لأول

مرة أيضا ، أما ثدياها فلم يستطع تعهد الوالد بتغيير موضعهما
ولا فتنتهما فظلا نافرين يتحديان العميد والتقاليد جميعا .

ويوما قال أحد الطلاب :

— أمس رأيتها مع الرجل الانجليزى بالحديقة اليابانية
بحلوان ..

وانتشر الخبر فى الكلية ، وسألها صديق عنه فأجابت
بأنها قابلته هناك مصادفة فسارا معا يتحادثان . تؤكد الخبر .
وبلغ جميع المسؤولين فى الكليه . ولكن نجمت عن ذلك مشكلة
تحدثت الجميع بقحة لا مثيل لها . لم يكن من المستطاع اتخاذ
اجراء مع المدرس خشية اغضاب دار المندوب السامى ، ولا كان
من المستطاع معاقبة الطالبة خشية اغضاب المدرس ! . وأدركنا
الموقف بكافة أبعاده السياسية والنفسية . وقال جعفر خليل
بروحه الساخرة :

— انجلترا زادت من تحفظات ٢٨ فبراير تحفظا جديدا
خاصا بسعاد وهبى .

وقال آخر :

— الأسطول البريطانى يهدد باحتلال الجمارك اذا تعرضت
سعاد لأى ضغط .

وقيل فى الموقف أشعار كثيرة من أصحاب المواهب من
الطلبة ، وتبودلت النسخريات على مسمع من العميد نفسه .

ولكن فى بداية العام الدراسى الجديد وجدنا الموقف مختلفا .
فالمدرس الانجليزى لم يرغب فى تجديد عقده ، وسعاد لم
ترجع الى الكلية • أين ذهبت سعاد ؟ • قيل انها سافرت مع
المدرس الانجليزى ، وقيل انها تزوجت ، وقيل انها أصبحت
غائبة فى شارع الألفى • ومع كثرة تقلبى فى أنحاء القاهرة
فلم تقع عليها عيناى منذ ذلك التاريخ البعيد •

سيد شعير

كان زعيم الجماعة من أصدقاء العباسية • أجل كان خليل زكى يماثله فى القوة أو يفوقه ولكن الزعامة لا تقوم على القوة وحدها لا بد لها من أساس مكين من الحب • وكان سيد شعير محبوبا كما كان كريما ، وفى أوقات اللعب كان مهرجا ، وفى ليالى رمضان كان نجما لامعا • ولا مفر من عقد المقارنات بينه وبين خليل زكى دائما ، فكلاهما قوى سريع العدوان غير أن خليل ينطلق من شراسة اجرامية على حين ينطلق سيد من المجون والاستهتار ، وكلاهما لم يوفق فى الدراسة الابتدائية ، وكلاهما وظفه أبوه فى دكانه ، وكلاهما طرد من رعاية أبيه غير أن خليل طرد لشراسته على حين طرد سيد لسلوكه مع النساء من زبائن المحل • وبطرف عينه الماكرة اكتشف الهوى بينى وبين حنان ، وراح يداعبنى ساخرا من ترددى ، حتى قال لى يوما :

— كلام فارغ ، غرامك كلام فارغ ••

ولم احب أن يجعل من حبنى سخرية من سخرياته ولكنه قال :

— أسمع نصيحتى وواعدها فى غابة التين الشوكى •

وفى مساء الأربعاء من كل أسبوع — فى العطلة السنوية
كان يدعونا الى بيته فى آخر شارعنا من ناحية بين الجنابين
حيث يقام ذكر فى الفناء فنجلس على أريكتين متقاربتين
نتابع الأناشيد الدينية ونشاهد حركات الذاكرين ونحتسى
الشاي والقرفة ، وكلما ابتعد أبوه عن مجالنا روى لنا ما يحفظ
من النوادر المأجنة عن أهل الذكر ! • بقدر ما كانت أسرته
متدينة بقدر ما كان مستهترا وبقدر ما حيرنى فى فهمه • ولما
يئس من مواصلة الدراسة فى المدرسة الابتدائية عمل فى دكان
أبيه فى الغورية • وفى العطلة السنوية كنا نذهب اليه فى
المغرب ، ولما يغلق الدكان يمضى بنا فى أنحاء الحى الحسينى ،
من عطفة الى عطفة ، ومن مقهى الى مقهى ، فعرفنا بارشاده
مجاذيب الباب الأخضر والفينساوى والمدق وخان الخليلي
واستمعنا الى أذان على محمود وموأويل العربى ، وعلمنا —
ونحن فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية — تدخين الجوزة
والبورى والنارجيلة ولعب الفرد والدومينو • كانت تلك الأيام
من أسعد أيام سيد شعير ، كان يعيش فى بيت والده ويتفق
راتبه على مزاجه الخاص ويتشبه بالرجال وهو فى الرابعة
عشرة من عمره ، ونشأ الخلاف بينه وبين أبيه بسبب النساء
من زبائن المحل • ومرة غازل امرأة وكان زوجها فى الخارج
فنشبت بينهما معركة وسرعان ما فصل أبوه بينهما وانها
على ابنه ضربا أمام الناس ، ففقد سيد عقله وصب غضبه على
البضائع من أوانى زجاجية ومعدنية وقوارير العطر وغيرها •

وطرده الرجل ، طرده من دكانه ومن بيته فانقطع ما بينهما الى الأبد • اقترحنا أن نوسط آباءنا فى الإصلاح بينهما ولكن سيد رفض ذلك بآباء وقال :

— سجن البيت لم يعد يناسبنى ودنيا الله واسعة •

وكنا نظنها نزوة غضب ولكن الأيام أثبتت لنا أنه بحق رجل الدنيا الواسعة وأنه ذو قدرة غريبة على تمزيق الأواصر العائلية ونبذها من حياته كأنها نفاية من النفايات • وقد حرت فى تعليق ذلك فى وقتها ولكنى أدركت فيما بعد أنه كان مراهما منبوذا وسط ثلاثة اخوة ناجحين ، عمل أحدهما مع والده بعد حصوله على التجارة المتوسطة وواصل الآخران تعليمهما بتفوق ساحق • وقال لى بكبرياء :

— ان أى تاجر فى الحى يتمنى أن يستخدمنى !

فقلت له مخلصا :

— ولكن حكاية النسوان حكاية خطيرة ••

فقال ساخرا :

— المرأة تتسكع بين دكان وآخر التماسا لغمزة عين أو كلمة حلوة أما البيع والشراء فلا يحدثان الا فى المواسم !

وعمل بالفعل فى محال كثيرة حتى خنقت الأزمة الاقتصادية التجارة فاستغنى عنه فيمن استغنى عنهم ووجد نفسه وحيدا بلا مورد ولا أهل ولا أمل • ولم يكن يوسعنا أن نقدم له —

— ونحن تلاميذ — أى مبيعة ناجعة ، ولكنه كان صديقا لصاحب مقهى فى مرجوش بعمل فى الوقت نفسه تاجر مخدرات بالجملة فعرض عليه أن يشتغل موزعا بالنسبة وسرعان ما قبل • وأخبرنا بذلك فى مباهاة طفولية فذعرنا وقال له سرور عبد الباقي :

— أنت مجنون ••

وقال له رضا خمادة :

— لن يكون ذلك أبدا ••

ولكنه سخر من ذعرنا ورجانا فى الوقت نفسه أن نخفى الأمر تماما عن خليل زكى الذى كان يمقته • واندفع فى طريقه باستهتار غريب فانتشل نفسه من الجوع والكرب • وفى الخطوة التالية عرف السبيل الى أحياء البغايا ، لا كهاو ، ولكن كمحترف • وعاشر امرأة وأقام معها فى بيتها ، ودعانا الى الطواف بمملكته الجديدة • تخلف عن الدعوة سرور عبد الباقي ، وذهبنا اليه مدفوعين بحب الاستطلاع والرغبات المكبوتة وسحر المغامرة • وذكرت فى الحال تجربتى القديمة مع قريبي أحمد قدرى ، وعثرت على البيت ، ودهشت للوجوه الجديدة التى طالعتنى • ومضى سيد شعير بنا فى تلك الدروب كما فعل من قبل فى الحى الحسينى ولقننا كافة تقاليدنا وأسرارها ، وسهرنا فى مقاهى الأتس ومجالس المغلمات والفتوات والبلطجية والبرمجية ، حتى نائت أغانيها الخلية وأناشيدها الساخرة ودعاباتها الفاضحة ورقصاتها العارية ، باتت تعزف

فى رءوسنا كالسحر الأسود وتسكب فى قلوبنا عصير الأفراح
والمآسى • وانضم بقدره قادر الى زمرة رجال الأعمال فافتتح
مقهى فى وجه البركة امتاز بالأناقة والخمر الرخيصة وعازف
أرغول يشنف آذان السكارى ومدمنى المخدرات من الزبائن •
وكان يديره بحزم الفتوات وأبتسامة التجار المحترفين ، مرتديا
بدلة كالأفندية اشارة الى أصله العريق المختلف عن أصول
أصحاب المقاهى من أهل البلد البرمجية • ولما قامت الحرب
العظمى الثانية تضاعفت أرباحه من المقهى غير أن رفيقته هجرته
فيمر هاجر من حى البغايا من المومسات الجميلات اللاتى
آثرن العمل فى المشارب الليلية استغلالا للجنود البريطانيين ،
فلم يبق فى الحى الا النسوة الميئوس منهن ممن تقدم بهن
العمر أو ذبل جمالهن • وتدهور الحى القديم فلم يعد صالحا
لارتياذ الأفندية ، ولم نعد نرى سيد شعير إلا كل حين
ومين • وقد جمعنا مائتم شعراوى الفحام ، ومرة أخرى
اجتمع فى ركن من السراى جعفر خليل و خليل زكى ورضا
حمادة والدكتور سرور عبد الباقي وعيد منصور وسيد
شعير وأنا •

اجتمع أصدقاء العمر بعد أن نقصوا واحدا ، وهم فى
ذروة الشباب ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من العمر ،
وقد عرف كل سبيله ، المدرس والموظف والمحامى والدكتور
والتاجر والقواد والبرمجى وتاجر المخدرات • وجعلنا نرثى
صديقنا الراحل فنقول :

— ترك فراغا لن يسد •

— ما أجمل ذكرياته ••

عاش ضاحكا ومات ضاحكا •

— راهن طيلة عمره على حلم لا يريد أن يتحقق •

وعاتبنا سيد شعير على انقطاعنا عن زيارته فاعتذرنا له
بأن الحى القديم لم يعد بالمكان المناسب •

فقال بازدراء :

— اخص على أصلكم ••

ثم بأسف :

— رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتى ••

وبعد انتهاء الحرب بأعوام تقرر إلغاء البغاء المسمى
فاضطر سيد الى الظهور فوق سطح الأرض مرة أخرى ،
رجلا فى الأربعين ، بملك بضعة آلاف من الجنيهات ، وذخيرة
كبيرة من التجارب الفاسدة • واجتمعنا فى مقهى الفيشاوى •
فقال له رضا حمادة :

— أمامك فرصة طيبة فابدأ حياة صحية جديدة !

فضحك سيد قائلا :

— ما أقبح الوعظ والارشاد •

وقرر أن يستجم فترة من الزمن • أقام فى فندق بالموسكى
يدار بطريقة مريبة • وأسرف فى تعاطى المخدرات والخمور ،

واصطياد بنات الهوى ممن هن فى حكم المومسات ، أما نهاره
فيمضيه فى لعب الكومى وتدخين النارجيلة • وظل خارج
الزمن تماما فيما يتعلق بجميع الأحداث كحرب فلسطين
وحريق القاهرة وثورة يوليو • وتزوج وهو فى الخمسين من
تاجرة مخدرات مات زوجها فى السجن وكانت فى الأربعين
من عمرها • وبالرغم من شدة العقوبات التى فرضتها الثورة
على تجارة المخدرات فقد تاجر فيها بكل استهانة وبغير تقدير
للعواقب • وقد شيد لنفسه بيتا كبيرا فى طرف الدراسة على
حافة الخلاء المفضى الى جبل المقطم ، وسط حديقة مساحتها
فدان زرعها بالنميك والأعشاب والجوافة والليمون والحناء
والياسمين ، وأثثه بالأثاث الشرقى ، وأقام فوق سطحه
حظائر الدجاج والأوز والأرانب •

واجتمعنا بكامل هيئتنا مرة أخرى فى مأتم زوجة رضى
خمادة ، وغادرنا المأتم معا - أنا وسيد - حوالى منتصف
الليل فسرنا معا نتحدث • وسألته برجاء :

— ألم تجمع من الثروة ما يغنيك عن تجارة المخدرات ؟
فأجاب باستهانة :

— انى أربح كثيرا وأنفق أكثر ••
— ولكنك لا تقدر العواقب •

فقال لى وهو يربت على كتفى :

— طظ فنى العواقب !

ثم قال بحسرة :

— هل تذكر رفيقتى القديمة التى هجرتنى أيام الحرب ؟ ..
سمعت أنها أنجبت منى ولدا ولكنى لم أعثر لهما على أثر !
فسألته :

— أتحب أن يكون لك ولد ؟

فضحك متجاهلا سؤالى ، ثم قال :

— أنا سعيد بزواجى ولا أفكر فى الزواج من أخرى !

ثم ضحك عاليا وقال :

— والزواج من أخرى يعنى بالنسبة لى الخراب
أو التأبide !

وتتهد وهو يقول :

— كل شيء يهون بالقياس الى ما وقع لصديقنا الشبهم
رضا حمادة !

فقلت مستعيدا حزنى كله :

— انه أعظمنا شخصية وأسوأنا حظا

فقال بحنق :

— قارن بين حظه وحظ ابن القديمة خليل زكى

— أى نعم ، يا لها من مقارنة ساخرة ..

— ذلك هو الخقير الشرير أما أنا ! .. ما عيبا تملونه ..

المخدرات ؟ !

— المسألة انى أخاف عليك العواقبة ..

— فلندكر عاقبة رضا حمادة الذى لم يتأخر فى المخدرات

قط !

وأصر على اصطحابى الى بيته العامر بالدراسة •
ولكن ندر اللقاء بيننا • وربما مرت أعوام دون لقاء على
الاطلاق • أو يقع لقاء مصادفة فى مقهى الفيشاوى • ولا أنسى
يوم أقبل على فى الأسبوع التالى للنكسة • كنت جالسا
وحدى أجتر الهم الثقيل الذى لم أعرف له نظيرا من قبل •
سلم وجلس ثم بادرنى متسائلا :

— هل يقضى احتلال سيناء على التهريب حقا ؟ !
أحنقنى سؤاله • اعتبرته غاية ما بعدها غاية فى الاستلقاء
خارج الزمن • وأدرك بذكائه استيائى فسكت • ومضى يدخل
النارجيلة صامتا • ثم تتمم :

— كعادتك دائما لا شئ يهيك مثل السياسة ووجع
الدماغ •

فسألته بضيق :

— الظاهر أنك لم تسمع تما وقع ؟
فقال وهو يشكم رغبته فى السخرية :
— سمعنا وشفنا العجب !

ولقيته بعد ذلك بعامين فى مكتب عيد منصور • رأيته
فى صورة جديدة ، منتفخ الوجه والبطن ، يشئ منظره بحال
مرضية لا شك فيها ولا فكرة لى عنها ، فسألته :

— كيف حالك ؟

فأجاب ببساطة مذهلة :

— بخير كما ترى !

— وإكتك لست كعادتك !

— سبحان الذي لا يتغير !
فضحك عيد منصور قائلاً :
— أخيراً عرف ربنا •
فسألته :
— ألم تستشر طبيباً ؟
فتسأل بدوره :
— أتؤمن حقاً بالأطباء ؟ !
— لم أذهب ولا مرة واحدة إلى طبيب ولم يدخل ~~معدني~~
دواء !
ولما غادر المكتب ضحك عبد منصور وقال :
— يبدو أن جنازة وشيكة ستجمع شملنا من جديد !

شرارة النحال

عرفت شرارة النحال أول عهدي بالوظيفة الحكومية • كان عامل التليفون ، فى العشرين من عمره ، ومن حملة الابتدائية حديثا • وكان يلفت النظر بجمال وجهه ورشاقة قدمه ورقة شمائله • رأيت عم صقر الساعى يمازحه مرة فيقول له :
— اخلع بدلتك وارثد فستانا وأنا أضمن لك عريسا فى ظرف أربع وعشرين ساعة !

وخلت درجة سابعة لوفاة شاغلها فاشتعلت أفئدة كتبة الدرجة الثامنة تطلعا اليها • ولم يكن ثمة قانون ينظم الترقيات ، كما كانت الشهادة العليا لعنة على حاملها لما تشيره من حنق فى صدور الرؤساء من حملة شهادة الابتدائية القديمة ، وفزع كل موظف من الفئة الثامنة الى من يعرف من الكبراء والشيوخ والنواب فائتلات بطاقات التوصية على وكيل الوزارة ، ووجدت أنا شفيعا — فى ذلك السباق — فى شخص زميلى القديم عبده البسيونى عضو مجلس النواب ، وقابلنى الأستاذ دنطاوى أسماعيل فى الممشى خارج السكرتارية فاستوقفنى متجهما وسألنى :

— أما علمت بالذى رقى الى الدرجة السابعة ؟
فقلت وقلبي يخفق :

— كلا •

— أسرع بتهنئة شرارة انبحال !
فهتفت :

— شرارة النبحال ؟!

— نعم •

— عامل التليفون ؟!

— نعم •

— ولكنه بالابتدائية ووظيفته خارج الهيئة !

فرفع الرجل رأسه الى فوق وقال :

— اللهم فاشهد ، ما زال بمصر أناس يحتكمون الى
المنطق !

ثم مضى الى حجرته • وذهبت الى ادارة السكرتارية
فوجدت ان الترقية أصبحت خبر اليوم دون منازع •

— هل سمعتم عن عامل تليفون فى الدرجة السابعة ؟

— من قال انه عامل تليفون ؟ • • لقد انتدب للعمل بمكتب
وكيل الوزارة •

— وكيل الوزارة على سن ورمح ؟

— وكيل الوزارة على سن ورمح !

وتساءلت :

— كيف • • ولماذا ؟

فقال لى الأستاذ عباس فوزى همسا

— يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا • • •

وقال لى عم صقر الساعى وهو يقدم لى القهوة :

— لا تدهش يا بك ، حضرتك موظف جديد نسبيا هذا هو كل ما هنالك ، والمسألة أنه كان تقرر ترقية موظف آخر ، ولكن شرارة طلب مقابلة سعادة وكيل الوزارة ، ولما طرد من سكرتاريته انتظر فى الممشى حتى اذا خرج الوكيل فى وقت الانصراف رمى بنفسه بين يديه وقال بلهجة تمثيلية كأنه فاطمة رشدى انه مسئول عن أسرة كبيرة وأنه لا واسطة له بعد الله الا سعادته ، ونظر اليه الوكيل نظرة عابرة لا تخلو من ضيق وامتعاض ، غير أن شيئا فى وجه شرارة جعله يعيد اليه النظر باهتمام ، ولبت ينظر اليه كأنما لا يريد أن يسترد بصره •

وسكت الساعى وهو يبتسم بخبث فساورنى الشك .
غير أنى سألته :

— أى شىء تقصد ؟

فانسحب الرجل من أمام مكتبى وهو يهمس باسم :

— فى العشق ياما كنت أنوح !

ونقل شرارة النحال الى مكتب الوكيل بصفة نهائية للعمل فى أرشيفه • وتغيز منظره الخارجى ليناسب وظيفته الجديدة فارهدى بدلة جديدة أنيقة بدلا من القديمة الرثة ، ولبس حذاء أسود بدلا من النعش المطاط ، وتزين عنقه بكرافتة حريرية عليها طابع الهبة وأطلق من طرف جاكته الأعلى منديل مزركش • وصرنا اذا تقابلنا تبادلنا التحية تبادل الأبداد

لا تبادلها القديم بين موظف وآخر فى حكم الساعة • ولعله كان على وعى بما يدور عنه ولكنه لم يكثرث له ، اما لأنه كان مكشوف الوجه ، أو لأنه آمن بأن مركز القوة خليق بمحق المعاييب واخرابس الألسنة • وفى ظرف عامين عين شرارة سكرتيرا خاصا للوكيل مع ترقية الى الدرجة السادسة • وتهامس الموظفون بشتى التعليقات كالعادة ، وقال لى الأستاذ عباس فوزى :

— ستراه عما قريب ضمن الهيئة الحاكمة !

وسرعان ما عرف فى الوزارة كأهم شخصية فى مكتب الوكيل ، أهم من مدير المكتب نفسه ، فصار كعبة لطلاب الحاجات من الموظفين والأهالى ، وانهاالت عليه الهدايا أشكالا وألوانا • وأصبحت ابتسامته أو تحيته هدية يفاخر بها الملقى وهو يحمد الله المنان • ويحدث أن تولى وزارتنا وزير من « أهل ذلك » فانفجرت أزمة لم تجر لأحد فى خاطر ، بالزعم من أن الوزير والوكيل كانا ينتميان الى حزب واحد • ودبر المؤامرة موظف كبير من محاسيب الوزير كان يتحين الفرص للانتقام من الوكيل لاساءة سبقت منه اليه ، فحدث الوزير حديثا مغريا عن سكرتير الوكيل « الجميل » • ورتب لقاء بين الوزير والسكرتير لعرض أوراق طلب الوزير الاطلاع عليها • وقيل ان الوزير اقتنع بكفاءة السكرتير من النظرة الأولى ، وأن السكرتير رحب بتقدير الوزير وترحيب شاب ليس لطموحه

حد • وأبلغ الوكيل برغبة الوزير في نقل سكرتيه الى مكتبه
فثار غضبه وصارح مبلغه بأنه لا يستغنى عنه • وغضب
الوزير بدوره فأصدر أمرا بنقل شراره الى مكتبه فما كان من
الوكيل إلا أن اعتكف في قصره • وقيل ان رئيس الحزب وبخ
الرجلين ، وأنه حذرهما من تسرب خلافهما الى الصحف
الوفدية ، فرجع الوكيل الى عمله كاظما غيظه • وتتابع صعود
شرارة النحال فرقى الى الخامسة مع قيده على الرابعة —
وترامى المستقبل أمامه فسيحا باهرا • غير أنه لم يشق طريقه
معتمدا على جماله وحده ، أو أن جماله لم يكن ميزته الوحيدة ،
فكان الى ذلك ذكيا على الهمة مزودا بأكثر من سبب من أسباب
النجاح • ففي أثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذا
مجتهدا ، وحصل من « منازلهم » على شهادات الكفاءة
فالبكالوريا وأخيرا ليسانس الحقوق • وعلق عباس فوزى على
اجتهاده متهكما وجادا في آن فقال :

— ايس كثيره من أمثاله ، فهم اعتمدوا على جمالهم
وحده وهو خاصية تفقد قيمتها سريعا بالتقدم في العمر ،
لذلك تجدهم الآن كهولا منسيين في الدرجة الرابعة
أو الثالثة على الأكثر ، أما صاحبنا فيعد نفسه للمناصب
الرفيعة .

وكموظف يعتبر من أكفأ الموظفين الذين عرفتهم في
حياتي ، همة في العمل وجلدا عليه وحسن تصرف فيه ، فهو
مرجع من المراجع الهامة في الإدارة ، ومن ناحية أخرى

اشتهر بالطموح والأنانية ، والقسوة في معاملة مرعوسيه من زملائه القدامى ، فلم يغفر لأحدهم هفوة أو زلة لسان ، وكان قدرا كبيرا من سعادته لا يتحقق الا باذلالهم والتمثيل بهم . واستقالت الوزارة وهو في الدرجة الثالثة مديرا لمكتب الوزير . وتولى الوفد الحكم . وأحيل الوكيل الى المعاش قبل أن يتمكن من الانتقام من محبوبه القديم . وهرع الحاسدون الى الوزير الجديد فاتهموا مدير المكتب بالحزبية المضادة والشذوذ الأخلاقي . ودافع شرارة عن نفسه باستماتة فقال انه « موظف » وموظف فحسب ، ولاؤه أولا وأخيرا للعمل ، وإخلاصه لمن يعمل في خدمته . وتقرر نقله مديرا للمحفوظات ، وهي وظيفة خلفية لا مجال فيها للطموح ، ومع ذلك فقد عكف على دراسة نظام الأرشييف وإعادة تنظيمه على أسس جديدة مما بث فيه حياة لم يحظ بها من قبل . ودعا الوزير لتفقدته فأعجب الرجل باجتهاده وأثنى عليه . وإذا به ينشر مقالة في جريدة المقطم بعنوان « وزير وفدى يثنى على خصم من خصوم الوفد » ، نوه فيها بعدالة الوزير وإخلاصه وإيثاره للمصلحة العامة وكيف أنه شجعه بدل أن يبطش به ، وختمها بقوله : أن الانسان ليحتاج الى قوة خارقة لتمنعه من الارتقاء في أحضان الوفد .

وحدثني الأستاذ عباس فوزي بأنه كان في حضرة الوزير عندما استدعى شرارة النحال لشكره وأنه قال له :

— من أين لك بهذا الأسلوب البليغ ؟

فما كان من شرارة الا أن قال على الفور :

— أنه فضيلة يا صالح المعالي اكتسبتها من حفظ خطب
خالد الذكر سعد زغلول باشا !

ونقل شرارة النحاح مديرا للمستخدمين ثم رقى الى
الدرجة الثانية قبيل اقالة حكومة الوفد • وفرح الحاسدون
وقالوا: « الدب وقع » ، فها هو الوزير السابق يعود ومعه
الوكيل أيضا ، فما عسى أن يصنع شرارة النحاح ؟ • وتوقعنا
أن نشهد خاتمة الرجل ، ولكننا فوجئنا جميعا بترقيته الى الدرجة
الأولى مديرا عاما للإدارة !

— ما معنى هذا ؟

— ماذا جرى فى الدنيا ؟ !

ومضت الأخبار تتسرب كنقط الماء ، عرفنا ما خفى علينا •
فطيلة عهد الوفد لم ينقطع شرارة عن زيارة وزيره السابق
سرا ، وكان ينفذ له رغائبه دون أن يدري أحد • وأكثر من
ذلك سعى سعيه حتى صالح بين الوزير السابق والوكيل المحال
الى المعاش ؟ • فلما رجعا قال بكل ثقة :

— رجع عهدنا العتيد !

وقيل أيضا انه راح يعطى دروسا خصوصية لابن الوزير
الوفدى الطالب بكلية الحقوق • غير أنه بفطنته أدرك أن ميزان
القوة الحقيقى مضى يتركز فى السراى ، وأن السراى خير

وأبقى لمن أوتى بعد نظر حقيقى • وعليه ألف كتابه الوحيد
« صانعو مصر الحديثة » أرخ فيه لمحمد على واسماعيل
وفؤاد ، وأهداه الى السدة الملكية • وجاءه من الديوان الملكى
جواب شكر نشر فى جميع انصحف • وقال لزميله وغريمه
عدلى المؤذن :

— الآن أصبحت من رجال السراى ولن يفكر حزب فى
التنكيل بى •

وفى أواخر أيام الحرب تزوج من أسرة محترمة ، فأنجب
بنتا وولدا ، كانا — مثله — آيتين فى الجمال ، وقد تزوجت
الفتاة من سكرتيره ، أما الشاب فعمل ضابطا فى الجيش ،
وعقب انتهاء الحرب العظمى الثانية وقبيل اجراء انتخابات
لمجلس الشيوخ استدعانى فى مكتبه ، وتعطف فسمح لى
بالجلوس أمام مكتبه وقال لى

— انتخابات الشيوخ غاية فى الأهمية ، ولو فاز الوفديون
لحق لهم تغيير العهد كله ••

فنظرت اليه متسائلا فواصل قائلا :

— انى أفكر فى ارسال اسمك ضمن المرشحين لرئاسة
اللجان الانتخابية ••

فابتسمت ولم أنبس فقال :

— ستجد فى الدائرة رجلا من رجال حزبنا ••

فسألت بخبث :

— أى حزب ؟

فضحك عاليا حتى احتقن وجهه الوردي بالدم ثم قال :
— لا أهمية للحزب ، المهم الولاء لصاحب العرش !

نمقات بقلق :

— لا خبرة لى بذلك العمل ..

— أغمض عينيك ودع المأمور يعمل ، لن يطلب منك أكثر
من ذلك .

فوجمت وهو ينظر لى ثم قال متأسفا :

— الحق أنى رشحتك لما أعهدك فىك من خلق طيب ولكنى
لن أثقل عليك .

ونفض ماذا يده فصافحته وغادرت الحجرة . وأسفرت
نتيجة الانتخابات عن نجاح عشرة من الشيوخ الوفديين فى
أربع وأربعين دائرة استعملت فيها جميع صنف الضبط
والارهاب والتزوير كالعادة ، فحمدت الله على أننى لم أشترك
فى تلك الجريمة التاريخية المدبرة .

وقد اختلفت الأقوال فى نزاهته فمن قائل أنه كان نزيها
بالرغم من عيوبه الكثيرة ، ومن قائل بأنه لجن أريب شديد
الحذر . ومعروف أنه امتلك فيلا جميلة فى حلوان وعمارة فى
الدقى ، ولكنه كان يردد دائما بأنهما اشتريا بأموال زوجته .
ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ قدم الى لجنة التطهير بناء على
ما قدم فيه من عرائض ولكن الظاهر أنه لم يثبت عليه
ما يدينه ، فاستمر فى عمله . وقيل انه استمر بفصل شفاعته

ابنه المضابط والله أعلم • ورقى بعد ذلك وكيلا للوزارة ،
ثم عين رئيسا لمؤسسة عقب تطبيق القوانين الاشتراكية •
وتسلل اليه الحزن مرتين ، مرة عندما أصيب ابنه برصاصة
غير قاتلة في حرب اليمن ، ومرة عندما أصيب زوج كريمته
أصابة عشواء — وهو جالس في مقهى — في مظاهرات الطلبة
التي تفجرت عقب هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ • ولم أره منذ غادر
الوزارة ، وانقطعت عني أخباره إلا فيما تسوقه المصادفة بين
الحين والحين • وآخر ما سمعت عنه من صديق رآه في مكة
عام ١٩٧٠ وهو يؤدي فريضة الحج •

شعراوى الفحام

لعله كان أطيب أصدقاء العباسية • طيبة تخالطها لأ مبالاة
وبسطة بالغة فى الذكاء والتفكير • وأتذكره كلما تذكرته
ضاحكا لسبب ولغير ما سبب وكان يكفيه أن يسمع شتمة
أو ملاحظة عابرة ليغرق فى الضحك ، وكلما اشتد نقاشنا فى
الستياسة ضحك % وكلما تجادلنا فى الكوة أو السينما ضحك ،
وإذا شهدنا جنازة قريب لصديق تجنبنا النظر نحوه خشية
اثارة فضيحة بين المعزين • حضرنا يوما جنازة قريب لصديق
تجنبنا النظر نحوه خشية اثارة فضيحة بين المعزين • حضرا
يوما جنازة قريب شاب لجعفر طليل • وخرجت أم الشاب تودع
النعش أمام البيت فى حال جنونية ، حافية القدمين محلولة
الشعر تلطم خديها بشبشب ، ثم من شدة الحزن راحت ترقص
كالمجنونة ، منظر أثار بكزنا جميعا وأجرى دموعنا ، ولاحت
منى التفاتة نحو شعراوى الفحام فرأيت يعرض الفواجذ على
ضحكة تريد أن تفلت على جين راح جسمه النحيل يرتعش تحت
ضغط الضحك المكتوم ، ولم يكن قاسيا ولا بليدا ولا أبله
ولكنه كان غريبا ، كان نوعا قائما بذاته • وكان يقيم مع أمه
فى البيت المجاور لبيت سيد شعير % بلا أب ولا أخوة ، مات

أبوه وهو فى المهد ، تاركاً له ولأمة البيت ومعاشاً مقداراً عشرة جنيهاً • وكُرست أمه حياتها لتربيته معتمدة على معاش زوجها وريع وقف يماثله فى المقدار • لذلك اعتبرت أسرة ميسورة الحال وستظل كذلك حتى يدخل شعراوى طور الشباب فتكثر مطالبه ويتغير الحال • ولم يوفق شعراوى فى دراسته الابتدائية ، لا بسبب الإهمال والشقاوة مثل خليل زكى وسيد شعير ولكن بسبب الإهمال والشقاوة والغباء • وفصل من المدرسة لكثرة سقوطه ، فلم يجد سوى البيت والمقهى والطريق • ونفر بطبعه المذهب من مصاحبة خليل زكى ولكنه وجد ملاذه عند سيد شعير ، فلأزمه فى سهراته الحى الحسينى ثم فى أحياء البغايا بعد ذلك • وعن طريقه تعلم شرب الخمر ثم لم يفارقه أدمانها حتى الموت • ويوما قال لى وكان ما زال تلميذاً بالابتدائية :

— أنا عارف !

فسأله عما يعنيه فقال :

— أنت تحب حنان مصطفى •

فَسَكَتَ ضَيْقاً وَحِياءً فَقَالَ :

— وأنا أحب حنان مصطفى !

فذهبت وتوقعت طرأاً من نوع ما غير أنه ضحك وقال :

— يد الله مع الجماعة !

— ماذا تعنى ؟

— نستدرجها معاً إلى غابة التين الشوكى !

فصحت به :

— عليك اللعنة !

وكان ذلك قبيل رحيل آل مصطفى بأيام فسرعان ما تلاشى سوء التفاهم • على أنى لم أعرف له بعد ذلك قصة حب أو زواج واقتصر نشاطه فى ذلك المجال على مصادقة المومسات • ولما يئست أمه من تعليمه أرادت أن تجد له عملا ، وكانت تردد دائما أن أى عمل خير من البطالة • وقصدت قريبا لها من الكبراء هو أحمد باشا ندا فوظفه فى وزارة الأوقاف ، ولكنه لم يستطع المواظبة على العمل ، وكان يمضى يومه فى الفيشاوى منتظرا سيد شعير حتى يفرغ من عمله فى دكان أبيه ، وسرعان ما فصل من الوزارة ، ولم يتخف يوما عن سهراتنا الأسبوعية سواء كنا طلبة أم موظفين ، وتمكن منه ادمان الخمر فكان يشرب كل ليلة ، أشرب أرخص الخمر وأرذأها التى تتناسب مع دخله • ويمكن تخيل ما أحدثه ذلك فى أمه من قلق وأسى • وهو نفسه قال لنا ذات ليلة ونحن نسمر فى مقهى سيد شعير بوجه البركة :

— أمى لا تريخ ولا تستريح ، تريد أن تخلق لى عملا ولكن أى عمل ؟ ، وتريد أن تزوجنى ولكن أى زوجة ؟ فقال له عيد منصور :

— دخلك الثابت عشرة جنيهات وهو دخل طيب لو قنعت بسكرة واحدة فى الأسبوع وم' عليك إلا أن تبحث عن زوجة ذات أيراد ••

فضحك كالعادة وقال :

— انى أنتظر الفرج وهو آت عما قريب !
وكان يقصد مرييه أحمد باشا ندا الذى تولى رئاسته
الديوان الملكى فسأله عيد منصور وهو أشغفنا بالشئون
المالية :

— ألك فكرة عن ثروته ؟

فأجاب شعراوى وهو يملأ كأسه بالكونياك الجهنمى :
— عشرون ألفا من الأقدنة أما أمواله السائلة فلا يعلمها
الا الله . .

— ولا ورثة له غيركم ؟

— أمى هر قرييته الوحيدة الباقية . .

وكان رضا حمادة يؤكد لنا تلك المعلومات نقلا عن أبيه .
ومن الطريف أننا لم نعلم بقرابة شعراوى لأحمد باشا ندا
الا فى وقت متأخر نسبيا ، اذ أنه أخفاها على عهد المدرسه
الابتدائية لسوء سمعة الباشا كرجل من رجال السلطان وعدو
من أعداء سعد زغلول . واسترسل شعراوى يقول :

— أمى هى الوريثة الوحيدة له وأنا الوريث الوحيد لها
والباشا الآن فى الخامسة والسبعين من عمره ، وكل آتة
قريب !

وسأله جعفر خليل :

— حدثنا عما ستفعل بالتركة اذا آلت اليك ؟

فضحك طويلا وقال :

— آه لو تتحقق الأحلام ، سأبنى قصرا فى القاهرة
وآخر فى الاسكندرية كالباشا نفسه ، وسأملأ الخزائن بجميع
صنوف الخمر المعتقة وأما الفسوان ..

فقاطعه سيد شعير :

— وماذا ستقدم لنا نحن الأصدقاء ؟

فأجاب :

— ستكون سهرتكم فى حديقة القصر وسيقدم لكم أجود
ألوان الطعام والخمر والنساء ، عهد الله بينى وبينكم ..
وهمس رضا حمادة فى أذنى :

— سوف يكون يوما تاريخيا يوم يرث صديقنا تركته
الخيالية ..

وخل يسكر ويحلم بالتركة ، يسكر ويحلم ، ومع الأيام
رق عوده وجف جلده وبرغم ، بجابه جرى المشيب فى شعره •
واذا بالباشا العجوز يفاجئ البلد بمغامرة لا تخطر بالبال ،
فعاد من رحلة بالنمسا بصحبة عادة شقراء فتنة فى العشرين
من عمرها ، قيل أنه ينوى الزواج منها على سنة الله ورسوله •
وثار الرأى العام ، واضطربت جماعتنا ، أما صديقنا فكاد
يجن • وما ندرى الا وشعراوى يقيم على الباشا دعوى للحجر
عليه باعتباره سفيها • وأدهشنا ذلك وبحثنا عما خفى علينا
منه فوضح لنا أن خليل زكى هى الذى أشار عليه بذلك ! •
غير أن قوى مجهولة تدخلت لتعيد الى الأمر توازنه ، فسافرت
الفتاة النمساوية فجأة وقيل انها لم توافق على السفر حتى

استولت على عشرين ألفا من الجنيهاً • وبتدخل السراى
كفت الجرائد عن الخوض فى الموضوع ، وبتدخلها أيضا رفضت
دعوى الحجر • واعتكف الباشا فى قصره لا يزور ولا يزار ثم
أعلن وقفه المشهورة التى أوقف أرضه بها للخيرات
والمساجد • تذكرنا صديقنا فأحزننا مآله وخيبة آماله ، وأقبل
علينا فى مقهى الفيشاوى سكران كالعادة محمر العينين
ذاهل الطرف ، نظر فى وجوهنا مليا ، ثم أغرق فى الضحك ! •
وخلع حذاءه فوثب الى أريكة فى صدر المقصورة فتربع عليها
وراح يغنى :

البخت لو مال حتعمل ايه بشطارتك

وأغرق فى الضحك مرة أخرى حتى أعدنا فضحكنا
كالمجانين • ولم يطرأ عليه من جديد بعد ذلك سوى الافراط
فى الشراب • فكان يشرب فى النهار كما يشرب فى الليل •
ولم يتييسر له من أنواع الخمور الا الأنبذة الرخيصة
الشیطانية ، أنبذ السلسلة ودرب المبلات وخمارات شارع محمد
على ، وخبث شهواته الأخرى كشهوة الطعام وشهوة النساء ،
وبدا أنه يعيش فى منفى من صنعه ، يتخاطب بلغته القائمة على
الإشارة ويضحك لخيالاته الراقصة أو يطرق فى كآبة حيال
أشباهه ، وأنه يسير بقوة نحو الذوبان • وحاول جعفر خليل
أن يجره الى دنيا السينما كما فعل مع خليل زكى ولكنه رفض
الفكرة وضحك طويلا • وعرض عليه سيد شعير أن يعمل فى

المقهى بشرط أن يمتنع عن السكر فضحك أيضا • لم تكن لديه
همة ولا رغبة ولا دافع • وقامت الحرب العظمى الثانية ،
وفى نفس العام توفيت والدته ، فأجّر البيت وأقام فى حجرة
مستقلة بمرافقها فوق السطح • وفى عام ١٩٤١ أغارت
الطائرات الإيطالية على القاهرة فى النصف الثانى من الليل ،
وكان جالسا فوق السطح فى غيبوبة تامة من السكر • والظاهر
أنه لم يغادر كرسيه اذ وجد مطروحا عليه قتيلا بشظية مستقرة
فى رأسه • وكان مصرعه أول تجربة من نوعها فى حياتنا
المشتركة فهو أول من فقدنا من أصدقاء العمر • وكان جعفر
خليل أشدنا حزنا اذ عرف دائما بتعاطفه مع أصدقائنا المنحرفين
كسيد شعير و خليل زكى • وجمعنا المأتم حتى الذين باعدت
بيننا وبينهم الظروف الطارئة ، وجعل سيد شعير يقول بأسف
حقيقى :

— رحم الله شعراوى ، كان الوحيد المواظب على زيارتى •

صادق عبد الحميد

قال الأستاذ جاد أبو العلا بقدمه لى فى صالونه بالدقى :

— الدكتور صادق عبد الحميد •

سرت فى روحى رعدة وأنا أصافحه • تذكرت الاسم بقوة مخيفة • تذكرت درية زوجته وهى تحدثنى عنه • ترى أ يكون آخر له نفس الاسم ؟ • ولكن هذا الأمل تلاشى عندما واصل جاد أبو العلا حديثه قائلاً :

— كان فى بعثة قصيرة أخيراً فى انجلترا ، ولكنه حصل على الدكتوراه من انجلترا على عهد طلب العلم ، وهو باطنى ممتاز ولكنه أديب وفنّاء وفيلسوف وسياسى أيضا ••

اذن فهو زوج عشيقتى دون غيره ! • ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين بالكاد والذى يفيض حيوية ويتألق ذكاء • وأعجبني حديثه الذكى وجولاته المضيئة فى الفن والفكر والسياسة • ووجدته يجذبني بطلاوة الحديث وعمقه وتنوعه ، ووجدت فى روحه سرا ينفث صداقة راسخة ، وازدادت مع الأيام رسوخاً • وصفا جوها بقطع العلاقة بينى وبين درية زوجته وأن لم أخل من ضيق كلما تذكرتها • وبتحريض حار من ناحيته قدمته الى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس

الأستاذ سالم جبر • كما ندمته الى الأستاذ زهير كامل •
وخيل الى كثيرا أنه يضم تجربة نفسه في الكتابة ولكنه قنع
— ولو الى حين — بالاستماع والمناقشة ، وكان يحظى منهما
بسعادة لا توصف • وكان من المتحمسين لثورة يوليو عن
إيمان وعقيدة • وكان يحلم بالاشتراكية منذ عهد طلب العلم ،
ولم تكن له جذور حزبية أو أقطاعية تمنعه من الارتقاء في
أحضان الثورة • سأله رضا حمادة يوما :

— أليس لك مأخذ ولو على بعض تصرفاتها ؟

فأجاب بحماس ، وهو دائما يتكلم بحماس :

— كلا ، الحق أنني أيدت موقفها من الأحزاب ، من
الايوان ، وحتى من الشيوعيين ••

— وما لزوم « حتى » هذه ؟

— لست شيوعيا ، ولكني أرحب بالتعاون بين الثورة
وبينهم ، فالثورة والشيوعية تياران ينبعان من مصدر واحد
ويهدفان في النهاية الى أغراض متقاربة ••

وبعد صمت قصير استطرد :

— وأيدت موقفها من الوحدة مع سوريا ، ومن جملة
اليمن !

فقال رضا حمادة :

— اذن فليس في الامكان خير مما كان ••

فقال ضاحكا :

— لست غافلا عن السابيات ولكنها شر لا بد منه فى فترات الانتقال والتطور ، فأنت بضربة موفقة واحدة تستطيع أن تغير نظام الحكم أما الطبائع فيلزمها وقت أطول بكثير !
وعمد الى تفصيل رأيه فقال :

— قولوا فى الجمعيات التعاونية ما شئتم ، وقولكم حق ، ولكنها كنظام فهو نظام مثالى ، وسوف يختفى الفساد يوما وتبقى الجمعية لتؤدى رسالتها ، ويمكن أن يقال ذلك بالحرف عن القطاع العام ، ألا تذكرون بنك التسليف الزراعى ؟ .. لقد استغله اسماعيل صدقى للتكيا ، بخصومه وتفتيت وحدة الأمة ولكن اسماعيل صدقى ذهب وبقي بنك التسليف !

ولما وقعت الواقعة يوم ٥ بونية ١٩٦٧ ذهل واختل توازنه ، ومضى يتخبط بين الصالونات والمقاهى وكأن القيامة قامت ، ودار بينى وبينه حديث طويل فى التليفون ختمه متسائلا :

— أكانت حياتنا وهما من الأوهام ؟ !

وقابلته بعد ذلك بأيام فى بيت رضا حمادة بمصر الجديدة فوجدته ممتعنا غاية الامتعاض ، وجعل يردد بتألم شديد :

— ما أكثر الشامتين ، ما أكثر الهازئين ، ما أكثر المازحين ، لم يكن أحد ، لم ينتحر أحد ، لم يصب بجلطة أو ذبحة أحد ، يجب أن أجن أو أن أنتحر •

واكنه أخذ يسترد الثقة يوما بعد يوم ، وينظر الى

الهزيمة باعتبارها تجربة مريرة نزلت بنا لنعيد « تشخيص » أنفسنا ، وكلما سمع عن رغبة الأعداء فى تصفية الثورة ازداد إيماننا بها وحماسنا لها ، حتى اعتقد مخلصا أن استمرارها أهم من استرداد الأجزاء المحتلة من الوطن العربى ، اذ ما فائدة أن نسترد أرضا ونخسر أنفسنا ؟ ، ثم ان استمرارها هو الضمان الوحيد لاسترداد الأرض طال الزمان أو قصر ، كما أنه الضمان الوحيد لبعث الشعب العربى •

— اننا مطاردون ، يطاردنا التخلف ، وهو عدونا الحقيقى لا اسرائيل ، وليست اسرائيل عدوا لنا الا لأنها تهددنا بتجميد التخلف ••

وانصرفنا ذات ليلة معا من صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فجلست الى جانبه فى سيارته نصر التى مضت بنا على مهل تخوض الظلام على ضوء فانوسها المطفى بالأزرق • ووجدتنى أقول له .

— عبده البسيونى حدثنى بحديث عجيب ••
فتساءل عن الحديث فقلت :

— قال أن الدكتور زهير كامل عشق أخيرا صحفية تحت التمرين تدعى نعمات عارف ••
— وما وجه العجب فى ذلك ؟

— هو فى الستين كما تعلم وهى فى العشرين ••
فضحك وقال :

— العشق هو العشق بصرف النظر !
فقلت :

— وقال أيضا انه سيتزوج منها ..
— يا عزيزى ان حربا تنشب فجأة فتقتل آلافا أو ملايين ؛
وان زلزالا يقع فيدمر آلافا ؛ أما زواج زهير كامل فربما مر
بسلام وربما تخلف عنه ضحية أو ضحيتان !
وسكتنا مليا ، ثم قال لى .
— أعترف لك بأنى عاشق !
فتذكرت ما قالته لى درية فى آخر لقاء ولكنى تساءلت
مساءلا بالاهتمام :
— حقا ؟

— راقصة ايطالية بالأوبرج ..
— لعنها نزوة !
— حب عاش أكثر من عشرة أعوام ..
— يا له من حب عظيم !
— أشعر أحيانا بأنه عاش أكثر مما ينبغى !
فترددت ، وصمت ، بعد أن كدت أطرح سؤالاً عن الزوجة
ولكنه قال وكأنه قرأ أفكارى .
— كما أحببت يوما زوجتى ..
وجدتني بفتور عن حبهما ، حب طيب الامتياز للمرصة ،
كما سبق أن سمعته :
— كانت فقيرة ، وبالرغم من أننا لم تكن أغنياء الا أن
أحدا من أهلى لم يوافق على فكرة زواجى بها ، أبدا أبدا !
أبدا ..
— ولكنك تزوجتها ..
— وغرقنا فى الحب كالمجانين ..

وتمررد اللسان على تحفظى فقلت :
— ثم جفت ينابيع الحب !
فارتفع صوته — كأنما ليستمد من ارتفاع النبرة دفاعا —
وهو يقول :

— الحق أن نظرتها الى الحب تغيرت تماما بمجرد أن
صارَت أما ..

— كيف تغيرت نظرتها ؟

— لا أدري !

— أنت تدري بلا شك .

— لعلها أصبحت تكن حبا أعظم من الحب العادى ولكنى
افتقدت الحب الأول .. واذا بى ..

— واذا بك ؟

— اذا بى أزهد فيها نهائيا وبلا رجعة ..

— يا لها من سيدة تستحق الرثاء !

— انى أوفر لها جميع أسباب الرعاية والراحة !

ثم بصراحة :

— أحيانا أتمنى لو توفق لى حب رجل آخر فتذهب معه

بسلام !

وخيل الى " أن قصة درية قد اكتملت ولكن ساورتنى —

وما تزال — شكوك كثيرة • ونساعات الظروف أن نتعرف — أنا

وصادق — الى حرم الدكتور زهير كامل معا ، ودعاهما الدكتور

صادق عبد الحميد الى رحلة نى أوبرج الفيوم ولم يصطحب

زوجته معه بحجة انشغالها بالأولاد • وبعد مرور عام قال لى

الأستاذ جاد أبو العلا فى صالونه :

— انى رأيتهما معا !

فسأله عن يعنى فقال :

— نعمات عارف والدكتور صادق عبد الحميد فى كنج

مربوط ♦♦

فقلت وأنا أدارى انزعاجى :

— لعلها ♦♦

فقاطعنى ساخراً :

وفالوا براها يا جميل تبدلت وغيرها الواشى فقلت لعلها
وقلت لنفسى ان الدكتور الممتاز يحتاج الى مزيد من
الدراسة عن جانبه العاطفى • وظل يتحدث فى السياسة والفن
ولكنه لم يشر بكلمة الى حبه الجديد ، وواصل زيارته للدكتور
زهير كامل ، وقام بتمثيل دور الصديق والمعجب كما كان يفعل
من قبل ، وهو ما ساعنى منه وأثار اشمئزاضى • وضاعف من
اثارتى أنى رأيت فى نفس العام درية فى سيارة جاد أبو العلا
وهو ينطلق بها فى طريق الهرم ، وللحال تذكرت فيلته
بالهرم التى حدثنى عنها عجلان ثابت عندما أخبرنى بعلاقته —
جاد أبو العلا — بأمانى زوجة عبده البسيونى • ها هى درية
تجرب حظها مرة أخرى مع رجل عابث لا يوفر الأمان لأحد •
وضقت بهمومى الأخلاقية وتذكرت الكثيرين ممن يصفونها
بازدراء بقولهم « بزجوازية » ، وقلت لنفسى انه لمن حسن
الحظ أنه لم يبق لنا طويل عمر فى هذه الحياة المتعبة الفاتنة •

ضـسـبـرى جـاد

تعين بإدارة السكرتارية فى أواخر عام الفـكـسة • كان فى الثانية والعشرين من عمره ، ومن حملة ليسانس الفلسفة ، ومن أول يوم جعلت أرمقه بحب استطلاع ، وأنتظر على لهف اليوم الذى يكاشفنى فيه بطوبته فيصلنى بهذا العالم الجديد الغريب • وكان من أصل ريفى ولكنه نشأ وتربى وتعلم فى القاهرة ، فى أسرة متوسطة ، أبنا وحيدا بين ثلاث بنات توظفن وتزوجن ، ويوما سألنى ؛

— حضرتك تعرف الأستاذ عباس فوزى ؟

فأجبته بترحيب ؛

— طبعا ، كان رئيسنا حتى أحيل الى المعاش منذ أعوام ••

— أين يقيم الآن ؟

— فى عابدين ، أتريد أن تقابله ؟

— نعم ، أريد منه حديثا لمجلة العلم ••

— أنت صحفي بها ؟

— تحت التمرين ••

— ما رأيك أن نزوره معا ؟ •• فانى لم أره من مدة

غير قصيرة •

وذهبنا معا الى فيلا عباس فوزى ، وهى مقامة فوق

سطح عمارة يملكها في عابدين • ورحب بنا بلطفه المعهود ،
وأجرى صبرى جاد معه حديثه الذى دار حول مؤلفاته عن
التراث • ولما انتهى استأذن فى الانصراف ولكن الأستاذ عباس
فوزى قال له :

— لن أسمح لك بالذهاب حتى تجيب عن أسئلتى ••

فتساءل الشاب عما يريد فقال :

— ثمة أسئلة تلح على بخصوص جيلكم فهل أنت على
الاستعداد للإجابة بصراحة !

فأجاب الشاب باسم :

— طبعاً •

— بصراحة من فضلك ، نحن غير رسميين ، ونحن فى

خلوة ، فلا تضن على بالحقيقة ••

— تحت أمرك ••

وقلت أنا :

— الأستاذ يريد أن يعرف أشياء عن الجيل ككل لا عن

شخصك ••

فقال عباس فوزى :

— هذا ما أقصده تماماً •

فقال صبرى جاد :

— تحت أمرك ••

اعتدل الأستاذ عباس فوق الكتبة التركية ثم سأل :

— ما موقفكم من الدين ؟

فأجاب صبرى جاد ببساطة :

— لا أحد يهتم به !

- لا أحد ؟ !
- الأغلبية لا تهتم به !
- لم ؟
- لم يكن موضع بحث ، ربما لأنه توجد به أشياء غير معقولة وتخالف ما ندرسه من العلم ..
- ولكنى أعلم أن الدولة تهتم بتدريسه وتتشرط النجاح فيه ؟
- ونحن نحفظه وننجح فيه •
- أتعنى أن تعليمه غير مثمر من ناحية العقيدة ؟
- أجل •
- والبيت ؟ .. ألم تلقنه فى البيت ؟ .. هل والداك مؤمنان ؟
- نعم ولكنهما لا يصليان ولا يصومان ولا يتحدثان فى الدين !
- ألا يوجد بين الطلبة اخوان مسلمون ؟
- كلا .. أو عدد لا وزن له ..
- ألا يوجد تلاميذ مؤمنون ؟
- فى رأيى انهم قلة ..
- ثم مستدركا :
- بعد الفكسة وجد نوع من الميل للدين ، البعض يقولون ان هزيمتنا ترجع الى اهمالنا لديننا ..
- اذن يوجد ميل للايمان ؟ •
- نعم يوجد ..
- فقال الأستاذ عباس باسم :

— انى أطمع فى مزيد من الدقة •
— أجبت بما أعرف ، مستعيدا ذكريات الثانوية والجامعة •
— دعنى أساعدك ، لعلك تقصد أن تقول ان الايمان بصفة
عامة لا يلعب دورا هاما بينكم ولكن الوضع قد يتغير بعد
المناسبة ؟

— نعم ••

— ما مدى هذا التغير المحتمل فى نظرك ؟

— لا أدري ••

وتفكر الأستاذ عباس مليا وأنا أتابعه — أتابعهما — بحواس
مرهفة واهتمام لا مزيد عليه • وعاد الأستاذ يسأل :

— ما هى القيم التى تقدسونها ؟

فنظر اليه صبرى جاد فى حيرة وتمتم :
— القيم ؟

وقلت من فورى مخاطبا الأستاذ :

— أرجو أن تتجنب التجريدات ما أمكن ••

فعاد الأستاذ يسأل :

— لم تتلقون العلم فى المدارس ؟

— لعله خير من أن نقصعالك فى الشوارع !

— فقط ؟ !

— ولكى نحصل على وظيفة توفر لنا الحياة السعيدة •

— وما الحياة السعيدة ؟

— هي المسكن الصحى والمأكل اللذيذ والملبس الأنيق وغير ذلك من مسرات الحياة ..

فتدخلت فى الحديث بلا تدبير متسائلا :

— ألا تحبون العلم ؟ .. ألا تسعون للتفوق فيه ؟

— كلنا نطمح الى دراسة العلم . الا من يقعدده المجموع عن ذلك .

— لماذا ؟

— الشهادات العلمية هي التي توفر الوظائف الممتازة ..

— والتفوق فى العلم والحلم بخلق اضافات فيه ؟

فتردد قليلا ثم قال :

— أعتقد أن المتفوقين يخدمون بذلك ..

فسأله الأستاذ عباس :

— ألا تقرأون الكتب فى اوقات الفراغ ؟

— نفضل السينما والاذاعة والتلفزيون وقليلا يقرءون ..

— وهل يقرءون التراث ؟

— لا أظن !

— ألم تقرأ التراث بصفتك طالب آداب ؟

— لغته معقدة ومحصوله ضحل وهو مقطوع الصلة

بزماننا !

فتسللت نبرة حادة بعض الشيء الى صوت الأستاذ وهو

يسأل :

— والوطن أما زلتم تحبونه ؟

- طبعا •
- واسرائيل هل تودون محاربتها ؟
- نحن الذين سنحرر الوطن بدمائنا ، الوطن الذى
تسببتم فى هزيمته ••
- نحن ؟
- نعم •
- ليس جيلنا الذى يحكم ••
- وأشرت الى الأستاذ عباس اشارة خفية ليتجنب الحدة
فثاب الى الهدوء وجعل يبتسم فى مودة ، ثم سأل :
— وماذا تفضلون الاشتراكية أم الرأسمالية ؟
فرفع صبرى منكبيه وأجاب :
— لا تهمنى الأسماء !
— الأسماء ؟ !
— أجل ، مللنا ذلك •• ، يهمنى أن تتحقق لك فرد حريته
ونجاحه وسعادته ••
- فقلت مت دخلا فى الحديث مرة أخرى :
- هذا يعنى أنك تفضل الاشتراكية !
- لا أدري !
- أتفضل النظام الرأسمالى ؟
- لا أعتقد •
- أديك نظام جديد ؟
- كلا •• ولكننا مللنا ذلك ••
- ورجع الأستاذ عباس فوزى يسأل :

- وما موقفكم من الحب ؟ .. ألا زال الحب عندكم قيمة أم أصبح الجنس كل شيء ؟
- الجنس مسيطر ٪ وقليلون يحبون بل ويرغبون أن يمتد بهم الحب حتى الزواج ؟
- وماذا عن الأكثرية ؟
- يمارسون المغامرات الجنسية ..
- مع من ؟
- التلميذات .. الطالبات .. الفتيات !
- هل يقبلون الزواج من المغامرات ؟
- كثيرون يقبلون .. والبعض يتبع تقاليد الجيل الماضى ..
- أعتقد أن الفتيات لا يتخلين عن حلم الزواج :
- هذا هو عيهن الأول •
- وغير مستحيل أن تتزوج أنت نفسك يوما ما •
- غير مستحيل وان يكن مرتبى مضحكا ومستقبلى عدما •
- ولكن ثمة ما بشدك الى الحياة ولا شك ؟
- عزيزه حب البقاء •
- ربما !م تطل حياتك من سرور ؟
- لقمة سائغة ، فيلم جيد ، علاقة جنسية بريئة •
- بريئة ؟ !
- أى ليست استدراجا لزواج •
- أعتقد أنك خير من أبيك ؟

— كان: أبى وفديبا يقدس سعد زغلول ومصطفى الفخار
وأنا أعتبر ذلك مضحكا .

— لم ؟

— ثبت أنهم أصنام لا أكثر ولا أقل .

— لا أجد عندك عقيدة بديلة ؟

— كان عندي ، وتزلزل كل شيء عقب ٥ يونية ..

— ماذا تقترح لتحسين الأحوال ؟

— العالم كله عدم وهباء .

— ماذا تقترح لتحسين أحواله ؟

— القضاء على جميع المسؤولين فيه !

— وماذا يحدث بعد ذلك ؟

— لا يهم ، ستتحسن الأحوال وحدها ..

— لقد جئتني يا عزيزي لأجراة حديث عن التراث على

حين أنك لا تؤمن به ؟

— انى صحفى تحت التمرين !

— ولكن سلوكهم لا يخلو من انتهازية ؟

— وما لعيب ؟ . أى وسيلة تتفح للوصول فى هذا العالم

المكتظ فهي مشروعة !

— أشكرك جدا !

— العفو ...

وإغادرنا عمارة الأستاذ وصدرى يجيش بانفعال عاصف ..

صفاء الكاتب

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت فى العباسية القديمة ،
وكان يقع فى الحى الشرقى بمبناه الشامخ وحديقته المترامية
ما بين محطتى ترام • وكثيرا ما سرنا بخذاء سوره ونحن فى
طريقنا الى الصحراء للعب الكرة فلم أر منه الا رعوس
الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة • وذات يوم
وكنت ماضيا نحو الصحراء رأيت حنطورا ينحدر من الطريق
الشرقى نحو الشارع العمومى ، فى صدره جلست عجوز تلوح
من وجهها عينان ناعستان فوى حافة اليشمك ، والى جانبها
فتاة تتألق بنور الشباب • وبمجرد أن وقعت عيناي على وجه
الفتاة عانقت سرا من أسرار الحياة المتفجرة ، تفتحت بها أبواب
السماء ثم أغدقت على " فيضا من بركات الحب • وقال شعراوى
الفحام وكان أكثرنا خبرة بالحى الشرقى :

— هى صفاء ابنه صاحب القصر •

وقال خليل زكى وكان يشطو على حدائق الحى الشرقى
كلما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو :

— وهى فى العشرين من عمرها •

وعند ذلك همس جعفر خليل فى أذنى وقد لاحظ تغيرى :

— أما أنت ففى الخامسة عشرة !

ومن عجب أن صورتها — رغم العاطفة التى ابتعتها —
— اختفت تماما وراء سحب الماضى • بل تعذرت على الوضوح
حتى وأنا فريسة لسحرها • لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته
ولا لون عينيها أو رسمهما ولا طول قامتها أو درجة امتلائها •
ذاب ذلك فى سائل سحرى • وكنت اذا تذكرته — أو خيل
الى ذلك — فعن طريق غير مباشر وبايحاء عفوى كشذا الورد
الذى يياغتك من وراء سور وأنت ماض غارقا فى أفكارك •
وكان قلبى لم يكن يحركه شئ الا اذا انتهى اليها بسبب
خفى • ولذلك همت فى أزمنة متأخرة نسبيا بقسمات وملامح
وسمات ولفترات لنجوم توهمت أنها تذكرنى بما غاب عنى
منها • بل ما أحببت صفة فى وجه انسانى الا وكانت هى
وراءه حبة أم وهما • وبسبب ذلك الحب الخاطف عانت
حياتى العاطفية من أزومات متواصلة معقدة كأنها السحر
الأسود • والعجيب أنه كان حبا بلا مواقف ولا مواقف ولا تاريخ
يذكر • رأيته فى الحنطور ثوان ليس الا ففقدت ارادتى
وألقى بى فى طور حديد من أطوار الخلق • وكنت قريب عهد
بحب حنان مصطفى فأدركت خطئى وآمنت بأننى أحب لأول
مرة • وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو جاض ويصحو وهو
نائم • كيف يفنى فى الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم ،

وينفذ الى جذور النباتات وموجات الضوء • وجعلت أحوم
حول سراى الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر
لا يرى به انسى سوى البواب والبستاني وبعض الخدم ،
وسمعت مرة صوتا ناعما ينادي البواب فاهتز قلبي وافترضت
فى الحال أنه صوتها ثم آمنت بذلك • ورأيتها للمرة الثانية
فى مناسبة حزينة جدا ، فى نافذة بيت أثرى بشارع محمد
على احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جنازة سعد زغلول ،
ولم أنتبه اليها عقب مرور النعش فرأيت من خلال دموعى
وجهها المشرق وهى تجفف عنيتها مادة عنقها وراء النعش
المبارك • خفق قلبي خفقة مباغتة ولكنى لم أنعم بالرؤية
وفقدت النشوة فى قلب كسير محزون ، واجتاحتنى عواطف
متناقضة كما اجتاحتنى تيار الخلق المتلاطم الباكي • لم أرها
بعد ذلك الا ساعة هبطت أدراج السلامك فى ثوب العرس
لتستقل سيارة الى بيت العريس وكنت ضمن حشد وقف على
الطوار المواجهة للقصر للفرجة • وكانت مدة ذلك التاريخ الذى
مر بلا أحداث عام الا قليلا ، ولكنه كان أعجب عام فى حياتى •
وانكشف أمرى لأصدقائى جميعا ، أما المهرجون
فسخروا منى وأطلقوا على « مجنون صفاء » ، وأما
الآخرون فحذرونى من التمداد فى عاطفة لا جدوى
منها أبية • وكنا صغارا وكانت أفكارنا ساذجة

مستعارة من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربى ،
فقال لى سرور عبد الباقي :

— لا تستسلم والا جننت كمجنون ليلى ••

وقال لى رضا حمادة :

— أن حبك هذا يقطع بأنك أحببتها فى تاريخ سحيق
مضى ، ربما فى عصر الفراعنة . كما يقول ريدر هجارد •

وتمثل ذلك الحب فى صورة قوة طاغية متسلطة لا تقنع
بأقل من التهام الروح والجسد • قذف بى فى جحيم الألم •
وضهرنى ، وخلق منى معدنا جديدا تواقا الى الوجود ، ينجذب
الى كل شىء جميل وحقيقى غبه • وبقي الحب — بعد اختفاء
خالقه — ما لا يقل عن عشرة أعوام مشتجلا كجنون لا علاج له •
ثم استكن على مدى العمر فى أعماقى كقوة خامدة — ربما
حركتها نعمة أو منظر أو ذكرى فتدب فيها حياة هادئة مؤقتة
تقطع بأنه لم يدركه الفناء بعد • وكلما تذكرت تلك الأيام
أذهلنى العجب ، وتساءلت بدهشة عن سر الحياة التى عشتها ،
وهل كان أصابنى مس من الجنون ، وأسفت غاية الأسف أنه لم
يقدر محبى أن يخوض تجربته الواقعية ، وأن تتلاقى فى دوامته
العنيفة السماء والأرض ، وأن أمتحن قدراتى الحقيقية فى
معاناته ومواجهة أسرارهِ على ضوء الواقع بكل خشونته
وقيسوته • وما أحكم رضا حمادة حين قال لى يوما . وقد بلغنا
درجة من الفضح والتجربة :

— صفاء ألقيت فى حياتك كمثير •• لم تكن الا « شفرة »

تشير الى شيء ، تعين عليك أن تحل رموزها للوصول
اليه •

فقلت له :

— لقد تحالت حياتنا الى سخریات ولكنى أكره أن أذكر
تلك الأيام باستخفاف ••

— استخفاف ؟ ! • كيف يستخف انسان بأروع سنى
العمر ؟ !

ومرت بقصر آل الكاتب فى الستينيات فوجدته قد هدم
ورفعت أنقاضه ، خلفا أرضا فضاء تحفر تمهيدا لاقامة أربع
عمارات سكنية • ابتسمت وأنا أنظر الى الأرض الفضاء ،
وعبرنى احساس بالأسى ، فتذكرت صفاء التى لم أرها منذ
هبوطها فى ثوب العرس ، التى لم أدر عنها شيئًا ، حية كانت أم
ميتة ، سعيدة أم شقية ، وكيف غيرها الكبر بعد بلوغ الستين ؟ •
وأيا كان خبرها ، ورأى الآخرين فيها ، ألم يكن من حقها أن
تعرف أنها عادت فى محراب كآله ، وأنها فجرت فى قلب حياة
ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكرها ؟

صقر المنوفى

كان طبيعيا أن يوصف عم صقر المنوفى بأنه الساعى بادارة السكرتاريه ولكن جاء وقت كاد يطلق على ادارتها العتيدة بأنها ادارة عم صقر • وكان أقرب الى القصر والبدانة ولكنه كان جم النشاط ، بل فاق نشاطه عادة المهام المطلوبة منه • وكان جاسوسا بالسايقة ، ولحساب نفسه ، وفى أوقات تقديم قهوة الصباح كان يتطوع بالهمس مفشيا الأسرار ، أسرار الوزارة والموظفين • ولعله كان أول من بصرنى بالأسباب الحقيقية لترقية شرارة النحال من عامل تليفون الى سكرتير لسعادة وكيل الوزارة ، ثم انهمرت أنباؤه تباعا عن عباس فوزى وعدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان والأنسة عبدة سليمان والرجل الطيب التعيس طنطاوى اسماعيل وغيرهم • قال لى يوما الأستاذ عباس فوزى ونحن بصدد الحديث عن ارتفاع الأسعار وبؤس الموظفين ذوى المرتبات الثابتة فى أيام الحرب :

— لا أحد يأكل ما يشتهى الا عم صقر !

فأبدت الدهشة فقال :

— انه مغرم بالطعام الجيد •

فقلت له :

— الغرام شيء والقدره شيء آخر •

فقال بسخريته المعهودة :

— كأنه فلم مباحث ، فما من فرح يقام أو مأتم الا وعنده علم به ، وسرعان ما تجده بين العاملين فى الفرحة أو المأتم ، يتطوع للخدمة ليشهد فى النهاية وليمة العشاء ، كذلك تجده فى ليالى الموالد بالجوامع الكبرى ، فما من ليلة تمر الا وهو فى وليمة ، فأى باشا بدانيه فى هذا الحظ الغذائى منعدم النظير ؟ ! من ذلك جاء تألقه الدائم بالصحة والعافية ، وغزله الرقيق باللحوم والفطائر والحلوى ، أما بقية مظاهر حياته فجرت فى مستواها الطبيعى البائس تساع مسكين ، يقيم فى حجرة أرضية بعطفة دعبس بالحسينية هو وزوجته وأبنائوه • ولكن متى رسم خطة للآثراء ؟ • اذ من المحقق أنه رسم تلك الخطة وعمل على تنفيذها بصبر ودأب ، ربما منذ عهد التحاقى بالخدمة فى أواخر عام ١٩٢٤ •

انطلق فى ذلك السبيل بادئا من بيع قطع الحلوى والنحاس ورثها عن أمه فتجمع لديه مبلغ من المال راح يستثمره فى اقراض الموظفين بربح فاحش • وهو نشاط غريب بالنسبة لرجل مسلم من أهل البلد الفقراء ولكنه أقدم عليه وتماذى فيه حتى النهاية • وعرف بذلك فى أوساط الموظفين الفقراء وما أكثرهم فأقبلوا عليه بنهم وأصبح بذلك مركزا لحركة مصرفية سرية ونمت نقوده وتراكت • وفى بحر ربع قرن من الزمان

استطاع أن يشتري البيت الذى يسكن حجرته الأرضية بألف جنيه ، ثم هدمه فأقام موضعه عمارة صغيرة مكونة من دورين ودكانين • وكان له ابنان وبنت ، أهملهم أهمال الفقراء فعمل البكرى فراشا فى وحدة صحية بالريف وانقطع كلية عن أسرته ، واشتغل الأوسط صبى قصاب ، أما البنت فقد اختفت وهى فى سن المراهقة ، قيل انها خطفت أو تاهت أو هربت ، وما لبث ابنه الأوسط أن قتل فى مشاجرة بالمذبح • وحزن عم صقر حزنا عميقا ، واعتقد أن ما أصابه فى بنته وابنهما هو عقاب من الله على اثرائه بالربا فكف عن الاقراض ، وأدى فريضة الحج تأتبا • والعجيب أن تحسن حاله المالية لم يغير مظهره ولا سلوكه العام فى الحياة • بقى فى وظيفته الحقة يقوم على خدمة موظفين يعتبر سيديا لهم من الناحية الاقتصادية • ولبت يسعى الى الأفراح والمآتم للاستمتاع بالولائم المجانية ، وظل يتشتم الأخبار ليفشى الأسرار عند تقديم القهوة ، فاذا خلا الى نفسه غلبه الحزن على ابنته المفقودة وابنهما القتل • وأذكر أننى كنت فى مأتم جعفر خليل عندما جاء عدلى المؤذن للتعزية ، وجالسته بعض الوقت فقال لى :

— صقر المنوفى قبض عليه !

فدهشت وسألت عن السبب فقال :

— الرجل جن ولا شك ••

ثم قال :

— كان فى مسكنه وحده فجاءت بنت الكواء ببذلته فاعتدى عليها وهى قاصر!

وغاب عن ذاكرتى زمنا طويلا حتى رأيتته مقبلا على مجلسى بمقهى الفيشاوى حوالى عام ١٩٦٠ بعد خروجه من السجن بأشهر • وكلما سألته عن حاله أجاب باقتضاب :
— الحمد لله •

وعلمت أن زوجته توفيت وهو فى السجن وأنه يعيش وحيدا •

— سافرت لزيارة ابنى ولكنى لم أرتح فرجعت بعد أسبوع واحد !
وجعلت أواسبه وأشجعه حتى قال :

— انى راض بما حدث فهو جزاء حق ولكن لم لا يعامل الله سيحانه بالمثل أشخاصا مثل شرارة النحال أو عدلى المؤذن !

صبرية الحشمة

كانت تدير بدرب طياب — حوالى ١٩٣٠ — بيتا وأربع فتيات حسان • وتأصلت بينها وبين سيد شعير صداقة مثينة منذ ذلك العهد البعيد • قدمنا اليها فصرنا من المقربين الى المعلمة وتمتعنا بامتيازات غالية ، وكنا نشهد المسهرات الخاصة — التى تبدأ بعد وقت التثطيب فى الدرب — داخل البيت ، فنسمع الغناء ونشاهد الرقص ونتمادى فى السهر حتى مطلع الفجر • وكانت فى الأربعين : لحيمة مهيبة ، جذابة الملامح ، ذات شخصية مسيطرة تليق بالمعلمات • وكان مجرد حضورها كأنه قانون طبيعى ، يخضع له كل فى دائرته الخاصة ، لا تجرؤ على الاستهانة به جارية أو قواد أو زبون أو خادم • وأعجب بها جعفر خليل ، وعشقتها شعراوى الفحام حتى اضطر سيد شعير الى أن يقول له :

— المعلمة تدير ولا تعمل ••

فسأله :

— أتعنى أن حياتها خالية من الرجال ؟

— كلا ، المعلمة تعشق ولكنها لا تعمل بالأجرة ، ولها رفيق

رومى بياع نبيذ !

ولما قامت الحرب العظمى الثانية كانت بين أوائل المعلومات اللاتى استجبن للتطورات الطارئة فاستأجرت شقة كبيرة فى شارع شامبليون وخصصتها لإدارة السرية ، ووسعت دائرة نشاطها ،مفتحت مشربا للخمور بشارع الملكة نازلى ، واستفادت أكبر استفادة من الترفيه عن جنود الامبراطورية البريطانية . وكشفت تلك الفترة المتوترة عن مواهبها فى الادارة حتى قال لى سيد شعر :

— خفت عليها من التوسع أن يفلت الزمام من يدها ولكنها
أمهر من الجن الأحمر !

وكان يواظب على زيارتها ويحكى لنا عن مغامراتها أون فأول ، فعرفنا كيف تاجرت فى السوق السوداء فربحت أموالا طائلة من الخمور والخردة • قال سيد شعير :

— أنها أقدر من وزير بالرغم من أنها أمية % لا يفوتها ملهم من حسابات البيت والمشرب والتجارة ، وتعرف العملاء بالاسم ، ويا ويل من يحاول خداعها ، وهى كريمة تجود بسخاء على العاملين معها من الموزعين والقوادين والفتيات ، وكل شخص يحبها ويحترمها ويعمل لها ألف حساب •

فقلت لرضا حمادة :

— ليت حكومتنا تتبع مثالها فى معاملة موظفيها !

فضحك رضا حمادة وقال :

— هى عندى خير من صاحبنا المتدين زهران حسوته !



فقلت :

— بل هي عندي خير من كثيرين من الوزراء والزملاء الذين يقومون بنفس الدور مع الانجليز ولكن على حساب الوطن ! •

فقال جعفر خليل بأسى :

— رحم الله صديقنا خليل شعراوي الفحامي فلعلها المرأة الوحيدة التي عشقها في حياته القصيرة ••
وعند نهاية الحرب كانت قد جمعت ثروة طائلة ، وأثبتت أنها أعقل من كثيرين ، وكانت قد بلغت الخامسة والخمسين من عمرها ، فصفت أعمالها ، وأردعت في البنك ألوفا المؤلفات . وشيدت لنفسها فيلا في المعادي • ولكن صاحبها الرومي قد توفي ولم يكن لها وريث ولا أهل ، فعاشت عيشة هنية هادئة ، ثم قررت تغيير حياتها جذريا ، فأدت فريضة الحج ، وأغدقت الخير على أصدقائها القدامى ، وتبرعت كثيرا للجمعيات الخيرية • وسمعت — عام ١٩٥٠ وهي في الستين — أنها تزوجت من شاب في الثلاثين ، موظف بمصلحة المساحة فأدركت أن فترة الهدوء قد انطوت وأن فترة من القلاقل قد بدأت • ومنذ ذلك التاريخ وحتى اليوم لم يبلغني عنها جديد ، إذ أن زواجها أغلق بابها في وجه سيد شعير . وبالتالي انقطعت أخبارها عني ••

طنطاوى اسماعيل

لعله الموظف الوحيد الذى لم أجد فيه شيئا من «مضمون
الموظف المتعارف عليه • كان وقت دخولى الخدمة
رئيسا للسكرتارية العامة ، درجة خامسة ، فى الخمسين من
عمره ، وظل يشغلها حتى أُحيل الى المعاش عام ١٩٤٤ • ولما
اطلع على ملف خدمتى الجديد سألتنى :

— أكنت من تلاميذ الدكتور ابراهيم عقل ؟

فأجبت باعتزاز :

— نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضا •

فقال بصوت ذى رنة نحاسية :

— ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما ابراهيم عقل فوغد كافر

من ذيوه المبشرين !

فقلت وأنا لا أجد حافزا للدفاع عن الرجل :

— يخيل الى أنه اعتزل الفكر ولم يبق من استاذيته

الا شبح ••

فقال بحدة :

— لم يبق منه الا مرتزق من المرتزقة !

وحضرته — طنطاوى اسماعيل — مرات فى مكتب المدير

العام فرأعنى منه أنه لا يحنى ظهرا ولا يردد ملقا وأنه يحافظ على كرامته تماما ، ثم يغادر المكان مخلفا وراءه أسوأ الأثر . ولفت نظري أنه كان يصحح الخطابات التي تعرض عليه للتوقيع من أخطائها اللغوية والنحوية لا المصلحية فقط . وكان يفتش على حجرات الإدارة متفندا النظام والعمل ، فلا يتسامح مع متلكيء أو مهمل أو متهم بسوء معاملة الجمهور . وبالرغم من ذلك كله لم أعثر على موظف واحد يعترف له بفضائله . كانت تصرفاته توصف عادة بالحماسة أو بجنون العظمة . وأذكر أنه قال لي قبيل حلول عيد الهجرة :

— أنا أول من طالب باعتبار يوم الهجرة عطلة رسمية !

ووعدنى بالاطلاع على المقالة التي دعا بها الى ذلك وقد فعل . وأذكر أيضا أنه رقى ترقية جديدة بعد أعوام تنفيذاً لقرار مجلس الوزراء الخاص بالمنسيين فهنأته بذلك ولكنه قال، بصوته الجهورى :

— لو أنصفوا لولوا المنسيين مقاليد الحكم فهم فى الواقع أشرف الموظفين !

وكان عم صقر الساعى موجودا ، وكان موضع عطف الرجل : فقال له :

— لعل ذلك يدعو سعادتك الى تغيير رأيك فى الوفد ؟

فقال بصراحتة :

— ليس هذا بالانصاف اننشود ولكنه مداراة قلقه لشر مستحكم ، نوع من أنصاف الحلول ، وذلكم هو شعار الوفد

الحقيقى الخفى ، الحق حق والباطل باطل ، والخير الحقيقى
أن تولى من يصلح وأن تطرح فى السجون الفاسدين ، رحم الله
زعماء الحزب الوطنى ، عرفوا الحياة بتضحية وجهادا لا سياسة
ومهادنة !

واطلع يوما على أسماء كبار الموظفين الذين نالوا رتبا
وأوسمة مناسبة من المناسبات فقال :
— لولا ايمانى بالله ، لولا ايمانى بأن حكمته فوق العقول ،
لجننت !

وهمس عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة فى أذنى :
— ما زال يتصور أنه عاقل !

أجل • بالجنون كان يُرمى دائما ، ولذلك غض عن الكثير
من تصرفاته • وقد عرفت ماضيه من عباس فوزى وعم صقر
وغيرهما • عين فى الوزارة بدبلوم التجارة العليا وهو فى
العشرين من عمره • وفى ظرف خمس سنوات عمل مفتشا
بالحسابات • وكان ذا خلق نقى طاهر « يحمل الأمانة باخلاص » ،
ولا يحيد عن الحق ، فأثار موجة من الرعب فى قلوب الكتبة
والمراجعين • كنوا يعملون من خلال نظام محكم تعاونى يقوم
أساسه على الرشوة والهدية فانفجر الرجل فى أوسباطهم
كالقنبلة فاتكا بمصادر رزقهم الحقيقية • ولو كانوا يملكون
الشجاعة الكافية لاغتالوه ، ولكنهم فكروا فى وسيلة تخلصهم
منه • ولعبوا بامضائه لعبة مأكرة فوجد نفسه وهو لا يدري

موضع اتهام وتعذر عليه تبرئة نفسه منه • وقدم الى مجلس
تأديب فقضى بفصله من عمله •

— تصرّر شخصا أميناً لدرجة الجنون يجد نفسه مفصولاً
بتهمة خيانة الأمانة :

غادر الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته « أنا أمين • • أنا
شريف • • أنا مظلوم • • حسبي الله ونعم الوكيل » • وعانى
الألم والجوع والجنون خمس سنوات كاملة حتى انهارت
أعصابه تماماً ، وحتى اضطّر عمه الى نقله الى مستشفى أمراض
عصبية بطلوان ، فقضى فيه عاماً ثم غادره بعد أن تماثل
للشفاء ، ولكنه كان خسر شيئاً صميمياً لا يعوض • ومرض
وكيل الحسابات فشعر بدنو الأجل ، فاستدعى مدير إدارة
التحقيقات واعترف له بحقيقة المؤامرة التي حيكت للايقاع
بطنطاوى اسماعيل • وأعيد التحقيق بصفة سرية ثم تقرر
اعادة الرجل الى الخدمة ، مع الحاقه بإدارة « غير مالية »
تجنباً لأى أذى قد يلحق به أو بالآخرين ! • وقد عملت معه
عشر سنوات فعرفته عن كثب ، عرفت إيمانه بالله الذى لا حد
له ، عرفت نقاء خلقه الناصع ، كما است فيه وطنية تبلغ درجة
التعصب الأعمى • وكان كثير الاطلاع على المراجع الدينية ،
ميلاً للمحافظة لدرجة أن يعاف أى حديث من فكر أو سلوك
فيَعده انحرافاً وسقوطاً • جمعنى وآياه ركن بجامع الحسين
فى الليلة السبوية التى كان يحييها الشيخ على محمود ، وكان
يسأل من حوله :

— ترى أما زالت الفضائل فضائل أم أصبحت موضبة
قديمة ؟

وراح يحمل على الجبن والتملق وفساد الذمم والانحلال
فيقول :

— نحن فى حاجة الى طوفان جديد لقمضى السفينة بقله
الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد !

طالما تشوقت الى معرفة المزيد عنه ، حياته الخاصة ،
نشأته الأولى ، علاقاته بزوجه وأبنائه ، تصرفه حيال سائر
مغريات الحياة ، ثم قنعت بما تيسر لى معرفته ، فهو انسان
يتجلى بالنقاء لكنه يعيش فى مستنقع مكتظ بالجراثيم • غير
أن عنفه فى الحق يدفعه أحيانا الى حافة اللاانسانية وهو
لا يدري ، فصراحته كثيرا ما تتسم بالايذاء فى غير ما ضرورة «
مما جر عليه شعورا عاما بالنفور بل والكراهية ، وكان عبد
الرحمن شعبان مترجم الوزارة يشير اليه بقوله « ابن
المجنونة » ، كما كان الأستاذ عباس فوزى يقول عنه متهمًا :

— سيدنا طنطاوى بن الخطاب رضى الله عنه !

ورغم ذلك كله فلم يستطع أن يصد موجة « العصر »
عن أن تغزو عرينه ، فذات يوم — وأنا موظف جديد — رأيت
فتاة مليحة جذابة تجلس الى جانب مكتبه قدمنى اليها ثم
قدمها الى قائلا :

— ثريا رأفت كريمة شقيقى ..

ثم قال باحتجاج باسم :

— طالبة بالمعهد العالى للتربية !

ثم وهو يهز رأسه :

— العلم نور ، ولكنى لا أوافق على المرأة العاملة ، ومن ذلك

فلا سلطان لى على بيت أخى : الأكبر الا النصيحة ..

ولعل آخر موقف انطبع فى نفسى من طنطاوى اسماعيل

كان غداة يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ ، قال لى قبل أن يجلس الى

مكتبه :

— ما رأيك ؟ .. ها هو زعيمك يرجع الى الوزارة فوق

الدبابات البريطانية ..

وكنت أتجنب مناقشته وبخاصة وهو ثائر ، وجعل يتساءل

وعيناه تبرقان :

— أسمعتم عن زعامة من هذا النوع من قبل ؟ !

ثم اجتاحتته موجة من الغضب فجعل يصيح كالمسوس :

— الطوفان .. الطوفان .. الطوفان ..

طه عنان

ظهر في حياتنا ونحن في السنة الرابعة الثانوية ، كان أبوه مأمور قسم شرطة بأنسيوط ثم نقل الى القاهرة مأموراً لقسم الوايلي متخذاً من العباسية مقاما لأسرته • وتعرف طه عنان بأصدقائي جعفر خليل ورضا حمادة وسرور عبد الباقي من زملاء المدرسة انثاوية ، ولكن علاقته توثقت بي وبرضا حمادة فقط لاشتراك ثلاثتنا في العقيدة الوفدية والميول الثقافية • وقد اشترك في الاضراب الذي استشهد فيه زميلنا بدر الزياتي ، ومما يذكر أن أباه كان ضمن القوة التي حاصرت المدرسة ثم اقتحمتها بعد ذلك بالقوة والعنف • وناقشنا موقف والده ، وكان خجلاً منه ومتألماً وجعل يدافع عنه فيقول :

— أبى وطني ، مثلنا تماما ، ويؤمن بمصطفى النحاس كما آمن بسعد زغلول ، ولكنه يؤدي واجبه !
فقال رضا حمادة :

— سمعنا عن ضباط مثله انضموا الى الثوار في سنة

• ١٩١٩

فقال طه عنان مدافعاً عن أبيه ما وسعه الدفاع :
— كانت أيام ثورة ولا ثورة الآن • •

وكان يغلب على طبعه الجد فنفر من مزاح جعفر خايل •
وكنا نقرأ معا بعض كتب التراث وكثيرا من مؤلفات كتاب العصر
من قادة الفكر الجديد ؛ كما كنا نناقش كل شيء بحرية
وحماس • ونتطلع الى مستقبل فكرى واحد • وكان يؤمن
بالكتب ويرجع اليها فى كل ما بهمه من شئون الحياة • ولما اطلع
على قصة حبيبى لصفاء الكاتب دهش وقال :
— ولكن حالك غير طبيعية ••

فقلت باستياء :

— ولكنها واقع ••

— أنا أحب أيضا ابنة عمى ونفكر فى اعلان خطوبتنا !
واتبعا لأسلوبه فى الرجوع الى الكتب مضى بى الى
دار الكتب ورحنا نقرأ معا عن كلمة « حب » فى دائرة المعارف
البريطانية ، ثم قال :
— هذا هو الحب من جميع نواحيه الفسيولوجية والنفسية
والاجتماعية ، ومنه ترى أن ما بك ليس حبا ولكنه جنون ••
فتمتتم بحنق :

— جنون ••

فابتسم قائلا :

— لا تغضب ، ربما احتجنا لقراءات أخرى !
ولكننا لم نواصل القراءة عن الحب ، وقرأنا كثيرا —
وخاصة فى العطلة الصيفية — عن حقائق جديدة ومتنوعة ،
وكل شيء كان جديدا • وتعرضنا لأزمات نفسية وعقلية
وحشية • ولزلزل قلوبنا زلزالا •

واقترح على اقتراحها عجيبا ونحن جالسان في مقهى
الفيشاوى قال :

— علينا أن نبدأ من العدم

— من العدم ؟

فقال بثقة لا تتفق مع انهيارنا :

— لا سبيل إلى مواجهة هذا العذاب الا بأن نبدأ من

الصففر ..

ورمقته بنظرة متسائلة بالرغم من أنني أدركت ما يعنيه

فقال :

— من الصففر ، ثم نستعيد قصة الحضارة من جديد

معتمدين على نور العقل وتحدده ..

فسألته :

— وان صادفتنا أشياء لا يفصل فيها العقل بحكم ؟

فقال بحماس :

— لنبدأ بالعقل باعتباره الانسان ولننظر أين يذهب بنا .

وواصلنا رحلتنا طوال العامين الأولين من حياتنا الجامعية .

واعترضتنا أحداث لم تخطر لنا على بال ، فقد ألغى اسماعيل

صدقي دستور ١٩٢٣ وهب الوفد لمحاربته بكل قواه الشعبية .

وكان ثمة يوم رهيب بلغ التوتر فيه مداه . احتلت

مفارق الطرق بقوات الشرطة والجيش . ولم يتمكن الشعب

من التجمع الذي يصلح أساسا لمظاهرة ضخمة ، فعمد الناس

من جميع الطبقات الى التجمد فى الحواري والأزقة والشوارع
الجانبية ، ومنها بزدفعون بقوة هاتفين ملقين بالطوب فى
جميع الجهات ثم بتفرقون بسرعة ليعيدوا الكرة والرصاص
يطاردهم • اشتركنا فى مظاهرات ذلك اليوم أنا وطه عنان
ورضا حمادة • اشتركنا من أول اليوم فى التجمعات المتفرقة
والانقضاصات المباشرة والتفرقات السريعة على أنغام الرصاص
المتطاير • وشاهدنا المئات وهم يسقطون كما شاهدنا الجنود
وهم ينقضون عليهم كالنسور فيحملونهم بعنف غير انساني
ويلقون بهم فى اللوريات ويطمسون آثار دمائهم فوق أديم
الأرض بالرمل والأتربة • وقبيل المغرب خفت حدة القتال •
وندر ظهور التجمعات ، ولكن لم يخل الجو من هتافات متقطعة
متباعدة ومن طلقات نارية قليلة ولكن مستمرة • وقررنا العودة
الى بيوتنا فسرنا معا مخترقين شارع حسن الأكبر • سرنا
متشاكى الأذرع من شدة الأعياء ونحن نتصيب عرقا ، وقال
طه عنان وهو يتوسطنا :

— منذ أشهر والشعب يقاوم والضحايا يسقطون بلا حساب
ولا مبالاة ••

فقال رضا حمادة :

— انه سفاح متعطش للدماء !

فقال طه :

— على أى حال فإيجابية الشعب خير من المناقشات الباردة
التي نسمعها فى ضالون أستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم ••

وثقل بين أيدينا حتى سأله :
— هل غلبك التعب ؟

ولكنه ثقل أكثر دون أن يجيب فالتفتنا نحوه فرأينا فاه
ينفث دما غزيرا • صاح حمادة :
— أصيب برصاصة ••

لم تكن الطلقات قد سكنت • ورأينا لافتة طبيب أسنان
فحملناه اليها ونحن نرتعش من الاضطراب • وكانت العيادة
خالية ولكن التمرجى أنامه على كنبه وهرع الى التليفون لطلب
الاسعاف •

ولفظ طه أنفاسه الأخيرة بين أيدينا قبل أن يصل رجال
الاسعاف •

عباس فوزى

جمعت بيننا مودة صميمة منذ أول يوم دخلت فيه الخدمة •
وكان يجمع مكاتبنا ركن واحد بإدارة السكرتارية العامة ،
أنا وعباس فوزى وكيل السكرتارية وعبد الرحمن شعبان
مترجم الوزارة • ولما قدمه رئيسنا طنطاوى اسماعيل قائلاً :

— الأستاذ عباس فوزى وكيل السكرتارية •

نظرت اليه باهتمام وسألته :

— حضرتك الكاتب المعروف ؟

فأجاب بالإيجاب فشددت على يده بحماس ، والموظفون
يرمقوننا بفتور وقرف • وقلت له :

— طالما انتفعنا بكتبك عن التراث •

فقال :

— ولكن الجامعة لا تعترف إلا بالشهادات ••

— ولكن ثمة درجة من العلم تتخطى أى شهادة !

فقال بحنق :

— أستاذك إبراهيم عقل لا يؤمن بذلك ••

على أى حال اعتبرته جوهرة فى عالمى الجديد ، زاملته فى
العمل ، والتقيت به فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم وسالم

جبر ثم فى صالون جاد أبو العلا فى زمان متأخر • وعجبت كيف أنه فى الدرجة السادسة فقط بالرغم من شهرته وبلوغه الخامسة والثلاثين من العمر ، ثم تبين لى أن زملاءه يعتبرونه مغتصبا للدرجة باسم الخزعبلات التى يؤلفها • والموظف القح لا يحترم عادة الا الموظف : « الحقيقى » الخبير بالادارة واللوائح ، أما تأليف الكتب فيعد عندهم نوعا من العريضة التى لا تليق بالمحترمين من الرجال • ويحكون حكاية وثبته الى الدرجة السادسة فيقولون انه كان كاتباً بالأرشييف كما ينبغي له ، « حتى الابتدائية » لم يحصل عليها ، ولكنه دأب — كلما تولى الوزارة وزير جديد — أن يحمل اليه مجموعة من مؤلفاته مصحوبة باهداء شعري ، وكان الوزراء يتقبلون الهدية شاكرين ومن ثم يرجع الى الأرشييف ويسدل الستار على الدراما المتكررة ، حتى تولى الوزارة رجل يحب الأدب فأعجب به ورقاه الى الدرجة السابعة ، ثم — بعد عامين الى السادسة مع نقله وكيلا للسكرنارية ، هكذا فرض الرجل عليهم • وكان الأستاذ عباس فوزى على علم بما يقال ، وكان يبادلهم احتقارا باحتقار ، وكثيرا ما قامت بينه وبينهم معارك كلامية حتى يفصل بينهم أهل الخير •

وكان يعتبر الموظف حشرة من الحشرات السامة ، وكان يعرف الانسان فيقول « الانسان موظف ناطق ! » •

غير أن رجلا فاضلا مثل طنطاوى اسماعيل قال لى مرة :

— احذر ذلك الرجل ، انه ذو علم ولكنه بلا خلق •

المسألة أنه كان مثقلا بالعبال والفقر وكان يكافح بكل سبيل
لاسعاد نفسه وأسرته • ولم أعرف رجلا مثله ينضح بالمرارة ،
وكان يترجم مرارته الى سخریات لاذعة لا ترحم كبيرا
ولا صغيرا ، موظفا أو مفكرا أو أدبيا • سخر من أخلاق
الموظفين رغم تشبعه بها حتى قمة رأسه ، ويهون من شأن
الناجحين والمفكرين رغم قصوره عن بلوغ ما حققوه حتى في
ميدانه ، ويحتفظ دائما بمدخر لا ينفد من المعلومات التي تشكك
في مواهبهم أو تزدري بسلوكهم الشخصي • أما قيمته الحقيقية
فكانت مركزة في تراث اللغة ، ولا أغالى اذا قلت انه كان يحفظه
كله شعرا ونثرا • عن ظهر قلب • قال لي يوما :

— شد ما يبهركم الأدب العربى حتى تظنون كل شىء ،
أما أدبكم العربى فلا تعرفون منه شيئا ، انى أتحداك ، اذكر
لي ما شئت من مختار أشعارك الغربية وسأعطيك ما يقابلها
من تراثنا •

وجعلت أردده ما حضرني من معانى الشعر والنثر فكان
يعطيني المقابل العربى بما يقارب الاعجاز • وكان يلاحقنا ...
إذا تكلمنا — بتصحيح نطق الكلمات ، وكان يقول :

— لا يجوز أن تطبع كلماتنا بدون تشكيل ••
وأذكر أنه مرض يوما بالكلى فذهبت مصطحبا الأستاذ
عبد الرحمن شغبان المترجم لنعوده ، فوجدناه راقدا مغموما

ببطانة لا يبدو منها الا رأسه ، فجلسنا قرب فراشه
وسأله :

— كيف الحال الكلى يا أستاذ •

ونطقها مكسورة الكاف كالمألوف فما كان منه الا أن صحح
النطق قائلاً بصوت لا يكاد يسمع من الضعف :

— الكلى •

رافعا الكاف • وعدنا والمترجم يقول لى :

— إذا مات هذا الرجل فسوف يصحح النطق للملاك الذى
سيحاسبه !

وتركز اهتمامه فى تراث العربية فلم نعرف له هواية
أخرى ، فهو لا يتذوق أى فن آخر حتى الغناء ، ولا يكاد يعرف
شيئا ذا بال من الثقافة الحديثة بوجه عام ، ولا يهتم بالسياسة ،
ولا يفرق بين حزب وآخر ، ولا يحترم إلا الوزير القائم
بالوزارة ، ولا يؤمن بقيمة من القيم ولا دين من
الديان ، ولم يحب باخلاص الا نفسه وأسرته واللغة العربية •
وكان مكتبه بالوزارة ملتقى لكثيرين من الشعراء والكتاب
والصحفيين والزجالين من مختلف الأجيال ، ولعل كثيرين منهم
كانوا يستعينون به فى مراجعة نصوصهم من الناحية اللغوية
والنحوية نظير مبالغ بسيطة • وكان دائما يحسن الترخيب بهم
فيغدق عليهم أعذب ألحان المديح حتى إذا ذهبوا أنهار عليهم
بالحجازة !

- رأيتم ذلك الرجل ؟ .. انه لا يتملق وهو فى المدينة !
- مسكين ذلك الزجال .. طلق زوجته لوقوعه فى غرام ابن لها من زوج آخر !
- أما هذا فلعله الشاعر المعاصر الوحيد الذى فاق فى لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان !
- هذا الكاتب ذو قلب كبير حقا .. لقد أحب جميع الأحزاب ، ولا يحلو له حب حزب الا وهو فى الحكم !
- وزاره مرة انجليزى عجوز ، لبث فى مصر بعد احالته على المعاشن ، وكان يتقن العربية اتقانه للانجليزية ، ولما ذهب الرجل قال :
- انى معجب بالأخلاق الانجليزية ، فثمة فرق هائل بين لوطى انجليزى ولوطى مصرى ، اللوطى الانجليزى يحمل لواطه معه الى أقصى الأرض فلا يمنعه ذلك من خدمة الامبراطورية حتى الموت ، أما اللوطى المصرى فلا يعرف لنفسه مبدءاً أو عقيدة !
- وكما لم يرحم أحداً فلم يرحمه أحد .. كان يزعم أن والده كان مهندساً فقالوا انه كان تراكيا ، وأن أمه كانت غشالة ، ورموه كذلك بالشذوذ الجنسى .
- ثم يرحم أحداً إلا الوزير الذى عطف عليه أو الذى — على حد تعبيره — اكتشفه ، فكان يقول عنه :
- كان رجلاً أديناً وشهما ومنصفا رغم أنه كان وزيراً !

ولكنه كان يكبح جماح عدوانه ازاء أصحاب النفوذ ، من هم فى 'لوزارة ومن هم خارجها ، فلا يتدخل فى مناقشة حزبية ، أو يتعرض بكلمة لرجل من رجال السراى ولو كان طاهيا ، وفى أثناء الحرب تظاهر بأنه من أنصار الحلفاء ، فلما كانت موقعة دنكرك وظن كثيرون أن الحرب موشكة على النهاية بانتصار الألمان سمعته يتربم بقول يشار :

بعثنا لهم موت الفجاءة اننا
بنو الموت خفاق علينا نسبائيه
فراحوا فريق فى الاسار ومثله
قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

ولما دارت الدائرة على الألمان فى موقعة العلمين استشهدت بدورى بشر بشار فأدرك مكرى ومن فوربه قال :

— لا رحم الله بشارا ، كان نازيا لوطيا !

وغداة ٤ فبراير ١٩٤٢ ثار أذيال الأحزاب من الموظفين فاتهموا الوفد بالخيانة ، أما الوفديون فقد فرحوا وطربوا وراح عم صقر الساعى يرقص فى الإدارة ، فخافه عباس فوزى أن يفسر صمته بأنه موقف غير ودى من الوفد ، فانتهاز فرصة غضب طنطاوى اسماعيل وهتافه « الطوفان .. الطوفان .. الطوفان » وقال برزانة :

— قتلوا فيما حدث ليلة أمس ما ستتم ولكن من الانصاف أن نعترف لمصطفى النحاس بأنه أنقذ الوطن فى هذه الموقعة الحرجة من حياة الوطن !

ومن حسن حظه أن كان الوزير الوفدى مغرما بالأدب
فرقاه الى الدرجة الخامسة وعينه رئيسا للسكرتارية عقب
احالة طنطاوى اسماعيل الى المعاش • على أن كتبه لم تلق
من الرواج ما كان يطمح اليه لمنافسة الأساتذة الجامعيين له
فى ميدانه وتفوقهم عليه بمنهجهم العلمى الحديث • وزاد
من شجاءه أن أحد تلاميذه استغل معرفته بالتراث فى تأليف
كتب دينية عن النبى والقرآن فربح من ذلك أموالا خيالية
فكاد الرجل أن يجن • وراح يقول :

— على أبا من كان الاتحاد هو الموضة فولينا وجهة أخرى !

ثم هز رأسه فى أسى وتساءل :

— كيف فاتبنى ذلك الباب الذهبى ؟

ثم سألنى حائقا :

— أتعلم ما هى الثروة الحقيقية فى بلاد العرب ؟

ثم أجاب :

— ليست البترول ولكنها السيرة النبوية والقرآن •

فقال له الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم :

— ما رأيك فى أن نترجم معا بعض الكتب الغربية التى
أنصفت الرسول ؟

فرحبت بالفكرة ، ونفذناها ، بالرغم من الجادهما الكامل ،

فدرت عليهما ربحا يعتبر أول ربح ذى وزن ربحه فى حياته •

وانطلق بعد ذلك يكتب سير الأنبياء ، فتحسنت أهواله :
وواجه بثقة ارتفاع الأسعار الذى أعقب الحرب ، حتى قائ
لى بوما :

— ليت الله أرسل أضعاف أضعاف من أرسل من الأنبياء
والرسل :

ومضى أبنائؤه يتخرجون فى الجامعة ويتوظفون ، فقرر
فى عام ١٩٥٠ القيام بأول إجازة صيفية فى حياته • أجل ،
لم يكن يطلب إجازة أبدا ، ولبت يعمل عاما بعد عام بصفة
متواصلة حتى سألته :

— لم لا تقوم فى إجازة لتتعم بقدر من الراحة ؟
فضحك وقال :

— يا لك من طيب القلب ، أنت لا تدري شيئا عن يطمعون
فى وظيفتى ، انهم يلقوننى بالأحضان على حين يوارون
خناجرهم وراء ظهورهم ، فاذا غبت شهرا سعوا سعيهم
ودسوا دسائسهم ليستولوا على الوظيفة ، افنا نعيش فى
غابة من الوحوش ولكنهم أخط من الوحوش وأقدر ••

ولم أفهم منطقة وعجبت له • على أى حال وثق عام
١٩٥٠ بنفسه واطمأن الى دخله من كتبه فقرر أن يبر نفسه
بإجازة ، بل سافر بحرمة وكريمته الى الاسكندرية • كان يرى
الاسكندرية لأول مرة فى حياته ، ولكنه وجد نفسه كالتائه
الشريد اذ لم يتعود أبدا معاملة الفراغ • كان يومه مستغرقا
دائما بالعمل فى الوزارة ، فى البيت ، فى صالونات الأدب ،

ولكنه لم يعرف مقهى أو سينما أو مسرحا فضلا عن الاسكندرية . لذلك ضاق بالمصيف ، وفزعت حرمة من الزحام ، فقررا العودة بعد أسبوع واحد ، وبالرغم من توسلات ابنتهما الحارة . ولما قامت ثورة يوليو لم تكد تؤثر فيه شيئا ، فلا حزن على العالم المولى ولا سر للعالم الصاعد ، وضاعف نشاطه في التأليف الدينى حتى حاز ثروة كبيرة بكل معنى الكلمة . وأحيل الى المعاش عام ١٩٥٩ فتفرغ لعمله أكثر ، وشيد عماره فى عابدين أقام لنفسه فوق سطحها فيلا ، ولكنه ما زال حتى اليوم متمردا ساخرا ، وكلما زرته أتحننى بالمجديد من سخرياته وشكاياته . قال :

— تصور أننى لم أنتخب حتى الآن فى المجمع اللغوى ! . .
كأن أعضاءه الخواجات أفقه فى اللغة منى ! ، والمجلس الأعلى
للآداب لا يوجد عباس فوزى ضمن أعضائه ! . . هل حتم
ألا يدخله إلا العوام ؟ !

ولما لاحظ همى وغمى فى الأيام التى أعقبت هزيمة يونية
قال باسما :

— شاب شعرك ولم تتعلم الحكمة بعد !
ثم تساءل بسخرية :

— هل ثمة فارق حقا بين أن يحكمك الانجليز أو اليهود
أو المصريون ؟ !

عدلى المؤذن

عندما التحقت بالجامعة كان موظفا بها • وكنت ألتقى به كثيرا فى مكتبة الجامعة • كما كان يحضر معنا محاضرات مسيو كوربه فى الفلسفة تحصيلًا لبعض فوائد رآها ضرورية فى تحضير رسالة الماجستير • وكنا ندعوه « الكاتب المصرى » للشبه العجيب الذى بينه وبين وجه التمثال المعروف بالكاتب ، غير أنه كان طويلًا عريض الكتفين ذا وجه أسمر غامق تتحرك فيه حركة متحدية براقية عينا صقر يشعان ذكاء ودهاء ، التقينا مرة فى حديقة الأورمان ونحن سائران الى الكلية فتصافحنا وأخذنا فى الحديث • قال :

— سأقدم رسالة الماجستير فى أكتوبر القادم ولكنى أفكر منذ الآن فى الخطوة التالية • •
فسألته :

— الدكتوراه ؟

— كلا ، هل لك فكرة عما يمكن أن يروح من الكتب الفلسفية ؟

— لا أعتقد أن الكتب الفلسفية توضع للرواج • •
— ولكن إذا أصدرنا سلسلة من الكتب عن ضحايا

الفكر الحر فى الفلسفة والتصوف ألا نسهم بذلك فى الدفاع
عن الحرية المغتالة فى هذا العهد ؟

فقلت بحماس :

— فكرة بديعة ..

— وناجحة ، أليس كذلك ؟

— بكل تأكيد ..

ولكنه حصل على الماجستير ولم ينفذ فكرته ، ولم ينشر
من الكتب الا تحقيقا لتهافت الفلاسفة وتحقيقا آخر لتهافت
التهافت ، وكان زميلى فى الكلية عجلان ثابت هو الذى أطلعنى
على جانب من ماضيه المجهول ، قال :

— انه يسكن معنا فى حى السيدة ، وكان أبوه سائق
ترام ، وهو يعيش اليوم مع أمه وشقيقته ..
فقلت :

— أن مظهره المهيب الرزين يقطع بأنه من سلالة حكام !

فضحك عجلان ثابت وقال :

— توظف بالابتدائية ثم درس وهو موظف حتى بلغ ما بلغه
من العلم ..

ثم همس :

— ويبدو أن شقيقته بنت لعوب عفريته ولذلك فاتها سن

الزواج ولم تتزوج الا

ولم يكن يخلو من جانب مزاح فى أحد احتفالات
آخر السنة بالكلية تطوع لتقليد بعض الأساتذة ،
ونجح فى تقليد الدكتور إبراهيم عقل نجاحا مثيرا ،

فما كاد بتكلم عن المثل العليا حتى دوت القاعة بالتصفيق الشديد . ومع ذلك كانت علاقته بالدكتور ابراهيم عقل وثيقة ، ولما ولى الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقربه من السراى اعتمد فى ادارته على عدلى المؤذن ، وهو الذى قدمه الى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير الى وزارته مفسحا لطموحه مجالا جديدا أحفل بالفرص من ادارة الجامعة . هكذا وفد الى وزارتنا كرجل خطير من رجال الوزير ، وزرته مهنتا ومستبشرا بقدومه خيرا ، ولكنى وجدت فيه شخصا جديدا ، شخصا اداريا خطيرا مقطوع الصلة تقريبا بالرجل الذى كان يتلمس طريقه بمشقة بين مسالك الفلسفة . وتجلت مواهبه الكامنة فى خدمة الوزير والوزارة ، وكان - - والحق يقال - - حاد الذكاء ذا مقدرة ادارية فذة ، وكان بارد الأعصاب لدرجة لا تصدق ونم تعهد عادة بين المصريين ، ومنذ أول يوم شعر شرارة النحال بخطورته وعمل له ألف حساب وحساب . وخيل الى الأستاذ عباس فوزى أنه طرأ على الوزارة موظف خطير مثقف لأول مرة ، وأنه يحسن به أن يهدى اليه مؤلفاته ، وفعل ، وقال له وهو يهديها اليه وبحضوري اذ كتبت أنا الذى قمت بالتعارف بينهما :

— ليس من عادنى أن أهدي كتيبى الى أحد ، ولكن الكتب لا تؤلف الا لتهدى الى أمثالك !

فقال عدلى المؤذن ببروده النادر :

— أعترف لك بأنى اطلعت عليها. . .

فشاع الفرح فى وجه عباس فواصل الآخر قائلاً :

— وأعترف لك بأنى وجدتها سطحية لم تكد تضيف الى
الأصل الا قليلا . .

فاصفر وجه عباس فوزى غير أنه قال متظاهرا بالمرح :

— لا تحكم بعقلك يا أستاذ ، نحن نكتب للبسطاء انعلمهم ،
أما الفلاسفة فلا سبيل لنا اليهم . .

وعدنا الى الادارة والرجل يقول لى فى الممشى :

— لا تخبر بما سمعت أحدا من الرعاع . .

فقلت له برثاء خفى :

— طبعاً . .

فقال مستردا طبعه الساخر :

— بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن كلب !

وفى مدة وجيزة أحاط عدلى المؤذن بشئون الوزارة
والموظفين ، وكان يشغل وظيفة رئيس المكتب الاستشارى ،
فاتصل بحكم عمله بجميع فروع الوزارة . وأثبت فى العمل
طاقة خارقة ، واستحق بعمله الثقة كل الثقة دون انزلاق الى
سراديب الحزبية ، مع الاحتفاظ لشخصيته بالاحترام ، ومع
عدم الحيد الى ما يمس الكرامة الا عند الضرورة القصوى فرفع
الوصولية الى أرفع مراتبها . وكان فى أعماقه ميالا للوفد
وقيمه الشعبية والديموقراطية والاستقلالية ، ولكنه كبتها فى

الأعماق ، وتغلب عليها بقوة أعصابه الباردة • ولم يعرف عنه أنه صنع خيرا فى حياته ، ولم يتورع عن إيذاء شخص طالما وسعه ذلك ، وكان بلا شك يجد سعادة خاصة فى الشر والتحدى والايقاع بالخصوم بل وبالأصدقاء ، ولم يكن يهتم أن يكون محبوبا • وخيل الى كثيرا أنه يعمل بشغف على أن يكون موضع النعمة والبغض والحسد • وهو يختلف فى ذلك عن شرارة النحال الذى آثر بعض الأذئاب بالعطف ، والذى حرص دائما على معسول الكلام حتى وان دس فيه السم ، والذى سعى الى نيل الثقة ولو بالكذب والنفاق • لذلك كره الموظفون عدلى كابليس ، وتهامسوا بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته ، ومنهم من فسر عزوبيته بشذوذ جنسى يخفيه بصرامته وعنجهيته ، ولذلك فان الموظف الوحيد الذى ساعده كان شابا جميلا منحلا • وطالما ساءلت نفسى حائرا كيف أمكنه المحافظة على كرامته ووظيفته بالرغم من تتابع الوزراء والأحزاب عليه ؟ • وبالبحث والتحري ، ولعرفتى الوثيقة به ، علمت أنه كان يبسط حمايته — وقت اقبال الدنيا عليه — على عدد محدود من موظفى الأحزاب المختلفة ، حتى اذا أقبلت دنيا الأحزاب على أحدهم رد الجميل اليه فزكاه عند وزيره ، بذلك احتفظ بمكانته فى جميع العهود معللا فوزه بكفاءته الشخصية وحدها ، وظل يترقى من درجة الى درجة حتى عين مديرا عاما قبل ثورة يوليو • ورغم صلتنا القديمة وزمالتنا العلمية لم يتورع عن

التضحية بي في أول فرصة سنحت • كان ذلك عندما رشحتني
لجنة شئون الموظفين لدرجة خالية بعد مقارنات طويلة بيني
وبين منافسي الذي كان كاتباً بالسجلات • ورفعت اللجنة
قرارها فوقه الوزير وغادرت الوزارة مترقياً متلقياً التهاني •
ولما رجعت الى الوزارة صباحاً فوجئت بالغاء القرار وترقية
المنافس بدلاً مني • كدت أفقد عقلي ، وبالبحث علمت أن موظفاً
كبيراً بديوان جلالة الملك اتصل مساء أمس بالأسبناز عدلى
المؤذن موصياً بمنافسي فما كان منه إلا أن سارع الى مقابلة
الوزير — والعهد كان ملكياً — وأخبره بالتوصية ، وفى الحال
تمزق قرار ترقيتي وتحرر قرار جديد بالترقية الجديدة •
وذهبت الى عدلى المؤذن منفعلاً وناقشته فيما سمعت من أنباء ،
ولكنه ظل طيلة الوقت صامتاً بارداً حتى تعبت وبخت ، ثم قال
لى بهدوء :

— أعدوا بيان الميزانية الجديدة للنشر فى الصحف !

وعرفت أمورا أكثر من وكيل المستخدمين الذى كان لى
صديقاً كما كان له عدواً ، قال لى :

— ما حصل يعتبر مخالفة صريحة للقانون ، فالقرار
الوزارى لا يجوز تغييره الا بقرار وزارى مثله ، وقد اطلعت
بنفسى على قرار ترقيتك فمتى صدر قرار آخر بالغاء الترقية ؟
فسأله :

— ألا تستطيع أن تثير المسألة رسمياً ؟

فقال ضاحكا .

— هبهات أن يستطيع ذلك الا السفير البريطاني نفسه !

فسأله بدهشة :

— ولكن ما علاقة الموظف الآخر وهو على قد حاله مثلى
تماما برجل السراى الخطير ؟

فقال ضاحكا :

— صل وسلم على سيدنا لوط !

ومنذ ذلك الموقف ففرت علاقتى به حتى كادت تقتصر على
العمل الرسمى . قبل ذلك كنا دلتقى صباحا فى ميدان سليمان
باشا ، نسير كزملاء رغم فارق الدرجة ، فنتناول فطورنا فى
الأميركيين ، ثم نمضى فى طريق الوزارة معلقين على الأحداث
والمارة والأشياء . ويبدو فى تلك الفترة لطيفا ودودا ضاحكا
محبا للمزاح حتى ليقص على آخر ما سيمع من النكات
السياسية عن الملك وحاشيته وأسرته ، أو يدعونى الى زيارته
فى مسكنه الجديد بالمعادى الذى انتقل اليه بعد صعوده
السريع ، ثم قد يستدعينى الى مكتبه بعد ذلك بربع ساعة
فيطالعنى بوجه جديد ، وجه صارم بارد مجرد ، يأمر ويكلف ،
وينذر بلا رحمة ولا ذوق ! . وأغادره وأنا أضرب كفا على كف ،
ومرة فضفضت نفسى فبحث بما يكربنى للأستاذ عباس فوزى
فقال لى :

— عنده انقسام شخصية ابن القديمة ، نحن موعودون
فى هذه الوزارة بكافة أنواع الشذوذ .

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تهيأت له فرصة للتخلص من شرارة النحال أكبر منافس له على وكالة الوزارة • وأشهد أنه كان وراء بعض العرائض التي قدم بها شرارة الى لجنة التطهير ، ولكن الرجل نجا بأعجوبة ورقى وكيلا للوزارة فتلقى عدلى المؤذن أكبر ضربة وجهت اليه فى حياته • وسرعان ما وجد نفسه غريبا بين موظفين جدد لم يعرف لهم أصلا ولا فصلا • اختفى أغلب معاونيه فى التطهير واستقبل حياة جديدة بكل معنى الكلمة • ورجع يخطب ودى كما كان يفعل فى حديقة الأورمان ، ورجعنا نتلاقى فى ميدان سليمان باشا وراح يقول ساخرا :

— لقد سقطت الوزارة فى أيدي جماعة من الغلمان !

أو يقول :

— ما قيمة أن تعرف القوانين والأصول الادارية ؟ • ممكن أن تفعل الآن أى شىء كما تشاء وكيفما تشاء باسم الثورة !

وشعرت لأول مرة فى حياتى بأن موجة من العدالة تجتاح العفونة المتصلة بلا هوادة فتمنيت أن تواصل سيرها بلا تردد ولا اعوجاج وفى نقاء وطهر الى الأبد • وحاول الرجل التسلل الى القيادات الجديدة ولكنه لم يفلح • وما لبث أن أصيب بسرطان الدم فاعتكف فى بيته فترة ثم وافاه الأجل حوالى عام ١٩٥٥ • ولا أنسى ساعة انتشار خبر وفاته فى الوزارة ،

فقد خرج الموظفون على تقاليدنا المرعية ، وسمعت العشرات
وهم يقولون بأصوات مرتفعة شامتة :

— الله يجمحه!

— فى ألف داهية !

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها ، شيعها عشرة أنفار ،
قريب واحد وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة ، وحضرها
رجل ذو شأن هو الدكتور إبراهيم عقل فى عهد دروسته التى
أدركته بعد وفاة ابنه وقبيل وفاته • وعقب وفاة عدلى المؤذن
بיום واحد انتحرت شقيقته العانس •

عبد الرحمن شعبان

شخصية لا تنسى • عندما جلست الى مكتبى لأول مرة فى
إدارة السكرتارية لفت نظرى بشدة كهربية • عملاق فى
طول العقاد وضخامة زيور بائسا ، أنيق الملبس فخم المنظر ،
تخاله وزيرا رجعيا أو مدير بنك •

— حضرته أستاذنا الكبير عبد الرحمن شعبان مترجم
الوزارة •

ليس هذا فحسب ولكنى عرفت أيضا مع الأيام أن مرتبه
عشرون جنيها لا غير ! • بدا لى أول يوم منطويا متجهما كخصن
فقدت المتاعب فى زمالته التى فرضتها الأقدار على ، ولكنه
كان يفتح قلبه بيسر وبسرعة ، وسرعان ما تنفجر قهقهاته
كالقنابل ويحتقن وجهه المستدير الريان بالدم ويتجلى فى براءة
الأطفال • وعند الحديث تنهمر منه المعلومات كالطر الغزير ،
فهو يحب الموضوعات التى تطرق مدخراته من المعارف بقدر
ما يضيق بالموضوعات التى يجهلها فتضطره الى التزام السمع
وهو أبغض الأشياء الى نفسه • يحب الكلام لحد العبادة ،
ولديه معلومات لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها للسيارات
والأثاث والزيوت والأمراض والسياسة والأفلام والبلاد والنكت

والتاريخ والجغرافيا والفلك والقانون والمصارف والدعارة •
طفل كبير فى الخامسة والثلاثين ، خفيف الروح ، دعاباته
أزهار منورة : ونوادره وشى بنمنم ، أما غضبه فأه لو انفجر
غضبه ، وما أسهل أن يثور غضبه • لشيء ولغير ما شيء ينفجر
غضبه ، وعند ذلك تزلزل الزلازل وتنفجر البراكين وتتطلق
الأعاصير ، فإذا لم يقابل بتحد هداً وسكن وتراخى وتراجع
فاعتذر وقدم السجادة أو أمر بالقهوة • تتأقش مرة مع أحد
الموظفين فعائده الرجل حتى أثاره ، وأراد أن يفحمه فاستشهد
بنادرة من التاريخ الاسلامى — وعبد الرحمن يجهل التراث
جهلاً تاماً — فقال :

— دخل بدوى على عبد الملك بن مروان فقال ••

ولكن عبد الرحمن شعبان أنتتر قائماً كعمود السوارى
وصاح وهو ينتفض غضباً :

— عبد الملك بن مروان ! ، من هو عبد الملك بن مروان ؟ ••
تستشهد لى بحيوان يا حيوان ، ملعون أبوك أنت وعبد الملك
ابن مروان ••

وهجم عليه كالوحش ففر الرجل من الادارة كالنحلة •
ولكنه لم يقدم فيه شكوى ، حتى طنطاوى اسماعيل رئيس
السكرتارية كان يتجاهل ذلك التمرد الصارخ على أصول
الوظيفة ، وكان بفوك :

— انه أحمق ولكنه أنظف معدن فى هذه الوزارة •
وأدركت أن مبادئه غير مأمونة ، وأن الخوض معه فى

موضوع تعرفه ويجهله مغامرة جنونية • ولعل عباس فوزى كان أول من عرف كيف يداريه بمكره ولباقته ، ومع أن عبد الرحمن كان بحتقره فى باطنه الا أنه عاملة باحترام ومودة • وكان أبوه وزيراً للحربية ، أرسله الى فرنسا — باليكالوريا — ليدرس الطب فمضى يتنقل ما بين فرنسا وانجلترا عشرة أعوام دون جدوى ، مكث عاما أو عامين فى كلية الطب ، وعامين آخرين فى كلية العلوم ، كذلك الحقوق والآداب • ولكنه لم يثابر ولم يحصل على شهادة • ولما توفى والده رجع الى مصر فى الثلاثين ، يحمل فى رأسه دائرة معارف مضطربة غير متكاملة وخبرة عميقة بالانجليزية والفرنسية والنساء والقمار والحانات والمسارح والسينما وبيوت الدعارة ، كما رجع بزوجة لبنائية تقاربه فى العمر أو تماثله • ولم يترك أبوه له مالا ، وكانت أخته الكبرى متزوجة من سفير خارج القطر ، فعمل مترجما فى السفارة الفرنسية •

— ثم أعمر فى الوظيفة أكثر من عام ثم اضطرت الى تركها بسبب لكمة وجهتها الى الملحق الصحفى ١

واشتغل بالاذاعة — قبل تمصيرها — ثم اضطرت الى الاستقالة بعد مشاجرة عنيفة ، وعمل فى جريدة المقطم حتى وجه الى صاحبها كلمة نابية كاد يقدم من أجلها للمحاكمة فتركها ، وأخيراً التحق بخدمة الوزارة بعد نجاحه فى امتحان أعلن عنه فى الصحف • وكان اعتاد الحياة الدسمة المضيئة



على الطريقة الأوروبية فلم يف مرتبه بتحقيق مأربه ، فاستغل قدراته فى اللغتين هى الترجمة للصحف ودور النشر وروايات الجيب ، مكرسا جهده الضخم لرفاهية الحياة ولابنة وحيدة كان يعبدها عبادة • وأقام فى شقة فى شارع فؤاد الأول ، وأحاط جوه العائلى بصداقات أوروبية لأسر فرنسية وإيطالية وأحبانا انجليزية ، ليكفل لنفسه البيئة التى يعشقها بكل مشتياتها من أثاث جميل ومأكول طيب وشراب ممتع وصحبة راقية وأحاديث طاية رفيعة • وكان يقول بوجد :

— أوروبا روح الدنيا وأهلها ملائكة الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات ••

ومرة قال لى :

— أصاب أحيانا بذهول مرضى عندما أنظر حولى فأجد نفسى غريبا وسط نفر من الموظفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين المتملقين المنافقين ، الله يرحمك يا أبى ، لم بددت مالك فى القمار ؟ !

ولم يكن يوجد ما يدل على اسلامه الا شهادة الميلاد ، ولا يعرف من دينه الا اسم « محمد » ، ولم ألتس فيه اهتماما بقيمة من القيم وان كان شجاعا كريما محافظا على كرامته ، وكان مدخنا مجنوننا وسكيرا عربيدا ومقامرا متهورا وأكولا متوحشا وكنا نسير معا عاده عقب انصرافنا من الوزارة حتى محطة الترام الواقعة تحت مسكنه ، فلا يكف عن الكلام دقيقة واحدة

وأتابعه أنا بالسمع والبصر ، وكان ينتقد كل ما تقع عليه عيناه
ويقارنه بنظيره فى فرنسا أو انجلترا :

— أتعجبك هذه المحال والدكاكين ؟ • انها زنانات
سوقية •

— انظر الى قذارة الشوارع فى قلب المدينة ! ، سيأتى يوم
يطلب فيه الذباب بحقوق المواطن !

— ما رأيك فى هؤلاء الغلمان الحفاة فى شارع سليمان
باشا ؟ !

— انظر الى هذا المنظر الفريد ، الكارو والجمل والسيارة
فى قافلة واحدة وتقولون الاستقلال التام أو الموت الزؤام ؟ !

— أيعجبك حقا ذلك المقرئ المدعو على محمود ؟ • رجل
خزير منفر المنظر يزعم كالأبله ، قارن ذلك بقداس كاثوليكي
تسبح فى جوه الموسيقى الخالدة !

— صدقنى ان رجال السياسة الذين تعجب بهم لا يصلحون
موظفين مبتدئين فى سفارة أجنبية ••

— وملايين الفلاحين القذرين بأى منطق يستحقون
الحياة ؟ •• لماذا لا نستغنون عنهم بالآلات الزراعية الحديثة ؟ !

— أن خير ما تمخضت عنه الحضارة المصرية هو الحشيش
ومع ذلك فما أقبحه بالمقارنة بالويسكى !

— هل حقا تعجب هؤلاء الكتاب والأدباء ؟ •• صدقنى
أنهم أميون على المستوى العالمى ••

— اسمح لى أبول على جميع من تحبهم من زعماء وأدباء
ومطربين ..

— أتعرف ما هى أكبر نعمة أغدقت علينا ؟ .. هى
الاستعمار الأوروبى ، وسوف تحتفل الأجيال القادمة بذكراه
كما تحتفلون بمولد النبى ..

— لا. يغيظنى شىء كما يغيظنى ضربكم الأمثال بعدالة
عمر ودهاء معاوية وعسكرية خالد ، عمر شحاذ ومعاوية دجال
وخالد فتوة درجة ثالثة لم يجد من يؤدبه ..

— المرأة المصرية هى المخلوق الوحيد الذى يستحق التقدير ،
فهى لبؤة ، ويمكنها اذا منحت مزيدا من الحرية اسعاد هذا
الشعب الذى يستحق الإبادة !

— أليس الأفضل للإنسانية أن ينتشر الأوروبيون فى
الأرض وأن يبيدوا من عداهم من بنى آدم ؟ !

لم يكن يقرر ذلك عن حقد ولا عن رأى بالمعنى الحقيقى
لهذه الكلمة ، ولكن عن انفعال ، ووسط ضحكات بريئة ،
ولو صادف بعد ذلك شخصا يتعصب لأوروبا لانقلب بنفس
الحماس مدافعا عن الشرق ، فهو معارض بطبعه ، ان قلت حلوا
قال مرا وان قلت مرا قالوا حلوا ، مغتتما الفرص على
الحالين للكلام . ولم أجد عنده أصالة فى عواطفه الا ما تعلق
بكربمته ، فهو يعندها عبادة ، يروى أحداثها التافهة كأنها
ملاحم ويستشهد بكلامها الفارغ كأنه جوامع الحكم ، وينقل

الينا آراءها التي ينسبها اليها كذبا وادعاء — فيما مر بالوطن
من أحداث وحروب ، منوها بذكائها المبكر الذي يكبر سنها
بعشرات السنين • وكنت دائما أخاف أن يصطدم يوما بشخص
قوى ومؤذ مثل عدلى المؤذن أو شرارة النحال ولكن ضخامته
أسبغت عليه مهابة فرضت على كبار الموظفين احترامه ، وهو
من ناحية أخرى — بعد تجاربه المؤسفة فى السفارة الفرنسية
والاذاعة والمقطم — تجنب أصحاب النفوذ ما وسعه ذلك •
وكان يقول لى :

— لعن الله الأيام التي علمتنا احترام الأوغاد ، الله
يسامحك يا بنتى !

وقد دعوته الى الفيشاوى وعرفته ببعض الأصدقاء مثل
جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوى الفحام فأعجبه المكان
وأحب الأشخاص ، وفى جنازتى شعراوى وجعفر بكى كطفل •
وبالرغم من مودتنا الحميمة فاننى لم أسلم من غضبه ، فيوما
كنت أقرأ الجريدة فاطلعت على صفحة مخصصة لذكرى سلامة
حجازى ، ونقلنا عن كاتبها قلت للأستاذ عباس فوزى بسرور :

— هل تصدق أن فردى قال عن سلامة حجازى انه لو كان
ولد فى ايطاليا لما كان له — فردى — شأن ؟ !

واذا بالأستاذ عبد الرحمن يرمى بكتاب كان يقرأه وصاح
بى كبركان :

— ما هذا الكلام الفارغ ! • أتصدق أى كلام يتقوله
هؤلاء الأوباش فى الصحف ؟ • من هو سلامة حجازى ؟ •

ان أى منادى سيارات فرنسى أعذب منه صوتا ، ولكن هكذا
أنتم أيها المصريون ، لن تزالوا غارقين فى أوهام انكلمات حتى
تموتوا ، كوكب الشرق •• مطرب الملوك والأمراء •• سلطانه
الطرب •• عاهل التمثيل فى الشرق •• لو لم أكن مصرى
لتمنيت أن أكون مصرى ، ولم لا تتمنى أن تكون حمارا ، فيكون
لك نفع على الأقل ، تيلة تاخذكم أنتم وبلدكم !

وفى عام ١٩٥٠ زوج معبودته « كريمته » من موظف فى
البنك الأهلى • واحتفل بزواجها فى الأوبرج ، وسعد كما لم
يسعد من قبل فسدنا به • وبعد ذلك بعامين ، وعلى التحديد
فى صباح يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ دخل علينا معاون الوزارة وقال :
— البقية فى حياتكم فى الأستاذ عبد الرحمن شعبان !

وفزعنا كأنما نسمع عن الموت لأول مرة • كان حتى أمس
يتخذ مجلسه بيننا فى الإدارة ، وسرت معه حتى مسكنه فى
شوارع مكتظة بالمتظاهرين والمخربين وألسنة النيران تشتعل
هنا وهناك فى المحال العمومية والملاهى والسينمات • وعلمنا
فى أثناء النهار ونحن نشيع جنازته أنه كان ساهرا فى القرف
كلوب. مع بعض أصدقائه من الانجليز حين هاجم المتظاهرون
النادى فقتلوا من فيه ، وقتل الرجل فيمن قتل ، وانتهت حياته
العجيبة •

عبد الوهاب اسماعيل

انه اليوم أسطورة ، وكالأسطورة تختلف فيه التفاسير ، وبالرغم من أنني أم ألق منه ! لا معاملة كريمة أخوية الا أنني لم أرتح أبدا لسحته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادثين ، وقد عرفتة في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم في أثناء الحرب الأعظمى الثانية ، كان في الثلاثين من عمره ، يعمل مدرسا للغة العربية في إحدى المدارس الثانوية ، وينشر أحيانا فصولا في النقد في المجلات الأدبية أو قصائد من الشعر التقليدي . كان أزهريا ، لا علم له بلغة أجنبية ، ومع ذلك آثار اهتمامي واحترامي بقوة منطقه وهو يناقش أشخاصا من المعروفين بثقافتهم الواسعة واطلاعهم العميق على اللغات الأجنبية مثل الدكتور إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل . وامتاز بهدوء الأعصاب وأدب الحديث فما احتد مرة أو انفعك ولا حاد عن الموضوعية ، ولا بدا في مستوى دون مستوياتهم الرفيعة ، فكانه فد لهم بكل معنى الكلمة ، فاقتنعت بحدة ذكائه ومقدرته الجدلية واطلاعه الواسع رغم اعتماده الكلى على القرائث والكتب المترجمة ، ولم يداخلى شك في أنه أذكى من إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل جميعا . وحتى نقده

للكتب العصرية لم يتسم بالهزال أو السطحية بالقياس الى نقد المتخصصين من حملة المؤهلات الباريسية واللندنية ، وان كان ثمة فارق دقيق فلم يكن لينكشف الا لعين العارف المدقق ،

قال نى عنه يوما الدكتور ماهر عبد الكريم :

— انه شاب موهوب ومن المؤسف أنه لم يرسل فى بعثة •

وكان الدكتور ماهر عبد الكريم ممن يزنون أقوالهم بميزان دقيق • وبالرغم من أن عبد الوهاب اسماعيل لم يكن يتكلم فى الدين ، وبالرغم من تظاهره بالعصرية فى أفكاره وملبسه وأخذه بالأساليب الافرنجية فى الطعام وارتياح دور السينما ، الا أن تأثره بالدين وايمانه بل وتعصبه لم تخف على • أذكر أن كاتباً قبلياً شاباً أهداه كتاباً له يحوى مقالات فى النقد والاجتماع فحدثنى عنه ذات يوم فى مقهى الفيشاوى فقال :

— انه ذكى مطلع حساس وذو أصالة فى الأسلوب والتفكير •

فسألته ببراءة وكنت مغرماً بالكاتب :

— متى تكتب عنه ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— انتظر وليحظون انتظارك !

— ماذا تعنى ؟

فقال بحزم :

— لن أشتريك فى بناء قلم سيعمل غدا على قجريح تراثدا
الاسلامى بكافة السبل الملتوية •

فتساءلت بامتعاص :

— أفهم من ذلك أنك متعصب ؟

فقال باستهانة :

— لا تهددنى بالأكليشهات فانها لا تهزنى

— يؤسفنى موقفك •

— لا فائدة من مناقشة وفدى فى هذا الموضوع ، وقد
كنت وفديا ذات يوم ، ولكنى أصرحك بأنه لا ثقة لى فى
اتباع الأديان الأخرى !

وقد كان حقا وفديا ، ثم انشق على الوفد وراء الدكتور
أحمد ماهر وكان عظيم الاعجاب به ، ورقى فى عهد السعديين
الى وظيفة مفتش • وكم تخلى عنه حلمه بسبب مصرع
الدكتور أحمد ماهر ، كأنما أصيب بنفس الرصاصة التى أودت
بحياة الرجل ، وقال لى بحزن بالغ :

— ضاع أعظم رجل فى الوطن •

وكان يشكو صحته كلما سنحت مناسبة ، وبها يتعلل فى
افطار رمضان ولكنه لم يصرح بحقيقة مرضه لأحد ، كما أنه
لم يهتم شئ حياته بالنساء ولم يتزوج ، وعرف فى تلك الناحية
بالاستقامة الكاملة • وعلى جدية أخلاقه ، وحملاته الصادقة
على المنحرفين ، تكشف لى جانب منه لم أكن لأصدقه لو لم

أخبره بنفسى • ذلك أنه كان يوجد كاتب صاحب مجلة ومطبعة تصدر سلسلة شهرية من الكتب ، وكان عبد الوهاب يحتقره ويقول عنه :

— لولا مجلته لما وجد مجلة تقبل أن تنشر له كلمة •

وكم أدهشنى أن أطلع له مقالة فى الرسالة عن صاحب المجلة رفعه فيها الى السماء ! • حرت فى تفسير ذلك ، حتى علمت بأنه اتفق معه على نشر كتاب له فى سلسلته الشهرية نظير أجر ممتاز لم يظفر بمثله كاتب آخر ! • وتذكرت فى الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطى فأزعجنى جدا اكتشاف ذلك الجانب الانتهازى فى شخصيته ، وساورنى شك من ناحية صدقه وأمانته ، واستقر فى نفسى — رغم صداقتنا — نفور دائم منه • وظل يعمل مفتشا وكاتبا حتى ولى الوفد الحكم عام ١٩٥٠ ، فلم يرتح الى معاملة الوزير الوفدى له ، فقدم استقالته وتفرغ للعمل فى الصحافة — وعرف فى تلك الفترة بهجومه المتواصل على حكومة الوفد ، وفى نفس الوقت شرع يكتب كتباً عصرية عن الدين الإسلامى ، لاقت نجاحا منعدم النظير • وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو منغمس فى محاربة الوفد والدفاع عن الدين الإسلامى • وكان مر عامان على الأقل لم نلتق فيهما أبداً وانقطعت عني أخباره الخاصة • وبوما كنت فى زيارة للأستاذ سالم جبر فقال لى :

— الظاهر أن نجم عبد الوهاب اسماعيل سيلمع قريباً • •

فسألته باهتمام :

— ماذا تعنى ؟

— أصبح من المقربين •

— ككاتب سياسى أم ككاتب دينى ؟

— باعتباره من الاخوان المسلمين •

فهتفت بدعشة :

— الاخوان ؟ • • لكننى عرغته سعديا متطرفا •

فقال متهمكا :

— سبحان الذى يغير ولا يتغير !

وقابلته بعد ذلك بعام أو نحوه أمام بار الأنجلو فتصافحنا بحرارة ، وسرنا معا نتحدث حتى جاء ذكر الثورة فقال بتحفظ :

— ثورة مباركة ولكن من العسير أن تعرف ماذا يريدون • •

ولست فى حديثه مرارة لم أقف على سرها ولم يبح به •

كانت له قدرة على الاحتفاظ بأسراره ليست الا لقلة نادرة من

المصريين • وقلت له :

— بلغنى أنك انضمت الى الاخوان المسلمين ؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— أى مسلم عرضة لذلك !

— من المؤسف حقا أنك نذت النقد الأدبى •

فضحك قائلا :

— يا لها من تمنيات جاهلية !

وافترقنا وأنا أشعر بأننا لن نلتقى مستقبلا الا مصادفة

فى الشوارع • وعند أول صدام بين الثورة والافخوان قبض
عليه فيمن قبض عليهم من أعضاء الجماعة ، وقدم للمحاكمة
فحكم عليه بعشرة أعوام سجن • وغادر السجن عام ١٩٥٦
فرأبت أن أزوره مهنتًا ، فذهبت الى مسكنه بشارع خيرت •
والحق أنه لم يتغير كثيرًا ، شاب شعر رأسه ، كما يتوقع
لرجل فى السابع أو الثامن والخمسين من عمره ، وزاد وزنه
حتى خيل الى أن صحته تحسنت عما كانت عليه • وتبادلنا
الأسئلة عن الظروف والأحوال ، وكان يحافظ على رزاقته
المعهودة وبرودة أعصابه الفضة ، وتخاض دون مقدمات فى
المسائل العامة فأدنى بآرائه بكل ثقة ••

— يجب أن يحل القرآن مكان كافة القوانين المستوردة •

وقال عن المرأة :

— على المرأة أن تعود الى البيت ، لا بأس من أن تتعلم
ولكن لحساب البيت لا الوظيفة ، ولا بأس من أن تضمن لها
الدولة عماشًا فى حال الطلاق أو فقد العائل •

وقال بقوة :

— الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوروبية خبائث علينا
أن نجتثها من نفوسنا ••

وحمل على العلم حملة شعواء حتى ذهلت فسألته :

— حتى العلم ؟ !

— نعم ، لن نتميز به ، نحن مسبوقون فيه وسنظل

مُسَبَّوقِينَ مَهْمَا يَذُنَا ، لَا رِسَالَةَ عِلْمِيَّةَ لَنَا نَقْدُهَا لِلْعَالَمِ ،
وَلَكِنْ لَدِينَا رِسَالَةُ الْإِسْلَامِ وَعِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا رَأْسَ الْمَالِ
وَلَا الْمَادِيَةِ الْجَدَلِيَّةِ ..

اسْتَمَعْتُ إِلَيْهِ طَوِيلًا ضَاغِطًا عَلَى أَنْفَعَالَاتِي حَتَّى لَا أَهْلَ
بِوَأَجِبَ الْمَجَامِلَةَ نَمْ قَنَنْتُ لِلْإِنْصِرَافِ وَأَنَا أَسْأَلُهُ :
— مَاذَا عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ ؟

— هَلْ لَدَيْكَ اقْتِرَاحٌ ؟
— لَدَى اقْتِرَاحٍ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ جَاهِلِيًّا هُوَ أَنْ
تَعُودَ إِلَى النِّقْدِ الْأَدَبِيِّ !
فَقَالَ بِهَدْوٍ :

— تَلَقَّيْتُ دَعْوَةَ لِلْعَمَلِ فِي الْخَارِجِ •

— وَعَلَامَ عَوَلْتُ ؟

— أَنِّي أَفَكِّرُ ..

وَوَدَعْتَهُ وَانْصَرَفْتُ • وَبَعْدَ انْقِضَاءِ عَامٍ عَلَى الْمُقَابَلَةِ طَلَعَتْ
عَلَيْنَا الصُّحُفُ بِأَنْبَاءِ مَوَاطِنَةٍ جَدِيدَةٍ لِلْإِخْوَانِ ، وَلَمْ أَعْرِفْ
وَقْتُهَا شَيْئًا عَنْ مَصِيرِ عَبْدِ الْوَهَّابِ إِسْمَاعِيلِ الَّذِي رَجَحْتُ أَنَّهُ
غَادَرَ الْوَطَنَ لِلْعَمَلِ فِي الْخَارِجِ • غَيْرَ أَنَّ الصَّدِيقَ قَدَرَى رِزْقٍ
أَكْدَى لِي أَنَّهُ كَانَ ضَمَّنَ الْمَوَاطِنَةَ وَأَنَّهُ قَاوَمَ الْقُوَّةَ الَّتِي ذَهَبَتْ
لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ حَتَّى أَصِيبَ بِطَلْقَةٍ قَاتِلَةٍ فَسَقَطَ جَثَّةً هَامِدَةً •

عبدة سليمان

لعلها كانت أول فتاة تعين بوزارتنا ، ولكن مؤكد أنها كانت أول موظفة بإداره السكرتارية • عيّنت فى أيام الحرب العظمى الثانية ، نى نفس الشهر الذى تولى فيه عباس فوزى رئاسة السكرتارية • كانت فى الخامس والعشرين من عمرها ، بضعة ممتائة ، سمراء ، متوسطة الحال ، خفيفة الروح • وكانت تحمل شهادة البكالوريا ، ولم ترغب فى الوظيفة حتى توفى والدها • وقال عباس فوزى محذراً :

— كونوا جديرين بالزمالة من فضلكم !

وهمس لى عم صقر وهو يقدم الى القهوة :

— صاحبك من السيدة زينب !

فسأله :

— وماله ؟

— السيدة مأهولة بالطلبة ولذلك فكثيرات من بناتها • •

ورسم بيده حركة مثيرة للإشك • وعموما اشتدت العناية بالمظهر فى السكرتارية ، واسترقت الأعين النظر الى ركن الحجرة حيث جلست عبدة الى يمين الأستاذ عبد الرحمن

شعبان • وكان علينا أن ننتظر طويلا حتى تصير عبدة « عادة »
يومية لا تثير الأهواء ولا تلفت النظر • وتواترت أخبار تصور
سلوكها الخاص غي حتى السبدة بالاستهتار • وقال لى عم
صقير :

— لا تصدق أن فتاة « شريفة » تقبل أن تعمل وسط
الرجال •
فقلت له :

— ولكنها معذرة حقا وتصد عنها جميع الطامعين دون
استغلال للدعابة •
فقال باصرار :

— سياسة حلوة • • حفظا على كرامتها كموظفة ، ولتوقع
بالمغفل ابن الحلال !

ولاحظنا أن زميلا من الأرشيف أصبح يتردد على صديق
له فى السكرتارية على غير عادة ، وكان زميلا مشهورا رغم
حقارة وظيفته وبدائية تعليمه الذى لم يجاوز الابتدائية ، ولكنه
كان جميلا ، له مظهر الذوات واعتدادهم بأنفسهم ، وكان من
أسرة العادل — يدعى محمد العادل — فى الثلاثين من عمره •
وكان ابن شقيق باشا عميد الأسرة ، وزوج كريمته الغنية ،
ورغم فقره وضآلة مرتبه كان يرتدى أفخر البدل وينفق عن
سعة من مال زوجته ، وعرف أنه يطارد عبدة ، وأنه يزور
السكرتارية جريا وراء هدفه • ولم يتعرض له عباس فوزى
بأية ملاحظة لعلمه بصداقة عمه الباشا لوكيل الوزارة فتجاهله
على مضض ، ولكن الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم لم يبال

بذلك فمضى نحوه يوما ثم قبض على أعلى جاكنته ودفعه أمامه حتى باب الإدارة وهو يقول له :

— إذا رجعت مرة أخرى فسأكسر رأسك ••

ولكن عم صقر أخبرني أنه يطارد عيدة حتى مشارف السيدة وأنه يلح بجنون في التعرف بها • ووضح أن الفتاة رفضت تلبية النداء وأصرت على ذلك • رفضت بكل قوة أن تكون عشيقة وعاملته بخشونة • وأخذنا نناقش الموضوع همسا • فقال عباس فوزي :

— الولد فحل جميل ولا يقاوم ••

فقال عبد الرحمن شعبان :

— ولكنه حقير جاهل •

فقال له عباس فوزي :

— المرأة هي المرأة والرجل هو الرجل •

فقلت :

— من الطبيعي أن تبحث عن زوج فما معنى أن ترضى بدور العشيقة ••

— هذا هو المعقول ولكن الحب لا معقول ••

ولكن مضت الأيام وعيدة سليمان ترفض أن تستسلم • ذات يوم طالبت اجازة أسبوعا • ولم يهتم أحد بالطلب حتى جاءنا عم صقر وهو يقول :

— محمد العادل أخذ اجازة أسبوعا أيضا !

وتضاربت التخمينات ولكنها كانت مجرد تخمينات ، ومضى

الأسبوع ورجعت عبدة ولكننا رأينا فيها فتاة جديدة كأنما فقدت
فى صميم رءىها شيئاً ثميناً لا يعوض • انتظرنا أن تقول شيئاً
ولكنها عكفت على عملها فى صمت تكتنفها هالة حزن كأنما هى
راجعة من قرافة • ومال عبد الرحمن شعبان نحوها وسألها
برقة :

— مالك يا مدموازيل ؟

وبمجرد استئشعارها العطف انهمرت دموعها ! • واتجهت
إليها الأبصار ، ومضى عباس فوزى فوقف أمام مكتبها وهو
يسأل :

— مالك ؟ • نحن زملاء ، والانسان للانسان !

— لا شيء !

— لا نريد اكراهك على الكلام اذا كرهت ذلك • •
فقال بيأس :

— لن يخفى شىء !

— حسن فماذا يحزنك ؟

ترددت قليلا ثم قالت :

— أخذت الاجازة لأتزوج • •

— لا عيب فى ذلك ولا حزن •

— تزوجنا أنا ومحمد العادل •

— محمد العادل !

— نعم •

— سرا ؟ !

— قال لى انه يقامر بمستقبله ، وأنه اذا عرفت زوجته
أو عمه الباشا فسيقضى عليه الى الأبد ..

فسألها عباس فوزى بنبرة لم تخل من عتاب :

— وكيف رضيت أن تتزوجيه وأنت على علم بحاله ؟

فقال عبد الرحمن شعبان بغضب :

— تذكر أقوالك عن الحب ..

فتراجع الرجل قائلاً :

— حسن ، وماذا حدث بعد ذلك ؟

— سافرنا الى الاسكندرية فمكثنا أسبوعاً !

— ثم ماذا ؟

وهى تحاول تمالك أعصابها الباكية :

— طلقنى أمس !

— طلقك ! ؟

— نعم ..

— لم ؟

— قال انه اذا استمرت العلاقة فستعرف واذا عرفت

خسر كل شيء !

وهمس عم صقر فى أذنى :

— طريقة جديدة للعشق !

ونالت عبدة من العطف بقدر ما نالت من اللوم . وتطوع

كثيرون لمساعدتها فى اجراءات القضية الشرعية . ونما الخبر

الى الزوجة والباشا ، واستدعى وكيل الوزارة — بايعاز من

الباشا — عبدة فربخها . واتهمها باغواء الولد الأرعن وطالب
بالتنازل عن القضية في نظير أن يحفظ لها حقها ولكنها صارحت
بأنها حبلى ، وبذلك تعقدت الأمور أكثر . ووضعت طفلة وكانت
النفقة تقتطع لها من مرتب الشاب الصُّغِير ، والحق أن محمد
العادل لم يكن شبع تماما من عبدة ، وكانت هي من ناحيتها
تحبه ، وهي حقيقة لم تخف عن المجربين مثل عباس فوزى
وعبد الرحمن شعبان . وعادت العلاقة بينهما ، غير شرعية
هذه المرة ، وفي تكتم لم يدر به أحد منا ، حتى فوجئنا ذات
يوم بالوكيل يستدعي عبدة ومحمد ، ويهددهما بالنقل الى
الأقاليم اذا لم يقطعا علاقتهما « الآثمة » في الحال . وحدث
ذلك بحضور الباشا نفسه ، وترامت الأصوات الى السعاة
فالتقط عم صقر الخبر وأذاعه بطريقته السادية ، حتى اضطر
الأستاذ عبد الرحمن شعبان انى تذكيره بابنته الضائعة فغادر
الرجل الحجرة متقلص الوجه . ونقل محمد العادل بعد ذلك
الى وزارة الزراعة . وتزوجت عبدة من مقاول قبل أن تتربى
ابنتها فى بيته تحت شرط أن تقدم عبدة استقالتها وقد فعلت .
كان ذلك على عهد حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، ومر على
ذلك عشرون عاما حتى لقيت عبدة مصادفة فى ميدان التحرير .
تصافحنا بحرارة ، وكانت فى الخمسين وبدينة جدا ،
وسرنا معا وهى تسأل عن الزملاء القدامى فحكيت لها ما كان من
أمر عباس فوزى ، ونهاية عبد الرحمن شعبان وقد تأسفت

عليه بصدق ، وحتى عم صقر أخبرتها بسوء مآله ، أما هي
فأخبرتني بأن زوجها توفي من عامين ، وأنها أنجبت منه ثلاثة
ذكور في كليات الطب والزراعة والاقتصاد ، وأن ابنتها تزوجت
من ضابط ، ثم تساءلت :

— أتدرى ماذا حصل لأبيها ؟

ولكني كنت نسيته تماما فقالت :

— بعد تطبيق قانون الإصلاح الزراعي بعام واحد مات
الباشا ، ولم يبق لابنته إلا ما تستطيع أن تربي به أولادها
فامتعت عن إعطاء زوجها أى نقود فلم يستطع ممارسة الحياة
على المستوى الذى اعتاده فاقتلس وفصل من عمله .. وهو
يعيش الآن كالمشردين ، واضطر الى العمل فى الاسكندرية
منادى سيارات !

ثم سألتني ونحن نتوابع :

— خبرنى ماذا عن الموقف ، حرب أم صلح ؟
فبسطت راحتي فى عجز عن الجواب وافترقنا ..

عجلان ثابت

زاملنا في الجامعة عاما ونصف عام ، واتهم بسرقة طردوش
فافتضح أمره واضطر الى قطع دراسته • حدثني عنه في ذلك
الوقت الأستاذ عدلى المؤذن فقال :

— انه يعيش مع أم عجوز على معاش بسيط •
فقلت بأسف :

— لا أحد منا يستطيع معاونته ، وكان النجاح والتفوق

في ميثوره ••

— ولكنه كان قليل الأدب : ألا تذكر مناقشاته الحادة مع

الدكتور ابراهيم عقل ؟

فقلت بامتعاض :

— أنه أفضل في نظري من الدكتور ابراهيم عقل ••

وفي أثناء تزامنا اقتنعت بذكائه واجتهاده ووعيه ، وكان

ذا استعداد طيب لتعلم اللغات الأجنبية ، كما كان قارئاً ممتازاً •

وأذكر أنه ترجم — في تلك الفترة المبكرة من حياته — بعض

قصائد شيللى ونشرها في مجلة المعرفة • وكان يقول لى :

— لا تحترم طالبا غير مهتم بالسياسة ، ولا تحترم مهتما

بالسياسة ان لم يكن وفديا ، ولا تحترم وفديا ان لم يكن

فقيراً ••

فقلت له :

— ولكن سعد زغلول لم يكن فقيراً !! ..

— أما مصطفى النحاس فزعيم فقير !

— هل تعني أن مصطفى النحاس خير من سعد زغلول ؟

— كان سعد زغلول عبقرى أما مصطفى النحاس فارادة

نقية .

ولم يستطع — بعد انفصاله عن الجامعة — أن يجد وظيفة ، فالوظيفة كانت مطلبا عسيرا لمن لا وساطة له ، ولكن أحد أعضاء الوفد استطاع أن يلحقه بدار صحفية محايدة مترجما بأجر زهيد . وافترقنا نحواً من عشرة أعوام ، وتقابلنا بعد ذلك مصادفة في مقهى الفيشاوى . ورجبنا بالمصادفة واعتبرناها سعيدة وسألته عن حاله فقال :

— ما زلت مترجما صحفيا وما زال الأجر زهيدا !

وضحك وكانت روحه المعنوية مرتفعة وقال :

— ولكنى متزوج ..

— أنت مغامر !

— انه الحب ، عليه اللعنة ! ..

ودعاني الى مسكنه بخان الخليلي فتعرفت بزوجته ، وكانت فتاة حسناء ، على قدر متوسط من التعليم ، ولاحظت أنها متفانية في الحب وذات ارادة صلبة في مواجهة حياتها المتقشفة . ودار الحديث عن الحرب والسياسة ، فقال :

.. لم أعد وفديا كما كنت ..

فدهشت ، ولكنه صارحني بأنه « شيوعي » ، وراح يؤكد لى أن الشيوعية حل لمشكلات العالم ، ثم وهو يضحك :

.. وحل لمشكلتي أيضا ..

. فضحكت زوجته وقالت :

.. وهذا هو الأهم !

ومضى يشرح الشيوعية باعتبارها نظرية علمية ولكنني شعرت بأنها حلت في نفسه محل العقيدة الدينية . وفي أعقاب الحرب فصل من الدار الصحفية بإيعاز من الداخلية في ظل الحكم الرجعي الذي سيطر على البلاد بعد اقالة الحكومة الوفدية . وتخرج مركزه ، حتى سكنه المتواضع أصبح مهددا بالطرد منه لعجزه عن دفع الإيجار . وكنت أزوره ، وأقدم له أحيانا مساعدات لا تغني ، ثم تبين لى أن مسكنه يتحول الى شيء جديد غريب ، إلى ملتقى لبعض أهل البلد من اغنياء الحرب ، حيث تدور الجوزة . وتجلس زوجته بينهم كربة الاستقبال والبيت ! . وآثرت - تفاديا للاحراج - أن تقتصر مقابلاتنا على المقهى ، وأخذ يبدو لى مكشوف الوجه مستهترا ، وماجنا عابثا ، ورغم ذلك كله فاه عقيدته لم تتخلخل ، ولم يتسلل اليها الفساد ، وبقيت جوهرة مدفونة في العفن ولكن محتفظة بقيمتها . وفي عام ١٩٥٠ رجع الى عمله بالدار

اصحفية ولكنه لم يغير أسلوبه فى الحياة ، لزهادة المرتب
من جهة ولفقدان الثقة من ناحية أخرى • ولقيت زوجته بعد
انقطاع دارين فهاهى أن ارى غانية متبرجة ذكرتى بالمحترفات
فتقطع قلبى وحزنت حزنا لا حد له • ولعله لاحظ انقباضى
اذ قال :

— مهما يكن من أمرنا فتمة جانب فىنا يستطيع أن يصنع
المعجزات ، وهو الذى خلق الله ا

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أمكن بعض زملائه أن يهيئوا
له عملا أرقى ، فتحسنت أحواله ، بل وغير مسكنه فانتقل الى
شقة فى عمارة بميدان الجيزة . رمزا لعزمه على تغيير أسلوبه
فى الحياة ، وممارسة حياة محترمة • وبسبب نشاطه العقائدى
اعتقل أعواما حتى اضطرت زوجته الى اللجوء الى حماية
أحد زبائن بيتها القديم • ولما خرج من المعتقل خرج متعبا
متقززا • استعاد عمله ودخله ولكنه لم يستطيع استنقاذ
زوجته • قال :

— أدمنت الأفيون •••

وهز رأسه فى رثاء وقال :

— انى أحبها ، وسأحبها الى الأبد ، ولكنها لم تعد قادرة
على إعطاء الحب ا
ثم بغضب :

— انى أحمل على الفساد بصدق أيان أجده ، ولا يخيفنى
أن يشهرّ بى أحد •••
وقدّس علاقته بها ، متفانيا فى الإخلاص لها والتسامح

معها ، فهيأ لها الحياة الطيبة ولم يسمح لنفسه بمحاسبتها
على تصرف ، تواجدت أم غابت ، استقامت أم استهترت •
وزحف عليه المعجز قبل الأوان فلم يبق له من مسرات الدنيا
الا العمل والحديث والتسامح اللانهائي مع زوجته • وبالرغم
من آلامه وحرمانه وتدهور زوجته المحبوبة فقد بلغ في تلك
الفترة غاية نضجه وأعطى أطيب ثماره ، فتتابعت مقالاته
السياسية والاجتماعية متسمة بالطلاوة والعمق ، واني لأعد
كتابته عن الفكر العربي التقدمي من أمتع الكتب المعاصرة وأقواها
إيحاء وتفاوتاً ، كما أعد وجهه الشعبي ، وتناقضات حياته
الشخصية ، ومتاعبه الجسمانية ، وحدة ذهنه وصفائه ، مثالا
لعصر مضطرب جياش بعوامل هدم وبناء ، وتفكك وتجمع •
ويأس وأمل • ولشد ما تأملت عندما لم أجد من أستاذي
الدكتور ماهر عبد الكريم استعداداً للترحيب به في صالونه
فقال بهدوئه المعروف :

— يقال أنه شخص ••

وابتسم ابتسامة استغنى بها عند تسجيل وصف لا يرتاح
إليه ذوقه الرفيع ! • وعلمت أن الذي وشى به عنده هو جاد
أبو العلا ، ذلك الشخص الذي لا وجود له في الواقع ! •

عدلى بركات

له فى الـذهـن صـورة قـديـمة ، كـالـعبـاسـيـة القـديـمة بحـقـولـها وسـكـونـها الأبدى ، عـنـدما كان يـتـهادى به الـحـنـطـور من العـبـاسـيـة الشـرقـيـة الـى المـدرـسة ، فـيـغادره وهو يـسـير — رـغم حـدائـة سنـه — فى عـظـمة خـيـاليـة تـنـاسب ولاة العـرـش ، ويـمر بـنا دـون أن يـلقـى نـظـرة عـلى أـحد ، وحيـدا . بلا صـاحـب الا فـيـما نـدر ، ونـتـابعـه بـسـخـريـة تخـفى تـحتـها اعـجابـا وجـسـدا • وكان آل بـركـات — كـآل الكـاتـب — من أرسـتـقـراطـيـة العـبـاسـيـة الشـرقـيـة المـقيـمين فى القـلاع • وكـانـت أم عـدلى تـركـيـة وكان الأب فـلاحـا مـصـريا غـنيا ، فأنـجـبا غـلامـين عـدلى وأخـا أكـبر • وماتت الأم وعـدلى فى الثـانيـة عـشـرة ، فتـزوـج الأب بـعد عام من وفـاتـها بـسيـدة مـصـريـة • وقـيل لى ان وفـاة أمـه رـسـبت الحـزن فى أعـماق روـحه • كما أن حـلول أخـرى مـحلـها قـضى عـلى توازنه مـدى العـمر • تلك أحـزان يـمـكن تخـيلـها فـحسـب أما تخـليـلـها فلا سـبيل اليـه ، وبـخـاصـة . وأن عـدلى لم يـكن يـذكر سـيرة أمـه أـمام أـحد ، ولا يـسـمـح لأـحد . بالتـسلـل الى ذلـك التـاريـخ القـديـم ، وبـالرغم من أننى عـرفـته فى تـدهـوره ، وهو لا يـعـتـرف لـشـيء باحـترام أو يعـفـيه من سـخـريـته ، فـانـه كان من المـسـلم به بـيـننا أن أمـه بـسر مـغـلق مـقـدس .

لا يجوز مسه أو الحومان حوله أو مجرد التفكير فى الاقتراب منه • وكنا فى صباننا نراه كثيرا ، فى المدرسة ، فى حديقة القصر ، ولكن لم تنشأ بيننا وبينه أى معرفة أو حتى ميل الى ذلك • ومرة وكنا عائدين من ملعب الكرة فى الصحراء وجدناه واقفا أمام قصره فقرر خليل زكى أن يتحرش به فوقف أمامه وسأله بوقاحة :

— هل تعرف أين تقع دكان عم فلقوس ببيع المدمس ؟
فتراجع الى داخل القصر دون أن ينبس ومضينا ونحن نكتم الضحك ونلعن خليل ولكن اجتاحتنا سرور لا شك فيه •
وطالما كان خليل يقول :
— يا ما نفسى أطبق فى زمارة رقبتة !

ودخلنا الجامعة فى عام واحد فزامل رضا حمادة فى كلية الحقوق ، وعارف رضا بينى وبينه ونحن نشاهد مباراة كرة حامية بين النادى الأهلى والمختلط • قلت له :
— نحن أبناء حى واحد منذ قديم ومع ذلك لم نتعارف الا اليوم •

فابتسم قائلا فى اقتصاب :

— نعم •

وتمعنته عن قرب فاذا به رغم الأناقة والعظمة المطبوعة يشبه أباه الفلاج لحد التماثل ، ولم يرث عن الأم التركية شيئا ظاهرا ينتفع به ! • وأدركت من أول وهلة أنه متعب ، وأنه يحتاج الى سياسة خاصة فى معاملته كي يمنح ثقته

وصداقته ، وأنه يحتقر كل شيء فى الوجود ، وأن كلمة
« مضحك » اكليشيه لاصق بلسانه يصف به أى شخص أو أى
فعل مهما يكن رأى المتحدث فيه ، فأستاذ المدنى « دكتور
مضحك » ، ومصطفى النحاس « زعيم مضحك » ، وقرار الوفد
بإعلان المقاطعة « إعلان مضحك » ، وقواعد الاسلام « قواعد
مضحكة » حتى سأله مرة :

— من يستحق احترامك من الناس ؟

فأجاب وهو يضحك :

— الجميل الشرير !

ثم وهو يواصل الضحك :

— يقال ان اسماعيل صدقى كان كذلك فى شبابه ..
فقلت :

— ولكنك تحترم والدك بلا شك ؟

فبصق على الأرض بثلقاتية ووحشية وقال :

— اللعنة عليه وعلى جميع الحشرات !

وعرفت ما لم أكن أعرف من مقتله لأبيه • وحدثني موسيقار
من حيوانه عن تلك العلاقة الغريبة فقال أنه — عدلى — لم
يعد يخفى كراهيته لأبيه منذ زمن بعيد ، وأن الباشا يداريه
مسلمًا أمره الله • وسألت عن السبب فقال :

— لا يدري أحد شيئًا على سبيل اليقين ، وعدلى نفسه
لا يحب أن يفشي ذلك الجانب من أسراره ، ولكن المظنون أن
مرجع هذه الكراهية إلى زواج أبيه من امرأة أخرى بعد وفاة
أمه ..

ولما توثقت العلاقة بيننا سألته عما يدعوهُ الى مقت أبيه
واحتقاره فحدجنى بنظرة قاسية وقال :
— ألا يكفى لذلك أن يورثنى سحنته ؟ !
فقلت :

— أنت فلاح جميل !

فعبس قائلاً :

— لو نافقتنى مرة ثانية فسأمقتك أكثر منه .

ولكى يبتعد عن مجال أبيه ويتجنب رؤيته ما أمكن أقام
فى مبنى مستقل بحديقة القصر كان يستعمل كمضيعة ، وربما
مر الشهر والشهران فلا تقع عينا أحدهما على الآخر . وفى
آخر عهده بكلية الحقوق انتقى من الزملاء صحبة قليلة عرفت
باستهتارها الأخلاقى ، وجعل منها خاصة أصدقائه ، وبهم
خرج من عزلته فعرف مواطن اللهو ومقهى الفيشاوى ، وانقلب
مقامه المستقل فى الحديقة الى حانة وغرزة ! . ولا شك أن
الباشا فطن الى دبيب الحركة الجديدة المريبة ولكنه لم يستطع
أن يتعرض لها ايثاراً للسلامة . وقال لى يوما :

— عليك بصحبة الأشرار فبفضلهم تعرف نفسك . .

ولم أعرف ما يعنيه تماماً ألا فيما بعد نسبيا ، عندما تبين
لى أنه بقدر ما يحب مصاحبة الحسان فإنه لا يستجيب لهن ،
وأنه لا يستجيب الا للمومسات ذوات السحن الوحشية .
وأتم دراسته عام ١٩٣٨ بعد سقوط أربع مرات ، وسعى
الباشا الى تعيينه فى النيابة العمومية بنفوذه ، ولكن لم يكن

يقبل أحد فى وظائف النيابة الا بعد تحريات ، وقد كشفت التحريات عن الغرزة المستقرة فى مسكنه المستقل فرفض الطلب وأبلغ والده بالحقيقة ! • وفاتحه أبوه بالأمر مقال باستهانة :

— النيابة العمومية وظيفة مضحكة !

فغضب الرجل وغضب الابن وسعى الابن الآخر بينهما حتى هدأت النفوس • واتفق على أن يفتح الباشا له مكتب حمامة فى مقامه المستقل على أن يجعل سهراته الخاصة فى الخارج • وأعد فى احدى الحجرتين اللتين يتكون منهما المبنى مكتب ، ومكتبة قانونية ، وألصقت على مدخل السراى لافتة باسم المحامى الجديد • ولم ينفذ الاتفاق الا أياما معدودات ثم رجعت ريمة لعادتها القديمة ، فعاد الأصدقاء ودارت الجوزة ، وكان الحشيش قد أسره تماما • ولم يقنع الأصدقاء بذلك فكانوا يجيئون ببعض المومسات باعتبارهن عميلات للمحامى الجديد ، فتطورت الغرزة الى ماخور ، وسكرت احداهن ذات ليلة حتى فقدت وعيها فتجردت من ثيابها وراحت ترقص فى الحديقة تحت ضوء القمر ••

ولأول مرة يسمح الباشا لغضبه بالانفجار ، انهال على الابن سبا ولعنا ، هرد له الابن السبة سبتين واللعنة لعنتين ، وصفعه الأب فهدهه الابن بالصفع والركن ، وعند ذلك طرده

من قصره وحذره من أن يريه وجهه مرة أخرى • وغادر عدلى
المقصر مطروداً في أوائل أيام الحرب العظمى الثانية ، وليس
معه إلا ملابسه • وراح يبيت بالتناوب في بيوت أصدقائه
ويفكرون في المستقبل • اقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أى
وظيفة كتابية حتى يجيء الفرج ، ولكنه قال بكبرياء :
— انى أفضل الصلابة ••

وعرض عليه رضا حمادة أن يبدأ من جديد في مكتبه ولكنه
قال له :

— نسيت القانون ولا همة لى الآن على استرجاعه •
فقال الرجل ببراعة :

— قم بأى عمل فى المكتب !
فأدرك أنه يعرض عليه أن يعمل كاتباً بمكتبه فصاح
غاضباً :

— انى أحقرك وأحتقر من خلقك !

واختار الصلابة فكان يقترض مبالغ متفاوتة بضمان موت
أبيه الذى جاوز السبعين من عمره وكان يتبلغ بالسندوتش
ويسكت صراخ بطنه بالفول السودانى ، وينتقل في الليل من
غرفة الى غرفة فيدخل بالمجان ، ثم يقضى الليل في بيت صديق
أو في مقصورة من مقاصير مقهى الفيشاوى • وساء مظهره ،
وهنت صحته ، ورثت ثيابه ، وصار أشبه بالمتشردين ، ولكن
بكبرياءه كان يتعقد ويتضخم حتى انقلب وقاحة وسفاهة ••

بوكننا مجتمعين مرة بالفيشاوى فاذا به يضحك عاليا ويستغرق
فى الضحك ، فسألتة عما يضحكه ، فقال :

— تصور أن أموت أنا قبل « الكلب » .. ؟

فقلت باسم .

— هذا محتمل ومتوقع أيضا !

فلعننى وقال :

— انى على استعداد لأن أعبد الله اذا أخذ روحه ..

ثم مستدركا :

— على أى حال ليس لى ما أشكوه ما دمت أجد الحوزة

فى آخر النهار !

وكان أيضا قابعا فى الفبشاوى — ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ —

— عندما جاءه رسول من شقيقه ينعى اليه والده ويدعوه الى

القبر . كان مسطولا فلم يفهم من المرة الأولى ، ولما أخذت

الحقيقة تلاطمه وتوقظه وقف مترنحا ، فحلق فى الجدار

المطعم بالأرابيسك ، وسرح فى غيابات لا يديرها أحد ، ثم

غادر المكان دون أن يلقي تحية وراءه . واستقبله أخوه —

رئيس محكمة كان — وقال له :

— البقية فى حياتك .

ومضى به الى الداخل وهو يقول :

— ما كان كان ، وهذه ساعة مقدسة تنسى فيها الأحقاد ..

حتى أوصله الى مخدع الباشا فأوسع له وهو يقول :

— ادخل فودع أباك ليغفر الله له ولك ولنا جميعا •

وتسلل عدلى الى الحجرة — كما حكى لنا فيما بعد —
ووقف وحده عند رأس الجثمان المسجى ، ثم أزاح الغطاء
عنه قليلا حتى انكشف وجهه المطوق ، ونظر اليه مليا ، ثم غمغم :

— الى الجحيم يا قذر !

وأكثر من صوت قال :

— مستحيل • • مستحيل • •

فنظر اليهم باحتقار لضعفهم وتمتم :

— كم وددت أن أمثك بجثته !

بعضنا لم يصدق كلمة مما حكى والبعض آمن بكل حرف
وخمن أنه ربما فعل أكثر مما قال • على أى حال ابتسمت
له الدنيا يعد عبوس • وقد ترك الباشا أملاكا منها أرض وعقار
وأموال سائلة ، وكان نصيب عدلى عمارتين يدران دخلا صافيا
قدره ألف جنيه فى الشهر ، بالإضافة الى أربعين ألفا من
الجنيهات • وقال كثيرون من أصدقائه :

— لقد كانت أعوام التشرذ درسا أريد به أن يعرف قيمة
القرش فيحسن معاملته !

والتف حوله أصدقاؤه عقب انفضاض المآثم واستبقوا
الى تخطيط صورة للمستقبل السعيد :

— من حسن الحظ أن مطالبك فى الحياة معقولة وأنه
بوسعك أن تعيش ملكا حتى آخر يوم فى حياتك •

— وفّر لنفسك مسكنا جميلا ، واعرض نفسك على طبيب
كبير ، واحمد ربك أنك لم تغو القمار ، الطعام أمره هين ،
ومزاجك فى النسوان متواضع ، ولم نسمع عن أن الحشيش
خرب بيت أحد ، فمبارك عليك رزقك الحلال !

وصاح بهم :

— كفوا عن النصائح عليكم اللعنة !

كان يمقت النصح ويعده تعاليا مرذولا ولكنه بدا ثملا
بالفرح والسعادة ، وبات ليلتها فى فندق سميراميس ، وأقام به
حتى يدبر أموره ، ونشط نشاطا غير مبعهود فاستأجر شقة
على النيل بخمسين جنيها شهريا • ومضى يؤثثها بأفخر الأثاث ،
وقد ذهنا — نحن البسطاء — عندما علمنا بأن تأثيثها تكلف
عشرين ألفا من الجنيهات ، وأعجب ما أذهلنا فيها كان حجرة
شرقية ، أقام بها بارا أمريكيا وغرزة موهت أدواتها بالذهب
والفضة ، كما ابتاع سيارة كاديلاك ، وكان مجموع ما أنفقه على
ذلك — بالاضافة الى الملابس — ثلاثين ألفا •
كان مبلغا خياليا ، ولكن اعتذر عن ضخامته أصدقاؤه بما عاناه
من حرمان طويل ، وقالوا أيضا ان التأسيس عادة يتكلف
أضعاف أضعاف ما تتكلفه الحياة اليومية • ولكن الحجرة
الشرقية شهدت سهرات ليلية جمعت الأصدقاء والطفيليين
وغانيات الملاحى الليلية وبعض الفنانين والفنانات ، وجرت
الخمير وانتشر الدخان الأزرق وجيء بموائد الطعام من نادى

السيارات ، وراح يخطر بين الضيوف رافلا في الحرير محاطا
بالاجلال والاكبار . وما لبث أن تطايرت العشر الآلاف جنيه
فلم يبق إلا دخل العمارتين ، وقال المتفائلون أن آن أوان
الانضباط وستسير الحياة سيرتها المترنة المعقولة ، ولكنه
كان اعتاد عادة الاسراف وتقمص روح ليالى ألف ليلة وليلة ،
وعلى حين كان ينفق بسخاء على غانيات الملامى كان يمارس
العشق الحقيقى مع بنات الهوى المتواضعات ، ومع بياعة
فول سودانى فلاحه من المترددات على مقهى الفيشاوى ،
ولذلك لم يوفق الى التوازن أبدا ، واضطر الى بيع إحدى
العمارتين رغم توصلات الأصدقاء ، ثم ألحق بها الأخرى ،
وتجلى فى أثناء ذلك سعيدا مجنونا فوق الحذر والماضى
والمستقبل . وما جاء عام ١٩٥٠ حتى كان قد باع شقيقته ورجع
للاقامة فى فندق سميراميس ، ثم باع السيارة ، وبدأ المستقبل
واضح المعالم . وأذكر أننى تدارسنت حاله مع الصديق رضا
حمادة فقلت له :

— أهو مجنون ؟

فأجاب :

— لا يخلو من جنون .

— انه لا يشعر بالغد .

— أو أنه مستغرق فى لحظته الراهنة .

— أكاد — وسط همومنا التى تثقلنا — أحسده !

فضحك عاليا ، وقال :

— على الحياة أن تكون جدا أو فلتذهب إلى الشيطان !
وعندما نفذ حسابه غادر سميراميس • وأجه الحياة مرة
أخرى وهو لا يملك مليما ولا أمل له من وراء وفاة أحد • ولم
يكن بلا خطة • شرب زجاجتى ويسكى • وبلبع ربع أوقية
حشيش وهام على وجهه • وعشر عليه صباح اليوم التالى جثة
هامدة على شاطئ النيل •

عزى شاكى

تعرفت به فى صالون الدكتور ماهر عبد الكرىم عام ١٩٦٠ ، وقد قلت له من فوزى :

— أذكر أنى رأيتك فى زيارة للأستاذ عباس فوزى فى أثناء الحرب العظمى الثانية ••
فقال :

— لم أقابله من مدة طويلة ، وبالمناسبة كيف تفسر تحوله الى تأليف الكتب الدينية ، أكان عن عقيدة حقا ؟
فأجبت بحذر :

— أنت تعلم أنه كان دائما من المهتمين بالقرآن !
وكان عزى شاكى يوم تعرفت به فى الأربعين ، وقد جذبنى بذكائه وثقافته وصراحته ، وأشعرنى تماما بأنه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجد ، ويلتمسون السبل الى الأمل • وكان دكتور فى التاريخ من فرنسا ، ومتزوجا من مدرسة دكتورة فى العلوم • وكان الأستاذ سالم جبر يعرفه ، وقال لى عنه :

— انه كان تلميذا وفديا ولكنه اهتم من بادية الأمر بالمشكلات الاجتماعية ، ويعترف بأن قلمى كان له الأثر الأول فى توجيهه ••

والا حدثت عزمى شاكر فى ذلك قال لى :

— لم تكن وفديتى قوية كالحال فى جيلكم ، وتخلصت منها تماما قبيل الثورة ، ولكنى بقيت على صلة حميمة بالجناح الوفدى اليسارى ، وعددت منذ ذلك الوقت من الشيوعيين وعرفت بذلك فى أوساطهم ••
وقال لى أيضا :

— ولما قامت ثورة يوليو استقبلتها بترحاب وحذر معا ، أعجبت بالغائها للنظام الملكى وبتحقيقها للجلء ، ولم أعجب كثيرا باصلاحها الزراعى ، وسرعان ما اعتبرتها انقلابا قصد به الاصلاح وتفادى الثورة الحقيقية ••

وبسبب موقفه فصل من هيئة التدريس الجامعية ، ثم اعتقل أعواما ، ثم أفرج عنه فعمل فى الصحافة • وعكف على الكتابة فى الموضوعات التى تتيح له التعبير باخلاص عن آرائه فأثر الكتابة فى الشئون الخارجية أو التاريخية أحيانا • وعقب صدور قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية تغير موقفه تغيرا ذاتيا وجذريا وعن اخلاص حقيقى • كان قد انضم الى أصدقائنا ، وكان يجتمع بنا فى مكتب سالم جبر وصالون ماهر عبد الكريم • وذات يوم قال لى :

— الثورة هى أنسب حركة تاريخية لوطننا فى ظرفه الراهن •

فقلت له :

— اذن غيرت رأيك ؟

— أجل ، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين ، وأن نؤيدها بكل قوانا .

وآمنت بصدقه ، ولم أجد ما يدعو الى التشكيك فيه ،
ثم اننى من المؤمنن باخلاصه • ومن يومها وهو دائب على
تأييد الثورة بقلبه وقلمه ، فى سره وعلايته ، ولم يفهم
موقفه على حقيقته فى أوساط زملائه •

وأذكر أن عجلان ثابت قال لى عنه :
— انه وغد لا أكثر ولا أقل ، ومهما خطر فى لباس
قديس !

فقلت له :
— انى أعتقد باخلاصه ، لا يداخلى شك فى ذلك •
فقال ساخرا :

— ان أقواله تبرر ترددك ، هذا كل ما هنالك !
وسنحت فرصة لرجوعه الى الجامعة ولكنه آثر الجهاد
فى ميدان الصحافة • ومن المهم أن أسجل أنه لم يكن مؤيدا
أعمى أو متعاميا ، فلم تكن تخفى عنه الأخطاء التى ترتكب •
وكثيرا ما كان يردد :

— مما يؤسف له أن الثورة لم تعتمد على الثوريين
الحقيقيين ، فخلقت منهم أعداء حينا ، أو وضعتهم تحت
المراقبة حينا آخر •

وقال مرة بحزن شديد :
— ان الفساد ينتشر كالوباء ، لا نملك الا التحذير ، وحتى
ذلك لا يقيس لنا الا فيما ندر •

وثبت لى أنه من الشيوعيين المتجددين ، الذين يتطلعون
دائما الى الحرية ، الذين يعتقدون أن الحرية تعانى مأساة

مريرة ، ولكنه لم يهون أبدا من شأن النقلة التاريخية التي وثبها الوطن ، وكان يتعلق بالمستقبل المضيء كلما ألحت عليه عثرات الحاضر . ولما عرفتة بالدكتور صادق عبد الحميد لمس سريعا ما يقرب بينهما من وجهات النظر فتوثقت العلاقة بينهما . ولما قبض على الشيوعيين حزن حزنا عميقا ، وبساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير ، ولكنه قال :

— انه التعصب ، والايمان بالكتب أكثر من الواقع !
وكم اغتبط لدى الافراج عنهم ، واغتبط أكثر عندما علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعي ، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة ، وقال :

— ها هم يرجعون الى موقفى الذى اتهمت به عندهم !
فقال الدكتور صادق عبد الحميد :

— وفى ظروف مختلفة تماما !

وتولوا مناصب رئيسية فى الدولة والصحافة تاركين اياه — نسبيا — فى القاع ، فلم نخل نفسه من امتعاض ، وأفلت منه ذلك القول مرة :

— أخشى أن يكتشف الكتاب يوما أن اللامعقول أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضا !

ولم يعد يجد فى الصحافة الراحة النفسية التى نعم بها طويلا ، فطلب العودة الى التدريس بالجامعة ، وسرعان ما حققت له رغبته . ولما وقعت الواقعة — هزيمة يونية ١٩٦٧ — تزلزل كيانه كالجميع ، وشدته اليها موجة النقد العاتية

فخطس فيها وقب ، ولكنه لم يكتب كلمة فى الموضوع بالرغم من أنه كان يكتب نظرات أسبوعية فى مجلة سياسية .
وأشهد بأنه كان من أوائل من ثابوا الى التوازن بل لعله كان أولهم ، وفى أكتوبر من السنة نفسها نشر مقاله المشهور الذى حلك به الهزيمة ، فاعتبرها درسا ، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس ، وأكد فى النهاية حقيقة ما زال يؤمن بها وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها ، لا سيناء ولا القدس ، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر . وفى الأعوام التى تلت ذلك عكف على تأليف كتابه الرائع « من الهزيمة نبدأ » ، وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة ، وقد شهدته وهو يعمل فى وحدته بالاتحاد الاشتراكى بهمة مذهلة ، كما استمعت اليه فى التلفزيون مرارا . وهو من القلة التى لم تصب بانقسام الشخصية ، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم فى مجالسة الشخصية . وأشادتى به كانت بلا شك من أسباب اغضب كثيرين ممن هزمتهم الأحداث مثل عجلان ثابت وسالم جبر . ولا أنسى كيف غضب الأستاذ سالم وأنا أنوه مرة بكتاب « من الهزيمة نبدأ » فقال ببرود :

— طالما احترمته ولكنه لم يعد الا المعادل الموضوعى
المدنى !

أما ثابت عجلان فسمى الكتاب « من الانتهازية نبداً » ،
وجعل يضحك ويقول :

— حسبنا أن يكون لنا من الكتاب جاد أبو العلا وعزمي
شاكر ، يا بلد الاحتفال بالأسراء والمعراج في عصر الهبوط
على سطح القمر !

ولكن الدكتور عزمي ما زال ثابتاً في إيمانه وصدقته
ونشاطه •

عزيزة عبده

عندما قدمنى لها الدكتور زهير كامل فى صالونه لم أكن أسمع باسمها لأول مرة ، لعلى اطلعت عليه فى مجلة أو جريدة . كانت بصحبة زوجها ، سمراء أنيقة القسمات خفيفة الروح ، قدرت عمرها بالثلاثين وقال جاد أبو العلا انها فى الأربعين ، وكان ذلك فى عام ١٩٦٠ ، وهى وزوجها — فى الخمسين — فنانان تشكيليان ، وقد دعيت الى مسكنهما فى مدينة الأوقاف فاطلعت على معرضهما الدائم ، ودهشت وأنا أنتقل بين لوحات واقعية فى زمن ندرت فيه الواقعية وطغى التجريد ، بل كانت واقعية ذات أهداف واضحة ، وقلت مداعبا :

— أخيرا أظفر بفن رجعى !

ولكنها قالت بلحتجاج عذب :

— أمامك فن تقدمى ، بل الفن التقدمى الوحيد !

ونشأت بينى وبينها مودة عميقة ، وكما أقنعتنى بفنها أقنعتنى بأمومتها الصادقة لابنين ، ولكنها بدت أقدر على الصداقة من زوجها الذى لا يحب الارتباط ، والذى يحضرنا بجسمه على حين يغيب بروحه عن الزمان والمكان . وكانت مثقفة جدا ، وتعتبر هى وزوجها من ذوى الميول اليسارية ،

ولكنها كانت تشعرنى دائما بقوتها بخلاف زوجها الرقيق ،
القشة التى تتلاعب بها أخف الرياح • واصطحبت معى
الأستاذ يوسف بدران محرر إحدى الصحف الفنية الى بيتهما
بناء على اقتراح منها ، فلاحظت أنهما تفاهما تفاهما روحيا
عجيبا وسريعا ، وأنهما تبادلآ احتراماً ومودة •

وذهبت يوما لزيارة يوسف بدران فى شققته بشارع قصر
العينى ، وجلسنا نتحدث وأنفاسه تتردد على وجهى معبقة
برائحة الخمر ، وما لبث أن فتح باب حجرة النوم فخرجت
منه عزيزة عنده مرتدية إحدى بيجاماته ! • دهشت وأرتبكت
ولكنى واجهت الموقف باللغة المناسبة فتظاهرت بعدم المبالاة •
وشجعتنى على موقفى بضحكاتها العذبة وحديثها الطبيعى ،
وكانت أنفاسها تنفث أيضا شذا الخمر •

وتكلمنا فى شئون كثيرة أما وجودها فى الشقة بالحال التى
وجدت عليها فمضى دون ضوء أو تفسير كأنه حقيقة مسلم
بها • وقال لى يوسف بدران فيما بعد :

— هكذا وقع الحب علينا من السماء !

فقلت له :

— أنت تحب الغزل !

— ولكنها كانت البادية • •

فرميته بنظرة شك فقال ..

— صدقنى ، وسيطرتها أقوى من جمالها • •



- تحبها ؟
- هي تحبني وفي ذلك ما يكفي •
- وأنت ؟
- هي كنز لا يستهان به ولكنها لا تعكس الأسلوب الذي أعشقه !
- وزوجها ؟
- لا أهمية له في الموضوع !
- والتقيت بها بعد ذلك في صالون جاد أبو العلا ، وكانت وحدها إذ كان زوجها في الاسكندرية ، فطلبت مني أن أوصلها إلى بيتها ، وسرنا معا في الطريق فإذا بها تقول :
- أنا حريصة على صداقتك •
- فقلت بصدق :
- وأنا حريص على صداقتك •
- ولا صداقة بلا احترام •
- واني أحترمك •
- أكاد أقرأ في نفسك تساؤلات مخيرة ••
- لست قليل الخبرة كما قد تظنين •
- ولكن قد يبدو لك زوجان شاذين لنظرتهم المغايرة للدنيا والحرية ؟
- لا أظن ••
- أنا لم ولن أمارس الخيانة !
- لا تسيئي الظن بفهمي يا عزيزتي ••
- وحدثتني عن ماضيها فقالت انها التحقت بالمدرسة الثانوية

وهى مزودة بارشادات أمها الطيبة المرددة لصوت الجيد السابق ، ولكنها سلمت نفسها لأول شاب بادلها الحب وهى قظنه سيفى بوعوده ، ثم كررت ذلك مرارا ، بدافع الثورة حينا وبدافع اللهو حينا آخر وبدافع الحب فى بعض الأحوال .

— وكنت أشعر بالخوف أحيانا ولكنى لم أشعر بالندم قط . .

وتوقفت عن السير متأثرة ثم قالت :

— أصبحت سيدة نفسى ، وتحديث العالم كله ، يكن قيمه التى لم أعد أومن بها . .

وواصلنا السير وهى تقول :

— وآمنت دائما بأننى نقية مثل الأوكسيجين .

ولما حم الافتراق شدت على يدى وهى تقول :

— نحن أمل المستقبل الحقيقى !

وبعد سنوات من تعارفنا اعتقل زوجها فيمن اعتقل من الشيوعيين ، فحزنت حزنا عميقا شاملا ، ونهضت بعبء الأسرة والابنين رغم اضطراب بطنها بجنين جديد . وتوارت عن الصالونات والمعارض ولم نجد وسيلة للاطمئنان عليها الا التليفون . وسألت يوسف بدران عنها فقال لى :

— علمى علمك . .

فسألته بدهشة :

— ألا تتقابلان كالعادة ؟

— قطعت العلاقة مذ اعتقل الرجل .

— خفا ؟

— انها غريبة الأطوار ولكنى غير آسف •
انقطعت عنها فلم أعد أتذكرها الا لمناسبة • وزرتها بعد
ذلك بسنوات — بعد الافراج عن زوجها — للتهنئة • كان
ابناها طالبين فى الجامعة وكانت ابنتها فى السادسة • ودب
النشاط فى حياتها مرة أخرى ولكنها لم تصل ما انقطع من
أسبابها بيوسف بدران الذى تزوج فى تلك الفترة من مهاجرة
فلسطينية مثقفة • ويوما كنت ويوسف فى زيارة للجبهة
الشرقية ضمن مجموعة من المواطنين ، وجاء ذكر عزيزة
فسألنى :

— رأيت ابنتها الصغيرة ؟

فقلت :

— نعم ، وهى جميلة جدا !

فهمس فى أذنى بهدوء :

— انها ابنتى !

فقلت بذهول :

— كلا !

— هى الحقيقة !

ثم قال :

— حاولت اقناع عزيزة باجهاض نفسها ولكنها رفضت •

— متى كان ذلك ؟

— فى الأيام السابقة مباشرة لاعتقال الرجل •

— ولم رفضت ؟

فصمت قليلا ثم قال :
— قالت لى لقد أحبيتك حبا لم أحبه أحدا من قبل
وسأحتفظ بثمرته !
— رغم أنها قاطعت الدنيا عقب اعتقاله !
— وزوجها هل يعلم ؟
— لا أدري ..
وتفكرت قليلا ثم قلت :
— الحق أن البنت تشبهك !
— أجل ، ولذلك أحرص على تجنب رؤيتها !
وبحلول عام ١٩٧٠ أحرزت عزيزة عبده أول نجاح حقيقى
فى حياتها الفنية بنجاح معرضها ، واعترف بها كفنانة مصرية
أصيلة ..

عشماوى جلال

يقع بيته فى شارعنا عند طرفه الشرقى المتصل بشارع
العباسية ، وهو بيت رمادى اللون ، مكون من طابقين ، وحديقة
شبه مهملة لم يبق من زرعها الا ياسمينه ونخلتان وشجرة
مانجو شامخة . وكلما مررت به ألقيت عليه نظرة مشحونة
بحب الاستطلاع والنفور كحال سكان شارعنا جميعا . وأنا
جديد طارئ على الحى ، وفى فترة التعارف والاستكشاف ،
أشار صديق — لعله رضا حمادة — الى البيت وسأل :

— أتعرف بيت من هذا ؟

فأجبت بالنفى طبعاً فقال :

— بيت عشماوى بك جلال !

وسرحت لحظة كالمذهول ثم هتفت :

— عشماوى بك جلال ؟ !

— بنفسه ودون غيره !

— قاتل الطلبة ؟

— قاتل الطلبة !

— وهل ترونه ؟

— لا يعلم أحد بمكانه ، لا هو ولا أهله ، يخافون جمعية

الكف السوداء ، ولكن هذا هو بيته ..

— أكانوا يقيمون هنا ؟

— نعم .

— ومتى هجروا البيت ؟

— مذ اشتهر الشيطان بقتل المتظاهرين . .

اقترن اسم عشاوى جلال بالرعب فى وجدانى منذ طفولتى . كان ضابطا كبيرا بنواء الفرسان بالجيش المصرى ، واستحق بجدارة أن يوصف بأنه العدو الأول لثورة ١٩١٩ فى الجيش المصرى . وجرت أخباره كحكايات الرعب بأنه يقتل بلا رحمة ، ويعذب ضحاياه فيربط الطلبة بجواده وينطلق به وضحيته يسحل خلفه مرتطما بالحصى والأسفلت حتى تفيض روحه . ولما تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ أحاله الى السجن . فتسلل عائدا الى بيته المهجور بشارعنا ، وقبعره لا يبرحه كأنه سجن . وددت كثيرا أن أراه ولو مرة ، أجلت البصر فى النوافذ والشرفات والحديقة ، لمحت زوجته وابنتيه ولكنى لم أراه أبدا . وكان اختفاؤه مثار الأحاديث ، فهو لا يغادر البيت ولا يظهر فى نافذة ولا يتمشى فى الحديقة ، وتعرض المناسبات فى الشارع فلا يزور ولا يجامل ، فكيف يمضى وقته ، وكيف يطيق سجنه ، قال جعفر خليل :

— انه ينفرد بنفسه لأنه لا صديق له .

وقال رضا حمادة :

— انه يخاف انتقام الشعب . .

وقال سرور عبد الياقى :

— يقال انه فقد البصر وعجز عن الحركة وأنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت الناس به •

وكان له ابن وابنتان ، فأرسل أبته الى انجلترا نياشه
دراسته الثانوية خوفا عليه من انتقام الطلبة فى القاهرة ،
« وسمعنا فيما بعد أنه التحق بكلية الطب فى لندن ثم عمل هناك
طبيبا وتزوج وتجنس بالجنسية الانجليزية • وأما البناتان
فكانتا تلعبان فى حديقة البيت ، وكانتا وسيمتين جذابتين
فعجبت كيف ينجب الوحش مثلها ، ولما حجا — عند الشباب —
كان عزفهما على البيان يتراعى اليها فى الشارع ، فعجبت مرة
أخرى كيف يعاشر الوحش الموسيقى والألحان ، وحوالى عام
١٩٣٥ تزوجتا من عريسين مجهولين ، ولم يعد فى البيت
الا الرجل وزوجته ، ثم شاع فى الحى أنه هجر بيته تاركا
زوجته وحدها ، وقيل — وأكدت زوجته ذلك — أنه أقام فى
الأسرة فى الحجرة المعدة لاستقبال زوار القبرة فى المواسم
وأنه أوصى بأن يدفن بعد موته دون جنازة أو احتفال ، وكانت
زوجته جميلة وطيبة ، وقد خرجت من عزلتها عقب هجرته الى
المدفن ، فزارت الجيران ، واكتسبت ودّهن بيسر ، وأصبح
لها مكانة مرموقة فى الحى ، وكل ما عرف عن الرجل الوحش
عد ذلك فمرجه الى رجال الجيل السابق من قدامى سكان
الحى ، قالوا عنه انه كان غلاما منظويا على نفسه ، ولكنه
كان مهذبا ، ورغم اجتهاده فشل فى دراسته حتى اضطر أبوه

— وكان ناظر وقف صغير — الى الحاقه بالمدرسة الحربية وهو ساقط ابتدائية ، متشفعا بصداقته لهربرت باشا ناظر المدرسة فى ذلك الوقت • ولدى تخرجه عمل فى السودان • فأثبت فى الخدمة كفاءة حازت تقدير الانجليز وخدمت سياستهم الموضوعه بحذق فى جباية الضرائب بقسوة لتنفيذ المواطن السودانى من الضابط المصرى ، ومن ثم نشأت بينه وبين الضباط الانجليز صداقة حميمة • وكان عثماوى جلال يعجب بالانجليز اعجابا فاق الحدود ، ويحبهم حبا عظيما ويثنيه بصداقتهم ويعتدها عزته الأولى فى الحياة • وكان يمضى اجازته السنوية فى انجلترا سائحا ومستطلعا حتى آمن بأن الانجليز هم سادة البشر وأنهم المبعوثون من العناية الالهية لتمدين البشر وخاصة المتأخرين منهم كالمصريين • وأخبرنى رضا حمادة أنه بسبب آرائه تلك احتدمت المناقشة بينه وبين والده الدكتور يوما حتى تبادلوا كلمات قاسية قطعت ما كان بينهما من علائق المودة والجيرة •

ولما قامت ثورة ١٩١٩ دعى الجيش المصرى لمساعدة جيش الاحتلال فى قمع الثورة والقضاء على الثوار ، ولكنه لم يحز الثقة أبدا ، وافتضح تعاطفه مع الثورة ، وولأوه لزعيمها ، بل وتصديه جهارا للدفاع عنه عندما تأمر أعداؤه على الغدر به • ولكن شذ عن ذلك عثماوى جلال باندفاعه الجنونى فى الهجوم على الثوار والغدر بهم وتعذيب زعمائهم من الطلبة حتى فاق

الانجليز أنفسهم فى عنفهم وقسوتهم ، وحتى احتل فى قلوبهم منزلة لم يحتلها مصرى من قبل • وأبغضه مواطنوه حتى الموت ، ولم يعطف عليه السلطان لعلمه بأن اخلاصه كان وقفا على سادته الانجليز لا عليه ، وبذلت محاولات لقتله لم تكلل بالنجاح ، وان أصابته شظية قنبلة وطنية اصابة سطحية فى ساقه • ولم يكثرث الرجل لموقف الشعب منه ، وتمادى فى ضلاله كأنما كان يؤدى فريضة دينية • وقالت زوجته ضمن أحاديثها عنه مع جاراتها ان والدها طالبه يوما بالاعتدال وأنه قال له :

— قم بواجبك بلا تورط فى الأعمال المتطرفة ••

فقال له :

— انى لا أقوم بواجبى كضابط فحسب ، ولكنى أدافع عن مبدأ ، فانى أعتقد أن استقلال مصر عن انجلترا سيودى بها الى الانحلال والفساد ، وأئنا اذا خرجنا من الامبراطورية خرجنا من الحضارة ! •

وتوفيت زوجته بالسكتة قبيك الحرب العظمى الثانية فدفنت على بعد أذرع من مقام الرجل الوحيد فى حجرة استقبال المدفن • ولحق بها فى العام الأول من الحرب بعد أن تمكن منه تليف الكبد ، ومن العجيب أن اسمه لم يمح من ذاكرة جيلنا حتى اليوم ، وأن الكثيرين ما زالوا يحفظون الأغنية الشعبية التى وضعت بقصد التشهير به •

عصام الحملاوى

كان بيه آل الحملاوى يطل على شارعنا بضلع كما يطل على بين الجنان بضلع آخر • وهو أكبر بيوت الشارع ، وذو حديقة واسعة تحيط به من جميع الجهات ، ويتراءى من فوق أسواره العالية رعوس النخيل والمانجو بكثرة مذهلة • وكان ربه عصام بك من الأعبان والمضاربين فى البورصة • وكانت أسرته تتكون من زوجة وثلاث بنات • وكان الحنطور يحمله فى الذهاب والاياب معلنا برنين جرسه عن تحركاته • ولم تكن الأسرة تنقسم الى زماننا ، ولا ألوانها البراقة تنتمى الى جنسنا ، وهى وحدة كانت مستقلة بذاتها ، لا سبب يربطها بمن حولها من الجيران ، فلا تزور ولا تزار ، ولا تتبع تقليدا : ولا تحترم موسما ، واذا خرجت الأم وبناتها — راكبات أو راجلات — خرجن سافرات فبهرن الأعين ببشراتهن العاجية وشعورهن الذهبية وعيونهن الملونة • وخرق عصام بك المألوف والمعقول عندما دعا الى بيته ممثلة مشهورة ، وعندما مضت تتردد عليه فى أيام محددة • وسرعان ما عرف أنه اتخذها عشيقته • بل نشرت مجلة الفن أنه أهدى اليها عقدا ثمنه عشرة آلاف جنيه • وكنا نتجمع فى الشارع لنشهد مقدماتها واستقبالها ونسعد بذلك حتى قال جعفر خليل :

— نحن نشاهدها بالمجان أما بقية المسرحية فلا يمكن
تخليها !

وتساءل خليل زكى :

— كيف يتصرف البك القواد أمام زوجته وبناته ؟

فقال سيد شعير :

— يتصرف أمامهن كما يتصرفن أمامه !

وكان بيت سيد شعير أقرب بيوتنا الى بيت آل الحملوى ،

وكان آل الحملوى يثيرون اهتمامه للدرجة القصوى ، فجاءنا
يوما وهو يقول :

— انكشف الغطاء !

والتفتنا حوله متلهفين فقال :

— الهانم تعشق محمد الكواء !

— محمد الكواء !

كنا نعرفه تماما فهو كواء الشارع ، والى ذلك كان فتوة
كما كان أعور ، ولم نتصور أن الهانم الجميلة التى كنا نشبهها
بماى مورأى يمكن أن تعشق ذلك الأعور ذا الكرثس المترامية
والرقبة الغليظة والوجه المفلطح . وقال سيد شعير :

— وهى تذهب الى بيته متخفية فى الملاءة الملف ، رأيتها

بعينى !

واستغنت المرأة عن الاستخفاء فكان الكواء يحمل الملابس

بنفسه ويذهب بها الى البيت فلا يغادره الا بعد ساعة
أو ساعتين . وحدث أن اصطحب عصام بك الممثلة الى رحلة
خارج القطر فكان الكواء يتردد على البيت لمناسبة ولغير

ما مناسبة ، ومضى يبيت فيه جهارا وبلا حذر • وفى أثناء ذلك كان البنات الثلاث يخرجن معا الى أطراف العباسية الشرقية فيقابلن المعجبين ، أو يستقبلنهم مساء فى حديقة البيت ، ورأيت بين أولئك عيد منصور وشعراوى الفحام وقريبى أحمد قدرى وضابط قسم الوايلى وطبيب أسنان الحى ومدرس فرنسى ! • وتوهمنا أن واجب الرجولة يطالبنا بالتحرش بالبيت وبالترددين عليه ولو بالقذف بالطوب من بعيد لصغر سننا ولضعفنا ولكن شرطيا انبرى لحماية البيت ، ربما بايعاز من ضابط القسم العاشق • وكنت اذ ذاك غارقا فى حب صفاء فغضبت أضعافا على سلوك بنات عصام ، واعتبرته زراية وتلويثا لأسمى عاطفة فى الوجود • ولكن بدءا من عام ١٩٣٠ حدث ما خيب تقديرات أهل الحى جميعا • فقد تزوجت البنات الثلاث تباعا ، وفزن بزيجات ممتازة ! • تزوجت اكبرى من مهندس ، والوسطى من سكرتير وزير ، والصغرى من محام ناجح • والأعجب من ذلك أنهم قاطعن حياة بيتهم مقاطعة شاملة فكون أسرا كانت مثالا فى التوفيق والاستقامة ! • وفى الخمسينيات وما بعدها صادفت بعضا من أبناءهم من الشباب الموفق الناجح ، ومنهم من عرف بالوعى السياسى التقدمى • وقد توفى عصام بك فى أيام الحرب العظمى الثانية ، فى نفس الأسبوع الذى قتل فيه شعراوى الشحام • ووزعت المركة فورثت المهائم دخلا كبيرا ، وكانت فى الخمسين من عمرها ولكن حيويتها فاقت سننها ، كما احتفظت من جمالها بقدر موفور • ومكثت فى البيت

وحدها ، وأصبح من النادر أن تزورها إحدى بناتها ، وذهبنا
فى تفسير ذلك مذهب لا تخلو من سوء • والواقع أن علاقتها
بالكواء كانت وما تزال مستمرة ، ولكن بدا أن الرجل أراد
التخلص منها ، حتى أنه صفعها مرة أمام دكانه وعلى مرأى من
بعض الخدم وهى تحاوره بما لم يسمعه أحد • ولم تمض
أسابيع حتى نشأت علاقة جديدة بينها وبين القصاب ، حتى
قال حفتر خلى ضاحكا :

— الولية أرسقراطية ولكنها ذات ميول شعبية !

وفى أواخر أيام الحرب باعت البيت وغادرت الحى ،
ولكنها لم تغب عن ناظرى طويلا ، اذ كانت ترى جالسة فى
مقهى اللواء أو جروبى أو الأرجنتين ، تشرب كأسا ، ثم تمضى
وقد اصطادت شابا ، حتى اشتهرت بذلك فى وسط المدينة ،
ورأيتها فى أثنيوس بالاسكندرية تلعب نفس اللعبة • وتغيب
فترة — طويلة أو قصيرة — ثم تظهر مرة أخرى فى نفس
الأمكنة لتلعب نفس الدور ، هذا والكبير يزحف والذبون
يستفحل والفخامة تقل مما قطع بأن نقودها تنفذ مثل أيامها •
وكلما رأيتها من جديد أدركت أنها تتدهور وتقترب من النهاية
المحتومة • لم تعد إلا عجوزا مبدمة أو شبه ذلك ، وسارع
إليها الإنحلال والتفسيخ • وامتنتعت عن الذهاب إلى تلك الأماكن
الفاخرة أو اضطرت إلى ذلك ، فقنعت بالتجوال فى الشوارع
فى ملابس رثة ممزقة ، ثم لم تعد تظهر إلا فى جلاب
وشبشب ، وأنهى بها الأمر إلى القسول أو ما هو قريب من

ذلك • لم أرها تمد يدا ولكن بعض أصحاب المطاعم الصغيرة
ممن وقفوا على سيرتها المشهورة كانوا يتصدقون عليها
بالسندوتش أو ببعض النقود • وما زلت كلما لمحتها أستشعر
رجعا من الأسى وأستقبل فيضا من ذكريات الشارع القديم
بالصورة التي كان عليها على عهد الفوانيس المدلاة من أعالي
الأبواب والحقول المترامية والهدوء الشامل ، تلك المرأة التي
راحت ضحية لنهم جنونى بالحياة • والتي يسعى من حولها
أحفادها الناجحون وهم على جهل تام بأشجانها ووجدتها ••

عيد منصور

من مجموعتنا العتيقة ، صادقها وصادقته ، واتصلت بيننا
الأسباب على مدى العمر ، ولكنه كان وما زال الصديق
بلا صداقة • وكان وما زال بلا قلب ، حتى خليل زكى له قلب
وحتى سيد شعير له قلب ، أما عيد منصور فلا قلب له •
وكان يعيش مع أبيه وخادم عجوز ولا رابع لهم ، أما أمه فماتت
عقب انجابه مباشرة • وكان أبوه تاجر عمارات ، عمل مع اليهود
طويلا ، واكتسب الكثير من أساليبهم ومهاراتهم • وكان عجوزا
فقد أنجبه وهو فى الخمسين ولم يتزوج مرة أخرى بعد وفاة
زوجته فكان عيد وحيدة ، وكان بخيلا ، دقيقا ، فظا ، جامد
المشاعر فربى ابنه تربية شديدة لا رحمة فيها ولا مهادنة ،
مصمما على اخراجه على نمطه ، فلم يعرف صديقنا المعاملة
العاطفية ولا جرب الحنان أو الرحمة ، كأنما كان يتكون فى
معسكر لاعداد الارهابيين • لذلك تجلت مواهبه منذ سن
مبكرة ، فنشأ عمليا ، صارما ، ذا عقل نفعى ، وبلا قلب ،
وما زال كذلك حتى اليوم والغد • ومنذ الصغر اتخذ من
القرش معبودا ، ومقياسا للرجولة والتفوق ، ولم يتسع قلبه
إلا لذلك المعبود الأوحى • وكما قلت فهو الصديق بلا صداقة :

صديق بحكم الجوار والزمالة واللعب وعشرة العمر ولكن،
بلا عاطفة ولا مودة ولا حب حقيقي ، يضحك للكارثة كما تضحك
للنكتة ، فلم يعان أى تأثير لموت شعراوى الفحام ولا لموت
جعفر خليل ، ويوم قتل زميلنا بدر الزياى فى الاضراب لم
يكن يخفى ارتياحه لخلو الميدان من منافسه فى رئاسة فريق
الكرة ، ولما شعر يومها بعينى تحرقانه عض على أسنانه ليمنع
ضحكة من ضحكاته القاسية فقلت له :

— أنت شيطان !

فهمس فى أذنى :

— ربنا يسمع منك !

ثم بمزيد من السخرية :

— لا فرق بينى وبينكم الا أننى صادق غير منافق !

واعتماد أن يعيش بحكم تربيته ومزاجه خارج دائرة تقاليدنا
وديننا وأشواقنا ، بحكم تربيته ومزاجه وبلا دخل من تفكير
أو فلسفة ، وبلا دافع من الفساد والشقاوة كما كان الحال مع
خايل زكى وسيد شعير ، فلم تحتشد قواه الا للعمل والربح ،
وحدهما ، حتى الجنس وهو الترفيه الوحيد الذى مارسه لم
يشغل الا هامش وقت فراغه • وما ان حصل على البكالوريا عام
١٩٣٠ حتى أشركه أبوه فى العمل ، وظل يدرجه حتى مات عام
١٩٣٥ خلفا عليه ثروة طائلة • ورغم مغامراته فى حديقة بيت
آل الحملوى فلا أعتقد أنه تعلق بامرأة مثلما تعلق بثريا

رأفت ، رآها وهو يعمل مع والده فاندفع فى اغرائها ، وقد
قال لى :

— مر بى وقت وقعت فيه تماما تحت سيطرتها ولو تمنعت
على تماما حتى النهاية لربما ••
وسكت فسألته :

— لربما تزوجتها ؟

— على الأقل كنت فكرت فى ذلك ••
فسألته :

— ألم تحزن أو تخجل من الغدر بها ؟
فقال وهو يضحك :

— لا أظن ••

لم يعرف الحب ، ولا رغب فى الزواج ، ولا حن الى
الأبوة ، وحتى اليوم وهو فى الستين أو جاوزها بقليل ما زال
يعمل بنفس الهمة ويجمع المال بنفس النهم ولم يعرف للحياة
غاية أخرى • وكنت أضيق به اذا سخر من غواطفنا الوطنية
كما ضقت به يوم سخر من بكائى لوفاة سعد زغلول ، ولكنه كان
يستهن بكل ذلك ويقول :

— لولا الانجليز ، لولا اليهود ، ما كان لهذا البلد حياة !
وظل يردد ذلك حتى آخر يوم للانجليز فى مصر • ومع
أنه كان بخيلا كأبيه الا أنه استن لنفسه سنة جديدة فى
البخل ، فقرر ألا ينفق مليما أنغير ما ضرورة بشرط أن يهيب
لنفسه حياة رغدة •

— أنا أعزب وسأظل أعزب، وبلا وريث فيجب أن أتمتع
بحياتي ..

طالما أحتقر الزواج واعتبره عجزاً وغباء ، ويبدو أنه
لا يندم على قرار اتخذه أبداً ، وكلما تقدم به العمر نعم
برضاه عن نفسه وعن قراراته . ومنذ عام ١٩٣٦ غادر حيناً
بعد أن باع البيت ، وأقام في فندق مينا هاوس إقامة دائمة
مفضلاً الفندق لما يوفره له من خدمة شاملة وليعفيه من هموم
المسكن المستقل المتنوعة ، وفي الوقت نفسه استأجر بيتاً ريفياً
في الهرم لمغامراته النسائية المتقطعة ، إذ لم يكن يحب العلاقات
الطويلة ويفضل غواني الملاهي الليلية من الأجانب ، ولم يرض
على نفسه بفاخر الطعام والشراب مع اعتدال تام في الخمر
ونفور طبيعي من المخدرات . وكان يقضي ليلاته في سمر
تجاري مع العاملين معه في حقل تجارة العمارات ولكنه لم
ينقطع عنا في ليلتي سهرائنا الأسبوعية . وكان يهمل أن يقارن
بين نجاحه وبين نجاح أصدقائنا أمثال الدكتور سرور عبد
الباقي والأستاذ رضا حمادة ، ولم يخف أدلاله بالتفوق عليهما
في الثروة التي يعتبرها القيمة الأولى والأخيرة في الحياة .
وقد دأبته يوماً قائلاً :

— ها هو خليل زكي يتأقشك في النجاح والثروة !

فقال باحتجاج :

— انه قدر حقير .

فسأله :

— أتعبر نشاطك المالى نشاطا شريفا ؟

فقال بصراحة معهودة فيه .

— الشرف تتغير معانيه من بيئة لأخرى ، قد أقوم بصفقة
تعتبر فى نظرك نهبا ولكننا نعتبرها خبرة وذكاء ولكنى أحتقر
أساليب خليل زكى التى تعد من خبرة الفقراء !

وأحبته غانية أقرنجية ، ومضت تراسله ، فكان يقرأ علينا
رسائلها ساخرا ويقول :

— هكذا تتوهم المرأة أنها تحب اذا رغبت فى الاستحواذ
على رجل وامتلاكه !!

وتجلت عواطفه العامة فى أبشع صورة يوم نشبت الحرب
بيننا وبين اليهود عام ١٩٤٨ : حتى خيل الى أنه يكره وطنه
لأسباب لا أدريها ، أو أن مصالحه التجارية أفسدت عليه
الميول التى نعتبرها فطرية ، وتكرر ذلك الموقف منه عام ١٩٥١
لدى إلغاء المعاهدة وكفاح القنبال ، ولذلك كان يكره الوفد
بالرغم من لامبالاته السياسية بصفة عامة ، على أن حياته
واصلت مسيرها فى استقرار حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ .
ومع أن الثورة لم تقتحمه بصفة عامة الا أنها زعزعت طمأنينته
وأقلقت ثقته . توالى عليه الهموم بإلغاء النظام الملكى وعلان
الإصلاح الزراعى والجللاء . توثبت فى أعماقه غريزة الدفاع
عن النفس ، وأدرك — وأن لم يكن هدفا مباشرا — أنه ضمن
الجبهة التى تهب عليها العواصف وأنها قد تقتلعه عاجلا أو

آجلاً • وهياً له الاعتداء الثلاثي عملية نقل دم ولكن سرعان
ما انطفأت شعلة الأمل ، واختفى من الميدان كثيرون من
أصدقائه اليهود حتى قال لى يوما :

— كم أتمنى أن أهرب أموالى وأهاجر !

ولما قرأ الوجوم فى وجهى قال :

— لم تعد مصر بالمقام الصالح للأذكىاء !

ثم ضحك ضحكته القاسية وقال :

— لو لم أكن مصريا لتمنيت أن أكون مصريا •

وتابع نشاطه بنفس القوة بالرغم من مخارفه ، واسترد
أنفاسه فى يونية ١٩٦٧ ، ومع أنه راقب الأحداث التالية
للهزيمة بدهشة وذ هول الا أنه لم يفقد الأمل هذه المرة ،
وقال لى بشماعة :

— لا مفر !

وقال أيضا :

— طبعا سمعت عن صحوة الموت !

ومرت أشهر ، وعام وعامان وثلاثة أعوام ، وتحسنت
الأحوال ، وصلبت الإرادة ، وتجددت آمال النضال ، ولكن
ذلك لم يهزمه وان ألقه أحبابنا ، واعتصم بفكرته الثابتة ،
وغذاها بمتابعة الأذاعات المعادية ، والاشاعات المغرضة ، ولما
وجد منى ومن رضا حمادة اتهاما لوطنيته قال :

— لا وطن بعد اليوم الا وطن المصالح ، فاما أن تكون

أمريكا وأما أن تكون سوفيتيا ، أما أن تقبل الحرية والارادة -
الخلاقة والانسانية وأما أن تقبل النظام والعدالة العمياء
والارادة الميكانيكية !

فقد الأمل في الانجليز ، وأصبح حلمه الذهبي أن تسيطر
أمريكا على الشرق الأوسط وأن تحدد له مدارا حضاريا في
مجالها الحيوى يلعب فيه العرب واليهود دورا متكاملا •
هكذا علمته المصلحة أن يتكلم في السياسية ، وما زال
يعمل ، يشيد العمارات ويبيعها ، يقيم في مينا هاوس يستمتع
بحياته كأعزب مقطوع من شجرة ، ويمارس الجنس كل شهر
مرة ، ويزورنا في أوقات محددة تخية لعشرة نصف قرن ،
صداقة بلا حب حقيقي ولا احترام ، نراه مخلوقا ثيادا قد
من حجر ويرانا مجموعة من الحمقى العابثين بلا قيمة
حقيقية ••

غانم حافظ

كان مدرس الرياضيات في المدرسة الثانوية ، وكان وقتها شابا ، عرف بالأدب والوقار وحسن المعاملة فلم يخرج تلميذ في معاملته عن حدود الأدب ، حتى الذين عرفوا بالشقاوة مثل جعفر خليل وبدر الزياى وعيد منصور • طلبه عيد منصور مرة لدرس خصوصى بعد أن أقنع أباه بأن أجرة الدرس الخصوصى أرخص من مصروفات سنة إعادة • وقابل غانم أفندى حافظ والد عيد فسأله الرجل عما يطلب فطلب ريبالا في الساعة ولكن الرجل فزع وقال انه لا يدفع أكثر من شلن ، فابتسم غانم أفندى حياء واقترح أن يعطيه الدرس مجانا بشرط أن يحضره مع تلميذ آخر في نفس الحى ، وقد كان ، وتلقى عيد منصور درسا خصوصيا في الحساب مجانا طيلة شهرين ! • وقد رأيتته وهو يبكى يوم مصرع بدر الزياى ، وكان جزاؤه منا حبا واحتراما • وبعد التحاقى بالجامعة عرفتته عن كثب في مقهى الحى ، فتحولت التلمذة الى صداقة — وكان أهم ما يميزه دماثة الأخلاق وهدوء الطبع وأناقة اللبس ، كان يجالسنا في يوم واحد في الأسبوع — وخاصة في العطلة الصيفية — يدخن النارجيلة ، يصغى في أدب ومجاملة وقليلًا

ما يتكلم • وكان يعالج ثنتي الموضوعات في إطار طبيعه الهادىء ، ومهما يكن من عنف الموضوع وشدة حرارته فإنه يتحول على لسانه همسا عذبا تحيطه هالة باسمة • لم ير غاضبا أو محتدا أو صارخا ، حتى السياسة كان يترجمها حديثا جذابا لطيفا غاية فى الوداعة ولو هوجم حزبه المحبوب الوفد • وإذا تصدى للدفاع قال :

— انهم ناس طيبون !

أو يقول :

— مصطفى النحاس ؟ •• انه رجل طيب مبارك ! -

وأقضى ما يذهب اليه فى الدفاع أن يقول :

— سامحك الله !

واقصر نشاطه السياسى على ذلك ، وعلى التوجه يوم الانتخاب — اذا تقرر اجراء انتخابات حرة — الى اللجنة لاعطاء صوته لمرشح الوفد • ولذلك لم يشترك فى ثورة ١٩١٩ الا بقلبه وحده • وكان جم التواضع ، لا يخجل من أصله بخلاف الكثيرين من أهل طبقته ، فحدثنى مرة عن أصله قائلا :

— كان أبى شرطيا ••

ثم قال :

— وكان همه أن يجعل منى شرطيا غير أن جارا لنا — تاجرا — نصحه بادخالى المدرسة الابتدائية ، ففعل ، ونجحت

نجاحا استحققت عليه المجانية حتى نلت البكالوريا ، ولم أجد مدرسة ميسرة أمامي الا المعلمين فدخلتها ! •

وتزوج من كريمة مدرس اللغة العربية وكانت حاصلة على الشهادة الابتدائية •

— وكانت أسرة زوجتي على تواضعها أرقى من أسرتي فصادفتني متاعب مؤسفة ••

ثم قال بشيء من الحزن وفي صراحة مؤثرة :

— كان الموقف يتطلب شخصا أصلب مني ! ، ولكن زوجتي أنجبت لي ثلاثة ذكور !

كان له يوم ترفيه واحد يمضيه في المقهى ولا يغادر أهله بعد ذلك الا لعمل ، ومرت أعوام حافلة بالتاريخ وهو قابع في عشه يراقب الأحداث من بعيد ، يناقشها بهدوء ويعلق عليها برقة ، مركزاً على تربية أولاده الثلاثة حتى تخرج بكريه ضابطاً في سلاح الفرسان ، والأوسط مهندساً ثم التحق بالجيش ، والثالث بيطاراً • وقد نجا أبناء من حرب ١٩٥٦ بأعجوبة فحمد الله وشكره ، وواصل عمله حتى أحيل على المعاش عام ١٩٦٠ ، وهو يتمتع بصحة جيدة وحياة زوجية سعيدة • ولما احتشدت قواتنا في سينا في أواسط عام ١٩٦٧ خفق قلبه بعنف بعد طول هدوء ، وراح يسأل كل من هب ودب :

— حرب أم لا ؟

ووقعت الواقعة ، وانحسر الظلام عن شيء من النور ، فرجع الابن الأوسط مصاباً أصابة غير قاتلة ، أما بكريه فاعتبر

من المفقودين ، وهزته الصدمة من الأعماق ، وتبدد هدوءه
التقليدى فانهيارا يدعوا الرثاء ، وكان يحب أبناءه كأم ،
ورفض أن يصدق أن ابنه قتل ، وظل يحلم دائما بمعجزة
تعيده اليه سالما • وما لبث ابنه الأوسط أن تناثل للشفاء
فعاد الى الجبهة ، وبقي الرجل ممزقا بين أحلامه عن المفقود
ووخفه على المقاتل ، وهو يتابع أنباء الجبهة ساعة بعد ساعة
ويوما بعد يوم ، ترجفه أخبار الغارات فى الأرض والسماء ،
ويخذه إيمانه رغم رسوخه ، ويزلزه حبه العميق لأولاده ،
وأراه أحيانا شيخا عجوزا محنى الظهر قليلا أبيض الشعر ،
يجلس شارد النظر ، يفكر فى المجهول ، لا يبشر منظره
بقدره على مواجهة الحياة بمطالبها الجامحة ، فأحтар طويلا
بين العتب عليه والزئاء له ، ثم انضم إليه موابيا ، ثم
نتبادل التخمينات عن الغيب •

فايزة نصار

تعرفت بها فى بيت عجلان ثابت بالجيزة حوالى عام ١٩٦٠
كما تعرفت بزوجها فى نفس الزيارة • كانت فى الثلاثين ،
لوجهها طابع ريفى رائق بالرغم من أناقتها العصرية • وهى وان
تكن متوسطة الجمال الا أنها ذات جاذبية جنسية قوية ، أما
زوجها — عبده ابراهيم — فصاحب جراج فى الخمسين ،
بدين مترهل خامل المظهر ، يتستر فى الحديث بالنظرة
أو الابتسامة البلهاء ولا يكاد يتكلم .

قال لى عجلان :

— أنها جارتنا فى نفس العمارة وصديقة زوجتى •

فقلت :

— زوجها غير مقنع !

— ولكنه ذو دخل محترم ، أنجب منها طفلين ، وهى أم

لا بأس بها وان تكن أمية !

— تبدو ذكية ••

— فى الأصل كانت ابنة بياعة جبن وزبدة ، ولكن

استعدادها للتأقلم قوى ، وهى تتقدم بفضل الاذاعة والتلفزيون

والصديقات ••

وفى زيارة تالية لبيت عجلان ثابت قابلت فايزة نصار

وكانت بصحبة رجل أربعيني حاد البصر قوى الجسم • علمت أنه يدعى جلال مرسى وأنه صاحب كازينو الهرم • وقال لى عجلان ثابت باستهتاره المعروف :

— فى المرة السابقة عرفت زوج فائزة وبها أنت تعرف فى هذه المرة عشيقها !

وضجت الحجرة بالضحك ، زوجة عجلان وفائزة وجلال صاحب الكازينو ، وقال جلال :

— لا تصدق !

فسألته فائزة بنبرة وعيد :

— هل تتكرنى ؟

فأحنى رأسه بخشوع وقال لى :

— صدق ياسيدى ••

قال عجلان ثابت :

— وهو صديق الزوج !

ودعتنى فائزة لزيارة بيتها فتوطدت العلاقة بينى من ناحية وبينها وبين زوجها من ناحية أخرى • وذهبت فى صحبتها مرات الى كازينو الوادى فكان ينضم الى مائدتنا جلال مرسى ، ولمست مدى عمق العلاقة بينه وبين الزوجين • ولم أقطع برأى فى مدى معرفة الزوج بالعلاقة بين زوجته وعشيقها ، وحتى عجلان ثابت لم يعلم أكثر مما أعلم ، ولكنه قال لى :

— تعود على هذه العلاقات حتى تبرأ من عبوديتك البنزجوازية •

ومرة وكنا مجتمعين فى بيت عجلان أنا وعجلان وزوجته
وفائزة • فأشار الى دون تمهيد وبلا مناسبة وقال لفائزة :
— انه يعانى من عشقه لك !

وانتقلت الى جابى بخفة وطوقت عنقى بذراعها السمراء
البضة وقالت :

— أرنى !

فقال عجلان ضاحكا :

— بهواذة حتى لا يفزع •
فقلت :

— ولكن تحت شرط •

وسألها عن الشرط فقلت :

— ليلة واحدة ••

ثم وهى تنظر فى عينى :

— المرأة الفاضلة يكفيها زوج وعشيق واحد !

هكذا كانت فى مزاحها ، ولكنها — فيما علمت — كانت
تحب جلال حبا حقيقيا • وكانت فى الوقت نفسه تحرص على
نقاء بيتها وتربية طفلها تربية حقيقية ، وقال لى عجلان :

— أن ما يتعبها حقيقة هو طموحها ، فبالرغم من أميتها تحلم
بأن تكون شيئا عظيما !

فتساءلت :

— لعله المال !

— حياتها رغبة ، ولكنها تحب المال ، وشيئا أكثر من

المال ••

— أى شيء ؟

— الفن ان صدق تخمينى !

ثم قال لى :

— كنت أن أدعوك لزيارتهم معى ..

فقلت وأنا أتساءل عن السبب فقال :

— يبدو أنه أمر هام ، وسنعرفه فى الحال .

وجدنا فايضة وزوجها وعشيقتها فسلمنا وجلسنا ونحن

نشعر بأن توترا ما يكهرب الجو والوجوه ، وشرعان ما قالت
فايزة :

— المسألة وما فيها أن أحد المخرجين عرض على دورا

هاما فى فيلمه القادم !

ونظرت فى وجوهنا وقالت :

— ما رأيكم ؟

ولما رأيت عينيها تطارداننى قلت :

— المسألة تتعلق بك وبالسيد عبده أولا وأخيرا ..

فقال عبده ابراهيم وهو يرفع وجهه ليجد الكلام ممرا

خلال لعدة :

— تسيدات العائلات يهتلن فى هذه الأيام ..

ولكن جلال مرسى تساءل :

— أود أن أعرف كيف ومتى رآك ، ذلك المخرج ؟

فأجاب الزوج :

— رآنا ونحن عندك ليلة فى الكازينو ..

— وهل تجلت له موهبتها من النظرة الأولى ؟



— هذا شأنه لا شأننا •

فقال جلال :

— كصديق مخلص لكما لا أوافق على دخولها ذلك الميدان •
فسأله فائزة وهي تبدو سعيدة رغم التوتر العام :
— لم ؟

— لم تظهرى فيما سبق أى اهتمام بالفن •

— لم توجد مناسبة •

— انه لا يولد فجأة ولا لمجرد أن مخرجاً اقترحه ••

— بل هكذا يولد •

فقال الزوج :

— أظن ذلك •

فقال جلال بحدة :

— أنهم لا يعرضون الأدوار لوجه الله •

فقال عجلاً ثابت :

— لوجه الفن •

فقال جلال :

— ولا لوجه الفن !

فقالت فائزة :

— لست قاصراً !

وقال الزوج :

— انها أهل الثقة •

فقال جلال باصرار :

— كصديق مخلص لكما لا أوافق •

فقال الزوج :

— هذه فرصة لا يجوز إهمالها ••

ووافق عجلان على رأيه كما وافقت أنا وكأنما كانت مؤامرة
يلا تدبير سابق ، وقام جلال مرسى فحيانا ومضى وهو
يقول :

— قلت رأيى وأنا مصر عليه •

وقال عجلان بخبث :

— عليك أن تقابل المخرج فى أسرع وقت ••

وعندما غادرنا البيت أنا وعجلان قلت له :

— عبده إبراهيم بكل شئ يعلم !

فضحك عاليا وقال :

— وانتهاز الفرصة فوجه أنى غريمه ضربة موفقة •

— ولكنها ماذا ستفعل فيما ترى ؟

فنتفكر قليلا ثم قال :

— ان صح ظنى فطموحها أقوى من عشقها !

وصدق ظنه • قامت بتمثيل الدور • وكانت مفاجأة فنية

لا يستهان بها ، ودعيت الى تمثيل دورين جديدين •

وهجرها جلال فلم تسع لاستردادها • وما لبث زوجها

أن طلقها بحجة حماية بيته وطفليه من الجو الفنى الذى أخذ

يغزو بيته ، ودل بقراره ذلك على أن خموله لم يكن الا قشرة

تخفى وراءها حقدًا طويلا • وانتقلت فائزة الى شقة صغيرة

وأنيقة بالزمالك • وقد زرتها يوما بصحبة عجلان فالتقيت عندها

بالدكتور صادق عبد الحميد وعشيقتة الصحفية نعمات عارف

زوجة الدكتور زهير كامل التي تخصصت أخيراً فى النقد
الفنى ، ووجدت فائزة مرحلة كمادتها ، وسعيدة بالنجاح ، حتى
قال لى عجلان ونحن راجعان معا :

— محتمل أن تحن أحياناً الى طفليها ولكنها ليست بالتي
تتهار بسبب ذلك ، أعترف لك بأننى أسعد بنجاح أى فلاح
أو فلاحه ، مهما يكن ثمن ذلك النجاح !

فتحي أنيس

لفت نظري مذ رأيته في أول يوم التحقت فيه بالوظيفة .
حسبته موظفا كبيرا . أو سليل أسرة عريقة ، وكم دهشت عندما
تبين لي أنه كاتب القيد بالسكرتارية . كان في الثلاثين من
عمره ، شهادة ابتدائية ، مرتب ثمانية جنيهاً ، متزوجاً وأباً
لخمسة أبناء ، ولكنه كان طويلاً رشيقاً عظيم القسمات ، حتى
قال لي الأستاذ عباس فوزي .

— انظر الى عبث الطبيعة ، جادت عليه بمنظر يليق بموظف
استقبال بالخارجية ولكنها ضنت عليه بما ينفعه أو ينفع الناس .
وكان يقول عنه أيضاً :

— انه حي لا يرزق !

وكان مسئولا عن أم وأختين مطلقتين ، فاستقبل أيام
الحرب وارتفاع مستوى المعيشة وهو على تلك الحال . ولم
يكن نادراً أن يقترب من عباس فوزي أو عبد الرحمن شعبان
ويقول ببساطة :

— من يعطيني قرشاً أشتري به سندوتش فول وله الجزاء
الأوفى في يوم القيامة ؟

وكان اذا لمح أحداً من الأهالي في المشى الخارجى بادر

اليه فيسأله ان كان فى حاجة الى خدمة يؤديها له عن طيب خاطر ، وفى الختام يسأله بلا حياء :

— هل أجد عندك سبيجارة ؟

وعطف الأستاذ عبد الرحمن شعبان عليه يوما فقال للأستاذ عباس فوزى :

— حال فتحى تستحق النظر •

فصدق الرجل على قوله وقال :

— العين بصيرة واليد قصيرة !

فقال عبد الرحمن :

— أسعفوه بوظيفة يمكن أن تدر عليه رشوة !

فقال عباس فوزى باسم .

— يوجد فرص فى المستخدمين والحسابات والمخازن

والمشتريات ولكنه بدون مؤهلات ••

فقال عبد الرحمن فى شبه غضب :

— يوجد مديرون بالابتدائية •

— أعنى بالمؤهل الوساطة ويبدو أن أعظم من يعرف فى

الحياة هو عم صقر الساعى إلا

واهتدى الى وسيلة يستغل بها منظره فى مقاومة الجوع ،

فكان يتقدم الى أسرة ما كخاطب ، فيقابل بالترحيب من ناحية

المبدأ حتى تتم الاستعلامات عنه ، وفى الفترة الموضوع فيها

تحت الاختبار يزور الأسرة فيستقبله رب البيت ، ويتعمد

البقاء حتى وقت الغداء أو العشاء ، ولما يدعى للمائدة يلبى وهو

يقول :

— لا يَأْبَى الكرامة الا لثيم •

ثم يأكل بوحشية وكأنما يخزن الطعام ليَجْتَرَهُ بقية الأيام •
وتجىء نتيجة الاستعلامات فى غير صالحه طبعاً فيعتذرون من
عدم قبوله فيذهب وقد فاز ببضع أكالات خيالية • ويواصل
غزواته فى أحياء المدينة حتى تسربت أنبأؤها الى الموظفين
فجعلوا منه نادرة تروى • وما ندري يوماً الا وهو يدخل علينا
مرتدياً جلباباً ! • وكان الأستاذ طنطاوى اسماعيل ما زال رئيساً
للسكرتارية فاستدعاه وسأله •

— ما معنى ذلك يا فتى أفندى ؟

فقال ببساطة :

— البدلة استهلكت تماماً ، قلبتها منذ ثلاثة أعوام فلم
يعد بها رmq ، ولا أستطيع أن أشتري زراراً !
فقال الرجل فى حيرة :

— ولكن ذلك يخالف التعليمات !

فقال بثقة :

— لا نص فى التعليمات على ذلك !

وتداولنا ان كان ذلك يجوز أو لا يجوز دون أن نهتدى الى
علاج • وزاد الحرج عندما فاجأنا الوزير الوفدى الجديد بزيارة
تفتيشية • ولما رآه الوزير ظنه ساعياً فقال له :

— ألم يصرفوا لك بدلة السعاة ؟

فأجاب بايمان :

— أنا موظف يا معالى الباشا ، ولكنى لا أملك ثمن بدلة

جديدة !

فدهش الوزير وسأله عن وظيفته وشهادته ومرتبته وعدد أولاده الذين بلغوا التسعة عدا في ذلك التاريخ ، ثم سأله ضاحكا :

— أليس لك هواية الا الانجاب ؟

فقال فتحي بجزأته المعهودة :

— أنا من شعب الوقد ولن أضام في عهدكم !

وقد منحه الوزير علاوتين استثنائيتين ، ثم أدركته علاوة الغلاء التي تقرررت لأول مرة ، فاشترى بدلة ولكن حاله لم تتحسن الا قليلا . وذات صباح همس لى عم صقر وهو يقدم لى القهوة :

— أخيرا وفق ابن الشحاذة !

فسألته :

— فتحي أنيس ؟

— نعم .

— كيف ؟

— سيتزوج من أرملة غنية جدا .

— حقا ؟ . . وجميلة ؟

فضحك قائلا :

— عمرها ستون عاما ، وهى فى الجملة كالومياء !

وصح الخبر كجميع أخبار عم صقر . وتزوج فتحي من أرملة عجوز تركية مستحقة فى وقف كبير ، وقيل انه تزوج بموافقة زوجته الأولى أيثارا لبيعادة الأولاد على نفسها . وتغير حاله بصورة ملموسة ، وظهرت عليه النعمة فى ملبسته

وصحته ورونقه ، ورغم كل شيء أثار حسد الكثيرين ، وكار
عباس فوزى يتهم به فيسأله :

— كيف طاوعتك نفسك على معاشرة مومياء ؟

فيجييه بصراحتة وبساطته :

— عندما يملأ الانسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من
اللحوم وخمس كئوس من الويسكى فانه يستطيع أن يعاشر
عزرائيل نفسه !

وعقب حرب فلسطين الأولى ١٩٤٨ توفيت زوجته الجديدة
مخلفة عليه ثروة طائلة ، ولم يفلح في اخفاء أفراحه حتى في
الأيام الأولى للحدث ، واستقار من وظيفته ، وفكر في انشاء
عمل حر ، حتى هداه تفكيره الى فتح مقهى كبير في التوفيقية ،
وتحمل خسائر عام أو عامين حتى يتقن مهنته الجديدة ، ثم
نجح المشروع نجاحا منعدم النظير ، وانقطعت أخباره عن
بطبيعة الحال حتى بعثها من الظلمات عم صقر عقب خروجه
من السجن فحدثني عن ثرائه الفاحش ، وما ملك من عمارات ،
وعن معيشته الحالية في قصر بالهرم ، وعن نجاح أبنائه في
المدارس والكلليات وقد بلغ عددهم اثني عشر ولدا . أخبرني
كذلك بأنه أبقى على زوجه الأولى ولكنه اتخذ من راقصة
إيطالية عشيقه له . قال عم صقر :

— أنه اليوم في السادسة والستين من عمره ، ولكنه قوى
مهيب كرجل في عز شبابه ، ويرافق راقصة إيطالية فهل سمعت
عن عاشق في مثل هذه السن ؟ ، ولكنه الحظ ، ألف ليلة وليلة ،
وكل ما عداه باطل . .

قـدري رزق

كان يتردد على شقة عدلى بركات الفاخرة فى أوائل عام ١٩٤٨ ، وكان فى الثلاثين من عمره أو دون ذلك بقليل ، وطالما جالسنا ببدايته الرسمية كضابط فى سلاح الفرسان ، فيضفى على المجلس من روحه مرحا وصفاء • وبدا قليل الاهتمام بالسياسة والشئون العامة ولولا محاولة بذلت لاغتيال مصطفى الفحاس ما فطنت الى أنه ينطوى على ميول وفدية ، ورثها غالبا عن أبيه الذى كان عضوا بالهيئة الوفدية •

وكان ممشوق المقوام أسمر واضح الملامح جذابها ذا شارب غليظ لا يننى يغازله فى اعجاب وارتياح ، وفى جلسات الأتس التى اشتهر بها مسكن عدلى بركات شهدت له غزوات موفقة مع فنانات كثيرات • وفى أعقاب حرب ١٩٤٨ اجتمع بنا فى شقة عدلى بركات وقد زائله المرح ووشيت حاله عموما بامتعاض وقرق • وكنا — أنا ورضا حمادة — فى غاية من الحزن ، فطرحنا عليه العديد من الأسئلة لعله يروى غلتنا أو يبدد من أفكارنا بعض الظلمات ، ولكنه لم يمس التفاصيل وقال بايجاز :

— نقد ضحى بالجيش بطريقة دنيئة قصد بها القضاء على كرامته وأرواح رجاله ••

وهز رأسه بضيق وقال :

— لا يمكن أن يمر ذلك بلا ثمن !

فقلت ببراءة :

— لكننا لم نهزم ، الفالوجة نصر مبين •

فقال بحدة :

— بل هزمنا ، وحوصرنا بين عدوين ، عدو فى الخارج

وعدو فى الداخل •

واستجابت نفسى لغضبه بقدر ما وجدته متجاوبا معها ،

وقال رضا حمادة :

— كل ذلك نتيجة لحكم أحزاب الأقلية الذى مكن لطغيان

الملك •

فقال قدرى رزق :

— ونتيجة أيضا لضعف الوفد الذى عجز عن تحقيق الارادة

الشعبية • •

فاستاء رضا حمادة وقال :

— الوفد اعتمد دائما على ثورية الشعب ولكن الشعب

تخلى عن ثوريته !

فقال قدرى رزق الذى لم أره من قبل على تلك الدرجة

من السخط :

— الوفد هو المسئول عن تخلى الشعب عن ثوريته !

وتوثقت علاقته بنا فى تلك الأيام ، وتعددت لقاءاتنا بشقة

عدلى بركات • وشهدنا معا تدهوره حتى انتحاره ، ولكنه لم

ينقطع عنا فكان يجتمع بنا فى بيت رضا حمادة أو فى مقهى

الفيشاوى ، ورجع الى طبيعته الأصلية فقل اهتمامه بالسياسة
والشئون العامة ، وعأوده المرح والمجون والتفرغ لغزو
الحسان . ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ اكتشفنا أنه كان ضمن
مجموعة الضباط الأحرار فعجبنا لقدرته الخارقة على الكتمان .
وقد سهر معنا عشية الثورة فى مقهى الفيشاوى ، وجلس
كعادته يضاحكنا ويسامرنا ، وعدت معه قبيل منتصف الليل
الى العباسية مشيا على الأقدام من طريق الجبل ، ثم ملت أنا
الى العباسية الغربية وواصل هو سيره شمالا الى مسكنه
بشارع أحمد ماهر كما ظننت ، أما الحقيقة فانه لم يذهب
ليلتها الى بيته ولكنه مضى صوب منشية البكرى ليقود قوة
صغيرة الى احتلال مفترق طرق ! . وغيبته الأحداث عنا فترة
غير قصيرة طُرد فى أثناها الملك ، ثم رجع الينا . وقد رقى الى
رتبة جديدة . وتتابعَت التطورات الهامة مثل الاصلاح الزراعى
والجلاء وغيرها ونحن نتلاقى بانتظام أسبوعى فى بيت رضا
حمادة قبل اعتقاله ، واستمر التلاقى بعد ذلك فى بيتى
أو بيته أو فى مقهى الفيشاوى ، وطيلة تلك المدة لم يخرج
حديثنا عن السياسة التى لم يعد له من حديث غيرها . ولم يكن
بيننا خلاف جدى ، استطاعت الثورة أن تستأثر بقلوبنا وآمالنا
فى لحظة تاريخية أسطورية باهرة . وقال قدرى رزق :

« اندثرت القوى الجهنمية التى كانت تعوق تقدم
الشعب مثل الملك والانجليز والحاكم الفاسدون ورجع

الأمر الى أبناء الشعب الحقيقيين ، فهو حكم الشعب للشعب
لخير الشعب ، انتهى الفساد والاحتلال وسيطلق تيار الاصلاح
والتقدم الى الأبد ..

وقلنا انه آن للحلم أن يتحقق ، وأن ينعم بالحرية والرقى
والعدل ذلك الشعب الذى عانى الظلم والاستعباد والفقير
والغربة آلاف المسنين ، أجل ساعنا بعض الشيء التوثب للقضاء
على الوفد ، وسأله رضا حمادة — قبل اعتقاله — أكثر من
مرة :

— أليس الأفضل أن تتخذوا من الوفد قاعدة شعبية لكم ؟
كما ساورتنا مخاوف من ناحية أمريكا ، وخشينا أن تحل
محل أنجلترا بطريقة أو بأخرى ، بعدما شعرنا بمدى تأييدها
لنظام الجديد ، ولكن قدرى رزق قال :

— الأمريكان ذوو نفع كبير ولا خوف علينا منهم بفضل
وطنية زعمائنا الجدد .

وحلت الأحزاب وضرب على أيدي الاخوان والشيوعيين ،
وكان قدرى يتحمس لكل اجراء بلا قيد ولا شرط ، حتى سألته
مرة :

— ولكن من أنتم ؟

فضحك ، وتفكر مليا ، ثم قال :

— نحن أصدقاء الوطنية والعروبة والثورة وأعداء الفساد
والتعصب والالحاد !

وقال أيضا بحماسة الطيب :

— هدفنا تحرير الشعب مما يستعبده سواء أكان شخصا

أم طبقة فقرا أم مرضا ثم دفعه الى المكان اللائق به تحت الشمس ..

ونعص صفونا ما أصاب صديقنا رضا حمادة في شخصه وابنه وزوجته ، وشد ما تأثر لذلك قدرى رزق وحزن ، ولكن من بن وقع المأساة القوة التى لاقاها بها صديقنا الجاد الصبور القوى . وكان قدرى يعجب به ويقول عنه انه رجل ولا كل الرجال ، ويتعجب كيف أن رجلا مثله ورجلا مثل الدكتور زهير كامل ينبثقان من أرض واحدة . وتتابع أحداث مجيدة مثل الاتجاه نحو الكتلة الشرقية للتسليح ، ومثل تأميم قناة السويس الذى بلغ بحماسنا درجة لم نعرفها من قبل ، فثمل بذلك قدرى رزق وثمنا ، وقال لنا :

— رأيتم ؟ نحن مصريون أولا وأخيرا ، لا أمريكيون ولا روسيون !

وتزوج قدرى فى تلك الفترة من كريمة أسرة كبيرة اقطاعية ممن طبق عليهم قانون الإصلاح الزراعى ، وكانت مفارقة تستدعى الملاحظة وتحتاج الى تفسير ، غير أنه يمكن اعتبارها ظاهرة عادية اذا نظر اليها من الناحية العاطفية البريئة ، ولم يغت عنى أن صديقى كان فخورا بمصاهرة تلك الأسرة رغم ثوريته واخلاصه وطيبته ، وأما رضا حمادة فقال لى :

— انها طبقة تتطلع الى أن تحل مكان طبقة !

ثم كان الاعتداء الثلاثى وانقلابه على المعتدين ولكن صديقنا قدرى رزق أصيب فى ساقه وفقد عينه اليسرى

فاضطر الى ترك الجيش ، وعين فى وظيفة ثقافية كبيرة بوزارة الارشاد • وبتوليته للوظيفة الجديدة بدأ اهتمامه بالثقافة لأول مرة فى حياته ، فكان يعمل نهارا ويدرس ليلا ، وأثبت أنه على الهمة فى التحصيل والادارة • وكان فى اجازة شهر العسل حينما نشبت الحرب فاستدعى من بين أحضان عروسه للقيام بواجبه العسكرى فأصابه ما أصابه • ولما أعلنت القوانين الاشتراكية بعد ذلك بأعوام بدأ يدرس الاشتراكية بنفس الهمة التى درس بها الثقافة ، وكان على استعداد دائما للايمان بما تدعو الثورة للايمان به اذ أن ايمانه الحقيقى كان بالثورة ، بالثورة وحدها • والحق أنه كان وما زال برجوازيا فى أخلاقه وآماله وأحلامه وتقليده ، ولكنه كان وما زال برجوازيا ذا لسان اشتراكى ، ولم يجرى ذلك عن نفاق أو خوف ولكن بدافع اخلاص حقيقى للثورة وما تنادى به ، وإنى لأعده من أخلص الرجال وأنقاهم وأنزههم ، كما كان من أشدهم سخطا على المستغلين والمفسدين ممن خانوا أمانة الثورة • ولما حاقت بنا هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ زلزل لها كيانه حتى خيل الى أنه يموت وهو حى ، وتساءل فيما يشبه الهذيان :

— أيزهد ذلك التاريخ كله هباء ؟ !

ونظر فى وجوهنا بوجه شاحب وتساءل مرة أخرى :

— أنركع مرة أخرى تحت أقدام الرجعيين والاستعماريين ؟ !

وكان يجاهد بعنف ليسترد أنفاسه الملهثة ، وليخلق في الضياع أملا جديدا ، وليحول الهزيمة الى درس وعبرة • وكأما مر يوم دون استسلام استرد بعضا من عافيته ، وعكف على أرض الواقع الصلبة يحفرها بأظافره لعله يستخرج منها بعض قطرات من ندى الأمل • وما أشبهه في ذلك بالدكتور عزمى شاکر أو الدكتور صادق عبد الحميد ، وكان يقول :

— ما تاريخ العرب الحديث الا سلسلة من الهزائم أمام الرجعية والاستعمار ، ولكن ما يكاد اليأس يخيم حتى ينبثق من ظلماته نور جديد ، وهكذا ذهب التتار والصليبيون والانجليز وبقي العرب !

وهو يريد للثورة أن تبقى ، وأن تنتصر ، مهما كان الثمن ، كيلا تتعثر النهضة في زمن لم يعد يسمح بالتخلف يوما واحدا ، ويتابع أنباء القتال وهو آسف على أنه لم يعد في امكانه الاشتراك فيه • ويحزنه أن تتلقى ضربة دون أن نردها بالمثل ولذلك فهو ينتظر على جمر اليوم الذى نستكمل فيه استعدادنا للقتال • أنه يعيش يوما فيوما بل ساعة فساعة في متابعة وقلق وترقب وأمل ومحاسبة للنفس لا هوادة فيها • وبصرف النظر عن آراء الأستاذ سالم جبر المتناقضة وسخریات عجلان الحادة وانتقادات رضا حمادة المرة فان قدرى رزق يعتبر رجلا محترما ومخلصا من رجال ثورة يوليو ، وقد يتعذر تعريفه على ضوء المبادئ العالمية ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء

الميثاق ، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعية ايمانه بالملكية الخاصة ،
والحوافز ، ويؤمن بالاشتراكية العلمية ايمانه بالدين ، ويؤمن
بالوطن ايمانه بالوحدة العربية ، ويؤمن بالتراث ايمانه بالعلم ،
ويؤمن بالقاعدة الشعبية ايمانه بالحكم المطلق • وعندما يقبل
على وهو يعرج ويطالعنى بعينه الباقية ينبض قلبي بالموذ
والاكبار •

كامل رمزي

تعارفنا عام ١٩٦٥ في بيت الدكتور عزمي شاكِر • كان حديث عهد بالحرية بعد أن قضى في الاعتقال خمسة أعوام • وهو إسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس صغير العينين براقهما في الخمسين من عمره • دكتور في الاقتصاد وكان أستاذًا بكلية التجارة حتى تاريخ القبض عليه • قلت له :

— قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصادية وأشهد بأنه أمتعني بقدر ما أفادني ••

فشكرني وقال :

— كانت الحياة الجامعية تناسبني جدًا !

وقال الدكتور عزمي شاكِر :

— اتهم خطأ بالنشاط العملي أما الحقيقة فهي أنه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف

وفي نفس الأسبوع الذي تعارفنا فيه ولي منصبًا كبيرًا ، وقال لي عزمي شاكِر للمناسبة :

— انه مثال في العلم والحزم والنزاهة •

وكان صديقًا لسالم جبر وزهير كامل ، وعرفته بدوري لرضا حمادة وقدرى رزق والدكتور صادق عبد الحميد فقال

احترامهم جميعا ولكن لم يغال أحد في حبه ! • وقد أشعرني حديثه بالصدق والصرامة والعلم ، وهو ممن أتموا تعليمهم بانجلترا . وذو اطلاع شامل في الاجتماع والسياسة ، وله قدرة فائقة في المناقشة والجدل • ويتكلم اذا تكلم بنقطة وصرامة وثبوت • ولا يؤمن من شيء بالكلية بالوسطى . ولا بالمجاملة ، ولا بالتسامح ، بل يؤمن برأيه لحد التعصب ، ولا يطبق المعارضة فهي تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان . اللاتق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضبا بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية • وهو يشبه عبد الوهاب اسماعيل في تعصبه على تناقضيهما في الأسلوب ، حتى قات مرة للدكتور عزمى شاكر :

— انه عالم ولكنه ذو عقاية دينية :

فقال :

— انه متعصب بلا شك ، ومشتعل في مناقشته ، ولكن أعصابه لم تقسب بهذه الصورة الا بعد تجربة الاعتقال • وبمزيد من الاختلاط به عرفت زوجته وهي دكتورة في الاقتصاد أيضا ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف للمرأة المصرية • وعرفت له أسلوبا في الحياة يعتبر غريبا في عصرنا ، فهو يميل الى التقشف في ملبسه ، وطعامه الذي يشبه الرجيم ، والى ذلك فهو لا يدخن ولا يذوق الخمر • وقد قال لى مرة :

— لم أعرف المرأة قبل الزواج ، وقاومت جميع المغريات وأنا طالب في البعثة !

وأدهشنى أن يصوم فى رمضان رغم إيمانه الكامل بالمادية
الجدلية وسألته :

— ما معنى ذلك ؟

فضحك قائلاً :

— كان أبى عاملاً بسيطاً ، وكان متديناً ، فربانا تربية
دينية شاملة فنشأت فى أحضان الأخلاق الإسلامية ، ولم
أستطع بعد ذلك التخلّى عنها إلا فيما يناقض عقيدتى الجديدة ،
وكان الصيام فيما أستبقيت من العادات القديمة فهو رياضة
تناسب سلوكى تماماً ..

وتفكر قليلاً ثم قال :

— العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى إلا عندما تعتبره
لا-ديناً !

وذكرنى فى الحال بالحاج زهران حسونة فذهلت للفارق
الهائل بينهما مثل الفارق بين ملاك وشيطان • وقلت له :

— لا يمكن أن تخلو حياتنا من تناقضات كثيرة ..

— المهم أن نعمل للمستقبل ..

— وطبعاً أنت تؤمن بالشيوعية ؟

— ذلك حق •

فسأته باسمه :

— أتعبر نفسك مخلصاً للثورة التى تعمل فى جهازها ؟

فقال بوضوح وقوة :

— خلقت لأعبد العمل وأخلص له ..

— أنى أسأل عن اخلاصك للثورة ؟

فأخذ شهيقا عميقا كأنه الترجمة الجسمانية لتفكيره وقال :

— لم أكن فى يوم من الأيام ذا وجهين ، وما دمت قد
قبلت العمل فى جهازها فأنا مخلص لها ..

فقلت باسمي :

— هذا هو الجواب الذى أسأل عنه ، ولكن ينقصه

شيء ما !

— عظيم ، أنا مخلص لها ولكنى غير مؤمن بها ، أو غير
مؤمن بها إيمانا كاملا ، حسبى فى الوقت الراهن أنها تمهد
السبيل إلى الثورة الحقيقية !

فأشرت إلى صديقنا الدكتور عزمى شاکر وقلت :

— ما أشبه موقفك بالموقف الذى اتخذته هذا الرجل من

بادئ الأمر ..

فضحك ، ورغم ضحكه قال بحدة :

— لقد سلم قبل المعركة أما نحن فسلمنا بالأمر الواقع

بعد أن أثبتت المعركة عقمها .

— لعله كان أبعد نظرا !

— اسمح لى فى هذه الحال أن ألعن بعد النظر !

وكان عزمى شاکر كبير الإعجاب به ، وكذلك رضا حمادة

على تناقضهما فى المبدأ ، وكانت شخصية كامل رمزى تغرينا

بتحليلها وتقييمها . ويوما قال رضا حمادة :

— لقد تشفعت به فى نقل موظف فأعطانى درسا قاسيا
فى فساد الوساطة ، ومع أننى استأنت فى نفسى الا أننى
ازددت اعجابا به .

فقال عزمى شاكر :

— بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر من عدم التنفيذ حرصا
على مبادئ العدالة !
فقلت بدهشة :

— وزيره نفسه ؟

— أجل ، أنه خلق صلب غير قابل للثنى ، ولذلك أشك
كثيرا فى أمكانية بقاءه فى منصبه !
فسأله رضا حمادة :

— هل يبتغون عن موظف لاستقامته ؟

— ان الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته
أكثر من الأسباب التى تدعو للاستغناء عنه لانحرافه !
واعترف لى كامل رمزى نفسه بأن أحدا فى ادارته لا يحبه
بدءا من الفراش حتى الوزير ، قال :

— لا أستطيع أن أهتم بعواطف الناس والمصلحة العامة
معاً ، أن منصبى يحتاج لألعبان لا لموظف أمين !
ثم قال بازدراء :

— نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات .
وضحك عاليا وقال :

— لقد عبدنا مصطفى الفحاس يوما لا لشيء الا لنزاهته
وصلابته فى الحق وهما صفتان جديرتان بكل مواطن عادى

ولكن لندرتهما جعلنا منهما دعامتين أساسيتين لزعامة
شعبية !

فسألته .

— هل عادت مصطفى النحاس يوما ؟

فقال بصراحته المعهودة .

— كنت وفديا ، وعطفي على الوفد عاش طويلا في نفسي
حتى بعد نضوب ايماني به ..

وحملق في وجهي بعينيه البراقتين وقال :

— قل في الوفد ما شئت ولكن لا تنس أنه كان حزبا
شعبيا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وأنه كان يغير سياسته
أحيانا اذعانا لمشيئة التلاميذ بالمدارس الثانوية !

ثم حدثني عن أحداث عام ١٩٣٥ ، وكيف ناقش مصطفى
النحاس ضمن وفد من الطلبة ، وكيف احتدت المناقشة بين
الطرفين ، وكيف عدل الوفد عن تأييد وزارة توفيق نسيم فأعلن
الثورة على لسان مكرم عبيد ، وكيف سالت الدماء عقب ذلك
بأقل من ساعة !

ولم يعمر كامل رمزي — كما تتبأ عزهى شساكر — في
وظيفته طويلا . باشرها عاما واحدا حتى ضج جميع أهل الأرض
من صلابته ونزاهته ، واذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله الى
مؤسسة صحفية .

ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس . ولم أدهش
لذلك كثيرا ، وذكرت في الحال مأساة الأستاذ طنطاوى.

اسماعيل رئيس السكرتارية القديم كما ذكرت الدكتور سرور
عبد الباقي ، وقلت لنفسي ان امثال اولئك الرجال يغلقون
الأبواب في وجوه الوصوليين والانتهازيين وما أكثرهم ؛
كما أنهم بقوة أخلاقهم يفضحون الضعفاء أمام أنفسهم
فيمثلون حقدا عليهم • لذلك لم أسمع رثاء له الا بين خاصة
أصدقائه • وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه مرارة وخيل اليه
أن نوااميس الطبيعة تقلقلت وشذت عن مداراتها • ولكن ذلك
لم يمنعه من مواصلة عمله الجدي بنفس الهمة والنزاهة والقوة
السابقة ، بل انه وجد فراغا لم يكن يجده فاستأنف نشاطه
العلمي ، وشرع في وضع قاموسه السياسي • وكان وما زال
شعلة من النشاط المتواصل ، ونورا يطارد ظلمات اليأس •

كاميليا زهران

يوم أقبلت علينا فى السكرتارية بفستانها الأنيق وشعرها الأسود المقصوص المطوق لرأسها تذكرت عبدة سليمان ، ولكن ما أبعد المسافة بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٦٥ ! • اختفت الوجوه القديمة مثل طنطاوى اسماعيل وعباس فوزى وغدلى المؤذن وعبد الرحمن شعبان وعم صفر • اجتاحت السكرتارية موجة من الشباب نصفها من الجنس اللطيف ، وها هى كاميليا زهران تنضم اليها ، كأحدث قطفة من تلك الأزهار • وكنا ألفنا وجودهن بينا ، كما ألفنا الشائعات التى تلاحقهن فى الفترة الحرجة التى تسبق الزواج • وأكثرهن تزوجن من شبان خارج وزارتنا عدا واحدة تزوجت من زميل فى الادارة القانونية • ولم تهجر واحدة منهن العمل بسبب الزواج ••

وكاميليا زهران حقوقية فى الثالثة والعشرين ، وقد استقبلت عملها بامتعاض للاحاقها بعمل كتابى بعد دراسة قانونية قوشك أن تذهب هباء • وسرنى أن أطلع فى عينيها نظرة مستقيمة وجريئة جاوزت بشكل ملموس نظرة الحریم المستكينة الخاملة ، ومع ذلك شعرت بطريقة بما بعمق تجربتها

فى الحياة ، وأنها لا تكاد تختلف فى أمر جوهرى من هذه
المناحية عن زميلها الجالس الى جانبها • وسرعان ما رفع
الحجاب الكلفة بينها وبين الزملاء ولكنه لم يجاوز حدود الأدب
التقليدية ، شأن من تنظر الى المستقبل بحكمة وتعمل حساباً
للعقد الشرقية التى يحملها الزملاء من أسلافهم فى البيوت •
وعقب الاجازات الصيفية حدثنى زميل قديم نسبياً فى
الادارة فقال :

— لعلك لا تدري أن كاميليا زهران راقصة بارعة ؟
فسألته بدهشة :
— راقصة ؟ !

— رأيتها فى هانوفيل تراقص شاباً وكانت مندمجة فى
الرقص بنشوة كأنها نعمة ••
فقلت متوثباً للدفاع :

— لم يعد عيباً ما كان يعد عيباً على أيامنا ••
فهرس رأسه قليلاً ثم قال :

— أود أن أتخيل كيف تكون الحياة مع زوجة مثلها ؟
فقلت :

— إن نسبة الطلاق فى هذه الأيام أقل من نظيرتها على
أيامنا وكذلك نسبة تعدد الزوجات !
فقال ضاحكاً :

— الظاهر أنك رجل عصى رغم كهولتك ؟
— أود لو كنت من أبناء هذا الجيل ، لا استخفأنا بمتاعبه

ولكن لتخففه من كثير من العقد التي نغضت علينا صفو الحياة •

وقد قلت مثل ذلك لصديقي رضا حمادة وهو أقرب أصدقائي
القدامى الى المحافظة فسألنى عما أعنى فقلت :

— تبادل الحب فى جو من الصراحة الصحية خير من الكبت
والثقل بين أذرع البغايا ••

فقال بارتياح :

— يخيل الى أن الحب كالديموقراطية أصبح معدودا من
المهازل البائدة !

وكنت أرهف السمع كلما دار الحديث بين الشباب فى
ادارتنا ، ومن كلمات متناثرة أدركت أشياء لا بأس بها ،
خاصة عن كاميليا التى استحوذت على اهتمامى أكثر من غيرها
لحدثتها • فأسرتها مثلا متوسطة وهى أول من توظف من اخوة
خمس ، وليس من الصعب تخيل المتاعب التى تعانيها أسرة من
ذلك النوع والدرجة ، ولا المتاعب التى تتحدى الفتاة كائساسة
مستقلة ومسئولة عن نفسها وربما عن أسرتها جزئيا ،
وما تطالبها به الحياة العصرية من نفقات وما يطالبها به المستقبل
كفتاة تتطلع الى عريس محترم • ولذلك فان اهتمامها بالشئون
العامة اهتمام سطحى ، وهى نسلم بأشياء تسليما واقعيا دون
تفكير ولا ايجابية مثل الدين والثورة ، ولكن حياتها الخاصة

هى تشغلها الشاغل ، وما حياتها الا الحب والزواج . وثمرات الحضارة الحديثة .

وندر أن صادفتنا أنثى تهتم اهتماما حقيقيا بالدين أو الفلسفة أو السياسة ، ولعل تفسير ذلك أننا لا نزال منهن الا الأوساط أما النابغات فلهن طريق آخر فى الجامعات أو الحياة العامة . وللدكتور زهير كامل رأى فى الموضوع . قال :

— عدم اهتمام المرأة بالعقائد والفلسفات يقطع بأنها —
العقائد والفلسفات — معطلة للنشاط الحيوى الحقيقى ..

وقال أيضا :

— المرأة لا تعنى الا بالخلق وما يتعلق به ، هى خالق جميل ، الخالق محور حياتها كلها ، أما ما عدا ذلك من نشاطات فهى من صنع الرجل وهى ضرورية للسيطرة لا للخلق !

وقال أيضا :

— الدنيا هى هدف المرأة ومعبودتها ، وبمعنى آخر هى هدف الخلق ، وهذا يدل على أننا خلقنا لنهتم بالدنيا دون سواها ، وأن كل ما عداها باطل ، وأن الخلود يجب أن يتحقق فيها ، ولو أن الأديان تصورت الله على صورة امرأة لأهدتنا حكمة جديدة هى السعادة الحقيقية !

وربما تعذر تفسير هذه الآراء على ضوء ما عرفنا من عقلية زهير كامل ، ولكن لن يتعذر تفسيرها على



ضوء حياته اذ كان يعاني الحنين الى زوجته وابنته اللتين
هاجرتا الى الخارج كما كان يفتح قلبه لحب جديد ، حب نعمات
عارف . وكانت تظانا بشحابة من الغم والنكد في أعقاب هزيمة
يونية عندهما قال لي الزميل القديم :

— توجد أحداث غريبة لا صلة لها بالمعركة . .

فسألته عما يعنى فقال :

— داميلبا زهران تلعب مع المدير العام تلك اللعبة القديمة :

حقا اصبح المديرون في سنن الشباب لا كالعهد القديم ،
ومديرنا العام في الأربعين ولكنه متزوج وأب وذو سمعة
من هذه الناحية على الأقل — ضحية . قلت :

— ولعلها اشارة .

— ولعلها حقيقة !

فسألته :

— وما تفسيرك للأمر ؟

— لعله حب ، وان صح هذا الفرض فسيخرب بيت ويقام

مكانه بيت جديد . .

وصمت مليا ثم عاد يقول .

— ولعلها اللعبة القديمة على طريقة شرارة النحان .

— هل تسلفت انتهازية جيلنا الى الجيل الطازج ؟

— ان المغريبات اليوم أقوى وأعنف . .

فقلت بامتعاض :

— لعل الانتهازية يعترف بها في النهاية باعتبارها أخلاقاً جديدة ، ومهارات جديدة مثل التكنولوجيا !

وحدثت صديقى الدكتور عزمى شاكر فى الموضوع وقلت له :

— أنك مفكر بارع ، فلم لا تدرس الأخلاق الجديدة ؟
أعنى الأخلاق الصالحة للعصر الحديث ، التى يجب أن تستلهم من المجتمع الجديد لا من القيم القديمة ..
فسألنى :

— ما الذى دعاك الى هذا التفكير ؟
فقلت وأنا من الاستياء فى غاية :

— انظر الى مال صديقنا الدكتور كامل رمزى ، وعندى
نظائر له عرفتهم فى مجرى الحياة ممن نعدهم أمثلة طيبة
للإنسان ، ألا يجوز أن أخلاقهم لم تعد صالحة للعالم الحديث ؟
فقال باسمما :

— أنك تنفخ عن مرارة نفسك ..

— الحق انى حائر وحزين ..

وتفشت الشائعات عن كاميليا والمدير ، وأصبح الشك
يقينا عندما نقلت أخيراً الى الادارة القانونية ، ولكن لم يخرب
بيت ولم يطم محله بيت جديد ، ولما تعين عندنا صبرى جاد
نشأت بينه وبين الفتاة علاقة حب صادقة . ومع أنه بدا أول
الأمر متمرداً ومستهتراً الا أنه أحب كاميليا كما أحبته ، وبالرغم
من أنه كان يصغرها بعامين أو أكثر الا أنهما أعلننا خطوبتهما

رسميا • وسعدت أنا شخصيا بهذه النهاية السعيدة ، التي
شدت الاثنين الى حياة أصيلة ومسئولية جادة من شأنها أن
تعيد خلق الانسان وتضمه الى الركب الجاد فى الطريق •
ويوما بعد يوم فان ايمانى يرسخ بأن نقاء الانسان يجيء من
الخارج بقدر ما يجيء من الداخل ، وأن علينا أن نوفر الضوء
والهواء النقي اذا أردنا أزهارا يانعة •

ماهر عبد الكريم

كان أستاذا مساعدا بالكلية عندما التحقت بها عام ١٩٣٠ • وكان فى منتصف الحلقة الرابعة ، يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك — ولم أعرف أستاذا فتن طلبته بسجاياها الروحية وسماحة وجهه مثله • وهو سليل أسرة عريقة ، عرفت بثرائها كما عرفت فى التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطنى ، وعد هو بالتبعية من الموالين للحزب ، ولكن ذلك لم ينل من حبنا له ، والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسى قط ، ولم يقع فى رذيلة التعصب أبدا ، ولم ينطق فى حديث عن هوى أو تحيز أو حقد ، ووهب نفسه للعلم والخير • قال لنا مرة الدكتور إبراهيم عقل :

— !و كان جميع الأغنياء • مثل ماهر عبد الكريم لقررت أن المثل الأعلى للإنسان أن يكون غنيا ! •

والحق أن كرمه كان يلتهم ثروته ، فلم يصد محتاجا قط ، وكان يجود بالاحسان سرا كأنما يتستر على عيب ، وكان مثالا لسعة الصدر ، هكذا كان فى مناقشاته العلمية والعامة ، بل والسياسية إذا جر إليها جرا ، وكان أسارى وجهه لم تهيا أصلا إلا للتعبير عن التأمل أو الترحيب أو البشاشة ، وغير

قابلية للافصاح عن الحدة أو الغضب • وكان قصره القديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر ، وبه متسع دائما لطلبته فيقدمهم الى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد ، وما أكثر الذين عرفتهم في صالونه من رجال الفكر • وكان التيار الجارف في أحاديث الصالون ثقافيا بالمعنى العام ولم تكن السياسة لتخالطه إلا في ظروف نادرة ، ومع ذلك لم يتردد الأستاذ سالم جبر عن إثارة موضوع فوارق الطبقات يوما من أيام عام ١٩٣١ عقب عودته من رحلة في فرنسا ، قال :

— انهم في بعض الأوساط يحتقروننا لسوء حال شعبنا :

فابتسم الدكتور ماهر عبد الكريم وقال :

— أعتقد أنها حالة سيئة •

فقال الدكتور ابراهيم عقل مخاطبا سالم جبر :

— انك تزور في فرنسا أوساطا متطرفة لعلها تضمر نفس الاحتقار لفرنسا أيضا ، على أن الانسان لا يتقرر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبه ، وأنا شخصا أعتبر الفقير الهندي أجل انسانية من فورد أوركفلر !

واحتد سالم جبر فاتهمه بالمثالية الرجعية ، كما اتهمه بالصوفية التي يعدها مسئولة عن تأخر الشرق .

ولم يكن ماهر عبد الكريم يفكر كما يفكر سالم جبر ولكنه

اعتقد دائما بأن الاسلام يكفل للناس عدالة اجتماعية شاملة ،
كما اعتقد أن نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى •
ويوما دعاني أنا وجعفر خليل — عقب إحدى المحاضرات —
لقابلته في قصر المنيرة ، ووجدناه وحده في بهو الاستقبال ،
فرحب بنا وقال : .

— ستزورني آنسة أمريكية بناء على طلبها وقد اخترتكما
مترجمين بيني وبينها ••

وكان يجهل الانجليزية ، ولعله فضل أن يستعين بنا على
أن يستعين بأحد من زملائه الكبار حتى تتبين له أسباب الزيارة
الغريبة • وعند الغروب قدمت فتاة شقراء آية في الجمال ، في
العشرين من عمرها ، فسلمت وجلست وهي تعتذر عن تطفلها •
وقدم لنا الشاي والحلوى ، وراحت الفتاة تقص قصتها فقالت
انها تزور مصر ضمن مجموعة من الشباب ، وأن أمها كلفتها
بالبحث عن شخص في مصر يدعى ماهر عبد الكريم كان طالبا
بالسوربون في أعقاب الحرب العظمى ، وأن مدير الفندق
دلها عليه وطلب قصره لها بالتليفون ، ووضح لنا من تبادل
الحديث أن أمها كانت زميلة لأستاذنا في باريس ، وأنها
كانت صديقته أيضا ، وأنها انتهزت فرصة سفر ابنتها الى
مصر لتحملها تحياتها اليه •

وعلى طول الزيارة دار الحديث حول الذكريات القديمة

الجميلة ، وما آل اليه حال الصديقين القديمين في الوقت
الحاضر . وعندما غادرنا القصر قلت لجعفر خليل :
— الظاهر أن تأثير أستاذنا فيمن حوله سجية قديمة فيه
منذ عهد الشباب . .

فغمر جعفر بعينه وقال ضاحكا :
— ولكن التأثير في النساء ذو مغزى آخر !
ثم قال بايمان :
— الحق أن جمال الرجل يؤهله لدور الفتى الأول في
أفلامنا !
فرددت قول الفرزدق الذي كان يذكرني دائما بوجه
أستاذنا :

يغضى حياء ويغضى من مهابتـه
فما يكلم الا حين يتسم
وقلت لجعفر :

— ما أتصوره أبدا متخليا عن وقاره ، فإذا كان الوقار
لباسا لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم .
والحق أنه لم يؤخذ عليه طوال حياته ما يمس السمعة
أو السلوك . وعند هذه النقطة أرى لزاما على أن أعرض
لشائعة اقتحمته في فترة القلاقل التي اتسمت بالاغتيالات
السياسية في أعقاب الحرب العظمى الثانية . قيل أنه رفع
خطابا سريا الى الملك فاروق يحذر من مغبة التمرد الذي يجتاح
الشباب ، مفصلا أسبابه وبواعثه ومقترحا العلاج له . سمعنا
ذلك فيما نسمع من شائعات في المقاهي ، وحتى اليوم لم

أتأكد من صدق الشائعة ، وكل ما قيل عنها كان ضرباً من التخمين ونتيجة للأهواء السياسية المتنازعة ، فقال وفديون انه اقترح على الملك حل الأحزاب واقامة ديكتاتورية صالحة تعجل بالاصلاح وتربى الشباب تربية دينية علمية ، وقال المتطرفون من تلاميذ سالم جبر انها دعوة لثورة مضادة يراد بها تفادى الثورة الحقيقية • أما أنا فسأنتى الرسالة — مهما كان مضمونها — باعتبارها انتهاكا لحرية الدستور واستهتاراً بسلطة الشعب ، ووجدتني فى حرج شديد بين اجلالى لأستاذى وبين موقفى السياسى الواضح ، ووجدت خرجاً أكثر من مفاتحته بالموضوع ، غير أن جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته ! • حدث ذلك عندما زرنا الأستاذ معا ليودعه جعفر خليل قبل سفره الى الولايات المتحدة ، وعند ذاك أخبره صديقى المرحوم بما يشاع وبما يقال • وأنصت الدكتور فى هدوء وابتسام ، ثم سأله :

— صدقت ما يشاع وما يقال ؟

فتراجع جعفر خليل قائلاً :

— كلا •

فأكتفى الأستاذ بقوله :

— عظيم !

ويدعونى ذلك الى تذكر رأى رجلين فيه ، أحدهما صديق له قديم هو الأستاذ سالم جبر ، والآخر مريد من مريديه هو الأستاذ عباس فوزى • أما سالم جبر فكان يحبه

ويعجب به ولكنه يرى أنه من طبقة النبلاء ، لم يعرف الفقر .
ويرى الشعب من فوق ، وله رؤيته الخاصة وهي رغم جاذبيتها
ونقاؤها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر .

أما عباس فوزى - معجم السخریات اللاذعة - فكان
يعرب عن رأيه فيه ولكن فى حذر وعلى مهل ونقطة نقطة
متجنباً سكب ما فى نفسه دفعة واحدة . فيوما قال عنه :
- انه وجيه نبيل ، مملوك من نسل ممالك !

وتأملت قوله طويلا على ضيوء ما أعرفه من خبثه وساءلت
نفسى عما يقصد الشيطان . ومرة استمع الى ثناء جميل منى
على الأستاذ ثم قال :

- هذه هى فضائل الأغنياء النبلاء وهى فضائل لم تتعرض
للتجارب المريرة !
ومرة ثالثة قال لى :

- فى مصر لا يجتمع النبل والثروة والعلم ، ولكن النبيل
الغنى متعالماً ، يستغل ذكاء الفقراء ، يجمعون له مواد البحث
ويقترحون عليه الأفكار ، أما هو فيصغى بوقار ويوقع
بامضائه !

ومرة رابعة قال لى :

- أستاذك ذواق لكل طعام جيد ، يلتهم فى اليوم ما يكفى
لغذاء لواء من الجيش ، خبرنى يا عزيزى متى يفرغ من
الهضم ليتفرغ للتفكير والبحث ؟ !

ولكننا كنا نتصل بعقل الأستاذ اتصالاً مباشراً ونذكر

مدى ما يتمتع به من دقة ووضوح وغزارة فى العلم ، ومرت به الأحداث وهو ثابت فى وقاره ، ولكنى استشففت قلقا فى ذاته فى مواقف من حياتنا لا تنسى ، مثل الاغتيالات السياسية . حريق القاهرة ، ثورة يولية . القوانين الاشتراكية ، ولكنه لم يجاوز القصد أبدا ، ولا أظن أن اقطاعيا تلقى الضربة التاريخية فى مثل هدوئه ، تلك الضربة التى نزعته من يده عشرة آلاف من الأفدنة ، وقد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى فيلا جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأى ، وواصل عمله الجامعى بنفس الهمة حتى أحيل الى الانعاش عام ١٩٥٤ لبلوغه السن القانونية ، فعمل أستاذًا زائرا . وعين عضوا فى المجلس الأعلى للأداب ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى . أذن قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التى أبعدته عن الشبهات ، وهو وإن لم يعلن ولاءه للثورة لبعده عن مجالات الاعلام ولرغبته عن اقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشيء مما يمس الكرامة ، فإنه لم يتردد فى اعلان ذلك الولاء فى مجالسه الخاصة ، فقال يوما :

— انى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن عمله كى يصلح الوطن للحياة ويصلح الحياة له .

ولم استشعر فى حديثه أو سلوكه أى أثر لمزارة ،

ولا معنى بعد ذلك للتثقيب فى الأفئدة فلا يطالب مثله بأكثر من ذلك ، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلاً لاقتلاع طبقته ، وأن يقنع نفسه بها فلسفياً كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر . وفى عام ١٩٦٩ احتفل بعيد ميلاده الخامس والسبعين ، فازدحم الصالون بمن بقى على قيد الحياة من أساتذة الجامعة القدامى ، وبالأصدقاء سالم جبر ورضا حمادة وعزى شاكر وكامل رمزى وقدرى رزق وجاد أبو العلا وعباس فوزى وصادق عبد الحميد ونعمات عارف نيابة عن زوجها زهير كامل ، وهفت على ذكريات إبراهيم عقل وجعفر خليل . ورأيت قلة من الشباب بينهم صبرى جاد وزوجته كاميليا زهران ، ولكن غلب الشعر الأبيض والتجاعيد والنظرات المجردة والعصى ، ولم أشعر من قبل كما شعرت ذلك اليوم بمرور الزمن وثقله وجلاله وغدره وأبديته وأثره وترفعه وتواضعه وحكمته ونزقه ، كأنما غفوت فى الديزل اغفاءة طويلة استيقظت بعدها فى محطة سيدى جابر . ورغم كل شئ فقد بقى لماهر عبد الكريم عيناه الزرقاوان الواسعتان وابتهسامته الغازية ووقاره العذب . قال استاذنا :

— لا احتفال بالمعنى الحقيقى لهذه الكلمة ، فلا يجوز أن نحفل ونحن نقاتل ، ولكنها فرصة طيبة للاجتماع .

وشرق الحديث وغرب ولكنه كان يرتد الى بؤرة واحدة . هى الصراع فى الشرق الأوسط ، ويعالج على مستويات

سياسية واقتصادية وفلسفية ودينية ، ويتفرع الى الموقف
العالمى والكشوف العلمية والمشكلات العامة الانسانية
والاضطرابات الخطيرة فى الغرب والشرق وذبول القيم
والمستقبل ، أجل المستقبل ، وبأى وجه يطالعنا • وطغت موجة
من التشاؤم ، وترددت كالهتف المطرب بين الشيوخ ، طوبة
يرمون بها الدنيا المولية ، واشترك أستاذنا فى الجوقة ولكن
بنغمة أخرى ، وفجأة قال :

— رحم الله إبراهيم عقل ••

ما الذى دعاه الى تذكره ؟ • كان أحب الأصدقاء الى
قلبه ، ولم أشهد دمه الا يوم جنازته عام ١٩٥٧ ، وتذكرت
بدورى كلمته لنا قبيل التخرج • وعاد يقول :

— سلم بالايهان تسليمه بالموت وبالحقائق المموسة مثل

شروق الشمس ••

وابتسم طويلا ثم قال :

— قولوا فى الدنيا ما شئتم ، لا جديد فى التشاؤم ، ولكن
الحياة فى صالح الانسان والا ما زاد عدده باطراد ، وما زادت
سيطرته على دنياه •

محمود درويش

كان يستلفت الأنظار بين طلبة الكلية بطول قامته ونحول
قدمه ، وسرعان ما تميز بذكائه واجتهاده الخارق فاكتسب مكانة
محترمة بين الزملاء ولدى الأساتذة المصريين والأجانب ، وكان
دقيق الملامح وسيما ولكنه كان أيضا جافا منطويا على نفسه ،
يزامل ويصاحب ولكنه لا يعرف الصداقة ، كان صديقه الحقيقي
الكتاب • وكان أبوه امام مسجد بالجيزة ، يشكو كثرة العيال
وقلة المال ، فكان محمود درويش يعاني حياة متقشفة ، ومن
أول يوم نشأ سوء تفاهم بينه وبين عجلان ثابت ، اذ سمع
عجلان محمود وهو يقول ان أماء امام مسجد فضحك ، فسأله
محمود درويش :

— ماذا يضحك ؟

فأجاب عجلان :

— ألا يضحك أن تكون الامامة وظيفة ؟

فغضب محمود وقال له :

— أنت قليل الأدب •

وهتف به عجلان :

— اخرس !

وفصلنا بينهما ، ولكنهما أصرا على الخصام الى النهاية ،
وفى حادثة سرقة الطربوش التى اتهم فيها عجلان شهد محمود
ضده ، وكان ضمن الأسباب التى أدت الى فصله من الكلية ،
وقد عاتبناه فى ذلك ولكنه قال :

— لا خير فى أن نقدم للمجتمع لصا متعلما ••

وكانت آثار الكبت والحرمان تتجلى فى عينيه كلما وقع
بصره على طالبة من الطالبات • وأما سعاد وهبى فكادت تتسبب
فى جنونه ، ولكنه بدلا من أن يغازلها أو يحاول ذلك على الأقل
راح يحمل على « تهتكها » حملة كادت تبلغ العلانية ، وكان
أول من أبلغ العميد عن تبرجها ، وعن الفتنة التى تثيرها فى
قاعة المحاضرات • والظاهر أنه تعرض لأزمات عنيفة ،
وصراعات حادة بين حيوته وبين حرمانه الاجبارى ، فلم يجد
أبوه حلا لذلك — بعقليته الريفية الدينية — الا أن يزوجه
من ابنة عم يتيمة يكفلها فرجع الى الكلية فى العام الدراسى
التالى متزوجا من فتاة رفية أمية ، ولكنها أراحت باله ، وأطلقت
قواه فى التحصيل دون عائق • ولم يعد له من اهتمام الا العلم
والتفوق ، وكان اذا احتشد لكتابة بحث ما نكف بكتابته فى
أثناء السنة الدراسية كتبه بذكاء واقتدار وأحاط به احاطة
تقطع باطلاعه الواسع وبدرأيته فى استخراج المراجع • ولذلك
كان يتابعنا أحيانا ونحن نهدر بأحاديث السياسة وكأنه عاقل
يستمع الى مجانين • وتساءل مرة :

— كيف تجدون متسما بعد ذلك للدراسة ؟

فأجاب طالب متعجبا :

— كان الانجيز يحتلون وطننا غير وطنك وخان الملك يستبد
بشعب غير شعبت !

ولم يكن يفرق بين مصطفى النحاس واسماعيل صدقي ؛
وأحيانا كان ينسى اسم « الباشا » الذى يرأس الحكومة .
ولما اجتاحت موجه الاضراب الجامعة وقف حيا لها عاضبا
وعاجزا ، وكان يتسلل الى المكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتى تغلق
ابوابها . ويوما وثب الى منصة الخطابة عقب خطبة ثوريه
القاهها زعيم الطلبة . وثب الى المنصة ، وبجراحة جنونية .
دعا الطلبة الى الانتظام فى العمل والعكوف على الدراسة
باعتبارها هدفهم الأسمى ، وهاج الطلاب وماجوا ، وطالبوا
بانزاله ، ولولا الاحترام الذى اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه
اعتداء مؤكدا . وصدر أمر باغلاق الجامعة شهرا ، وفى أثناء
ذلك قبض على زعماء الطلبة جميعا ، ولما عدنا الى الكلية وجدت
همسا تتناقله الألسنة قال لى جعفر خليل :

— سمعت ؟ •• يقولون ان محمود درويش متصل بإدارة
الأمن العام ••

فأستفطعت ذلك ولم أصدقته فقال :

— يقال ان الذى رشحه لذلك أبوه باعتباره من السنة ادارة
الأمن وعيونهم !

— ولكنه شاب مستقيم !

فقال بحزن :

— ويقال انه هو الذى أُرْسِد الى زعماء الطلبة !

كانت اشاعة قوية ولكن لم يكن من سبيل الى التأكد منها ؛
وقد تحرش به بعض الطلبة وعرضوا بدوره فى المؤامرة ؛
ولكن الدكتور ابراهيم عقل استدعاهم الى مكتبه وهددهم —
اذا عادوا — بابلاغ أمرهم الى الجهات المختصة • وعاشت
الاشاعة معى زمنا طويلا ، وخلقت فى نفسى نفورا منه وبخاصة
وأئننى استثقلت ظله من أول يوم ، وكدت أومن بصدقها عقب
تخرجنا عندهما اختيار محمود درويش عضوا فى بعثة الى
فرنسا فى فترة من الزمن توقفت البعثات فيها تماما • وانقطعت
أخباره عنى أعواما طويلا حتى صادفته فى مكتب الأستاذ عدلى
المؤذن بوزارتنا فتصافحنا وجلسنا نتبادل الحديث • بدا لى
وقتها فى صورة جديدة ، مليئة بالحيوية والصحة والعافية ،
وطالعتنى عيناه من خلال نظارة أنيقة أسبغت على وجهه هيئة
العلماء • قال :

— أنا مدرس اليوم بالكلية • •

فقال عدلى المؤذن :

— وهو شارع فى اصدار سلسلة فى فلسفة التصوف • •

وقال محمود درويش :

— أدركتني الحرب فى فرنسا قبل اتمام الرسالة

فسافرت الى سويسرا وهناك حصلت على الدكتوراه .
ولما غادرنا قال لى عدلى المؤذن ضاحكا :
— عاد خواجا كما ترى ليجد فى انتظاره زوجة ريفية
أمية .

وسألته عما قيل عنه يوما من اتصاله بإدارة الأمن العام
وخاصة وأن عدلى المؤذن كان موظفا فى ذلك الوقت بإدارة
الجامعة فقال عدلى باقتضاب :
— كلام فارغ .

ولما حكيت تلك الواقعة للأستاذ عباس فوزى ضحك طويلا
وقال :

— يا لك من رجل طيب ! : ألا تعلم أن عدلى المؤذن نفسه
كان متصلا وقتها بإدارة الأمن العام ؟

والتقيت — بعد ذلك بأعوام — بالدكتور محمود فى صالون
الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة ، وكانت قدمه قد رسخت
فى عالم التأليف ، وصدر له أكثر من ثلاثة كتب غدت من
المراجع الهامة فى دراسة التصوف فى العصر الحديث ،
وسمعت عنها الثناء تلو الثناء من أستاذنا ماهر عبد الكريم .
ويومها سألته عن أحواله فقال :

— لى أربعة أبناء فى كليات الهندسة والتجارة والحقوق
والآداب وبنت مقروجة من ضابط طيار . .

فسألته باهتمام :

— هن تمارس التصوف ؟

فأجاب ضاحكا :

— كلا ، ولكن لا وراء فى أن الانسان لا يتخصص الا فى
مادة متغلغلة فى نفسه . .

وفكرت فى زوجته التى اختارتها الظروف ربة لبیت من
المثقفين وهى بذائية بكل معنى الكلمة ، فوددت لو أتسلل الى
أعماق ذلك الجانب من حياته ، ولكنه كان يبدو متألقا بالسعادة
والنجاح . وقال لى :

— طبعا علمت بمأساة الدكتور ابراهيم عقل ؟
— طبعا ، كارثة ولا شك ، ولكنى لم أرك فى جنازة ابنیه ؟
— كنت خارج القاهرة ، هل حافظت على اتصالك به مذ
تركت الكلية ؟

— كلا . .

— انه أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين .
والتقيت به مرة أخرى فى صالون المنيرة ، ثم دعى
للتدريس فى إحدى الجامعات العربية فیسافر خارج القطر
وانقطعت عنى أخباره .

مجيدة عبد الرازق

فى زيارة لسالم جبر فى مكتبه بجريدة المصرى عام ١٩٥٠ قدم لى فتاة حسناء قائلا :

— مجيدة عبد الرازق محررة الصفحة النسائية •
كانت فى الثلاثين من عمرها ، رشيقة القوام ، تطالعك
من عينيها السوداوين نظرة ذكية جذابة ، ولها شخصية قوية
تفرض نفسها لدى أول اتصال • والتقيت بها للمرة الثانية
فى حفل انتخابى أقامه الدكتور زهير كامل للدعاية لنفسه
فسألتها :

— اذن فأنت وفدية ؟

فقلت باسمه :

— أنا تلميذة للدكتور زهير كامل •

— آداب ؟

— قسم الصحافة •

— ووفدية ؟

— أبعد من ذلك بكثير !

فتساءلت وأنا أنظر فى عينيها الجميلتين :

— ماذا تعنين ؟

فابتسمت ولم تجب • والتقيت بها للمرة الثالثة فى بيت

زهير كامل، فشعرت بأننا ننتقل من مرحلة التعارف الودى الى
مرحلة الصداقة الحقيقية • وعقب ذهابها قال لى الدكتور
زهير كامل :

— انها مثقفة ثقافة تستحق التقدير وذات شخصية
محترمة •

فقات بحماس :

— أعتقد ذلك •

وهو يبتسم :

— وهى شيوعية أيضا !

— شيوعية ؟ !

— امرأة مصرية معذبة من ضحايا فترة الانتفال •
وجمعت بيننا صداقة وطيدة واحترام متبادل • وكنا
نجتمع فى أوقات متفرقة بجزوبى مع نفر من الأصدقاء ،
فتجالسنا مجالسة الأنداد ، وتتجاهل ايماءات الغزل التى توجه
اليها أحيانا ، باعتبارها عبثا صغيرا ، اذ لم تكن تتبع الحين
النسائية البالية ، ولا تحترم القيم البرجوازية ، ولكنها كانت
تنشد دائما العاطفة الصادقة الأصيلة • قالت لى يوما :

— حذار أن تظن بى البرود !

فتساءلت :

— ما الذى جعلك تفكرين فى ذلك ؟

فقالت بحرارة :

— انى أعبد الحب •

ثم كالمستدركة :

— أعبد الحب والأيدولوجية •

ولما استتب اطمئنانها الى قصت على قصة حياتها فى
مقهى الفيشاوى ، قالت :

— نشأت فى أسرة من البرجوازية الصغيرة ، ربها موظف
معمور ، وكنت البنت الوحيدة بين أربعة ذكور !

فقلت باسم :

— اذن كنت جوهرة مدلاة ..

— بالعكس ، عانيت الاضطهاد من الجميع ، وكان يزداد
يتقدم العمر ، ولكنى فرضت الاحترام عليهم بتفوقى فى
المدرسة ..

فأعلنت اعجابى بابتسامة فقالت :

— وتقدم لى عريس بعد نجاحى فى الثانوية العامة وبالرغم
من ترحيب الجميع به الا أننى اشترطت عليه أن يسمح لى
بإتمام دراستى الجامعية ، فسألنى عن الحكمة وراء ذلك .
فصارحته برغبتى فى العمل ، ولكنه لم يوافق ، وانضم اليه
فى رأى أهلى ولكنى صمت ، فذهب ..

— وحققت مشروعك بالكامل !

— أجل ولكنى عرفت فى الكلية أستاذًا كان له أكبر الأثر
فى حياتى ، طبعًا سمعت عن الأستاذ محمد العارف ؟

— أجل ..

— علمنى العلم وما هو أخطر منه ..

— الشيوعية ؟

— نعم ، ثم ألف بيننا حب عميق ، وسرعان ما تزوجنا بعد
تخرجى مباشرة ..

فقلت بدهشة :

— حسبك غير متزوجة :

— عشت أياما سعيدة وأنجيت توأمين ذكرا وأنثى •

— جميل حقا •

— وكانت أمه هي ربة بيتنا فلما توفيت اعترضتنا متاعب
فتمزقت بين العمل في الجريدة وبين واجبات البيت . وكان
زوجى يحب النظام كما يحب أن يكون موضع الرعاية فاقترح
على أن أتفرغ للبيت ..

— رأى لا يخلو من وجاهة •

فقالت بحدة :

— كلا ، كانت لى آمالى الخاصة أيضا قرفضت ، ولم
أجد منه عطا ولا تقديرا •

فلم أنبس بكلمة فقالت :

— وتكشفت لى أنانيته وقلة أدبه ورغبته الدفينية فى
السيادة ، واشتعل بيتنا بالعنف والخصام ، ثم انتهى الأمر
بالطلاق ..

— متى وقع ذلك ؟

— أيام الكوليرا !

فسألت باشفاق :

— وكيف حالك الآن ؟

فقالت بمباهاة :

— أتقدم فى عملى كما ترى ، وتعاوننى فى تربية الطفلين
المرأة طيبة ، وهو يمدنى بالنفقة الشرعية •

ولما قامت ثورة يوليو بذرت فى ساحة صداقتنا الهادئة
بذور خلاف عنيد لأول مرة . فاتهمتها بأنها ثورة رجعية ،
أو لون جديد من الفاشستية ، أو انقلاب برجوازي صغير
يشبع تطلعات أمثالى من البرجوازيين الصغار ! • وأصرت على
رأيها حتى اتجهت الثورة الى الكتلة الشرقية فأخذ عنادها يلين
ورأيها يتغير • وساءتنى وحدتها كثيرا • وشعرت بأنها تعاني
منها مرارة حادة ، ولكنها رفضت دائما رغبات الزملاء الجامعة
العابثة انتظارا للحب الحقيقي الذى تعبده كما قالت لى من
قديم • وبصراحتها العذبة قالت لى مرة :

— خدعت مرة واحدة !

— لا أصدق •

— طبيب أطفالى عليه اللعنة !

— ولكن كيف • • ؟

— وكان أيضا متزوجا !

— ولكن الرجل المتزوج • • • ؟ !

— خطأ حقيقة ولكنه الحب ، وأفهمنى أنه غير سعيد وأنه

سيطلق لأسباب لا تتعلق بى !

— وصدقته ؟

— ما أفظع الخداع ، أنه أنكر من القتل ، وسلمت بدون

قيد ولا شرط •

— شئ فظيع حقا •

من عليه اللعنة ، وكانت أيامه سوداء كخداعه فكنا نلتقى
فى عيادته فى جو غارات الاعتداء الثلاثى •

ومنذ تلك التجربة المريرة استقر سوء الظن فى أعماقها
فتضاعف شعورها بوحدها وحنينها الى الحب الحقيقى •
ومضى يغزوها الزمن حتى بلغت اليوم الخمسين من عمرها ،
وقد تزوجت ابنتها ، وسافر ابنها للعمل فى اذاعة الكويت ،
فغرقت فى الوحدة والكهولة حتى قمة الرأس • وما زالت حتى
اليوم محافظة على رشاقة قدها ، ومسحة من جمالها ، واذا
دعيت الى التلفزيون فهى تستأثر بالأنظار والأسماع بقوة
شخصيتها ومرونة منطقتها وغزارة معلوماتها ، واذا خلوت
اليها خيل الى أنى استمع الى وحوحة تنادى من أعماقها •

وما زالت مواظبة على زيارة أستاذها القديم الدكتور زهير
كامل ، كما نشأت صداقة حميمة بينها وبين زوجته الجديدة
الصغيرة نعمات عارف ، ولا شك أنها علمت بعلاقتها بالدكتور
صادق عبد الحميد ، ولكنها تجاهلت ذلك تماما ، وتمنت
ألا تتكشف الحقيقة لأستاذها أبدا • وعلمت أخيرا — وسعدت
بذلك جدا — أنها ستقوم برحلة صحفية لزيارة بلاد حوض
البحر الأبيض المتوسط فقلت لعلها تجد فيها تسلية عن وحدتها
وتجديدا لحبائها ومادة طريفة لقلمها •

ناجى مرقص

لا أنسى هذا الاسم أبدا ، لم يمح من ذاكرتى كأنه اسم علم من الأعلام ، رغم أننى لم أزاله الا ثلاثة أعوام من حياتى ، ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ فى المدرسة الثانوية . أمضى فترة الدراسة الابتدائية فى أبسودان حيث كان يعمل والده . ولما عاد الرجل الى مصر أقام فى العباسية وألحق ابنه بمدرستنا . وقال ناجى لى يوما :

— كنا اخوة أربعة ، مات ثلاثة ، وبقيت أنا .

وقال لى مرة أخرى :

— أمى حزينة لا تضحك أبدا .

وكان رشقا طويلا وسيم الوجه لطيفا مهذبا ورزينا . الدرجة لا تناسب سنه ولعله كان الوحيد فى سنة أولى الذى يلبس بنطلونا طويلا . وربما كان أنبع تلميذ صادفته فى حياتى . كان لكل تلميذ مجال فى تفوقه ان وجد ، فتلميذ يتفوق فى اللغات وآخر يتفوق فى الرياضيات وهكذا أما ناجى مرقص فكان متفوقا ممتازا فى جميع المواد ، فى العربية والانجليزية والفرنسية والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا . وكان الأول دون نزاع وكان

المدرسون على اختلاف جنسياتهم من مصريين وانجليز
وفرنسيين يحترمونه ويعاملونه كأنه رجل لا تلميذ • وكان
بدر الزياى يسمى به عبد الحليم المصرى تشبيها لتفوقه بقوة
المصارع الشهير • وسأله يوما :

— كيف تفوقت فى جميع المواد ؟

فأجاب بأدبه الجم :

— أنتبه فى الفصل وأذاكر من أول يوم فى السنة
الدراسية •

وسأله جعفر خليل :

— ألا تذهب الى السينما كل خميس ؟

— فى الأعياد والمواسم فقط •

فسأله عيد منصور :

— ألا تلعب الكرة ؟

— كلا •

فسأله رضا حمادة :

— أليس لك هواية ؟

فأجاب :

— أعزف على البيانو فى أوقات الفراغ •

فقال له رضا :

— انك لا تشترك فى الاضرابات أهلا تهتم بالوطنية ؟

— أهتم بها طبعاً ولكن ••

وتردد لحظات ثم قال :

— ولكن أخى الأكبر قتل فى مظاهرة !

ونجح فى امتحان الكفاءة بتفوق فجاء ترتيبه بين العشرة
الأوائل فى القطر كله ، وعندما عدنا الى المدرسة فى بدء العام
الدراسى الجديد لم نعثر لفاجى مرقص على أثر لا فى القسم
العلمى ولا القسم الأدبى •

وتساءلنا عن سر اختفائه دون أن نظفر بجواب • وكان
يسكن بعيدا عن حيننا فى أطراف العباسية المشرفة على منشية
البكرى فذهبنا الى مسكنه نستطلع فعلمنا هناك بأنه أصيب فى
صدره وأنه أرسل الى جدته بصعيد مصر ليعالج وان علاجه
سيستغرق عاما كاملا فى أقل تقدير • أحزننا الخبر كما أحزن
جميع أقرانه ومدرسيه ، وأرسلنا اليه رسالة جماعية حملناها
تحياتنا وتمنياتنا له بالشفاء العاجل • وحدث فى ذلك الوقت
أن قدم مصطفى النحاس الى المحاكمة فى قضية سيف الدين
فبرأته المحكمة العليا ، وذهبت وفود من الشعب الى بيت الأمة
تهنئه ، وذهب فيمن ذهب والد صديقنا وهو موظف فى وزارة
الحربية ، وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهنيين
فقدرت الوزارة فصله • وشق على الرجل الرفق وكان فقيرا
كما كان مريضا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه • وشفى
فاجى من مرضه ولكنه عجز عن مواصلة التعليم فانتهاز أهل
الخير فرصة عودة الوفد الى الحكم وسعوا الى تعيين الشاب
الصغير فى وزارة الحربية فتعين فى وظيفة صغيرة خارج
الهيئة ، كذلك قضت الظروف على أنبغ تلميذ فى جيلنا • وكثيرا

ما كنت أتذكره وأتحسر على نهايته ، وكلما صادفنى شيء من التوفيق فى حياتى الدراسية أو العملية تذكرته فداخلى الأسى وتخيلت الأمجاد التى وئدت بضربة عمياء من ضربات العيث • ومضت أعوام فأعوام دون أن نفع عليه عيناى أو أسمع عنه ذكرا حتى التقيت به مصادفة فى كازينو حديقة الأزبكية عام ١٩٦٠ • مررت به أول الأمر دون أن أفطن الى هويته اذ جذبت عيني لحبته البيضاء فحسبته فنا ، ثم سمعت صوته ينادينى فالتفت الى وجهه وعرفته فى الحال • وتصافحنا بحرارة ثم جلسنا حول مائدة متواجحين • لم يكد يتغير وجهه لولا لحبته وشيبة رأسه ، وانبعثت من جملة منظره شفافية عذبة كالعبير الحلو أو الطمأنينة الشاملة • وتذاكرنا الماضى والزملاء ، من رحلوا مثل بدر الزياى وجعفر خليل ، ومن نبغوا فى الحياة مثل رضا حمادة وسرور عبد الباقي وغيرهما ، ثم جاء دوره فقال :

— ما زلت موظفا بوزارة الدفاع ووصلت الى الدرجة الثالثة ، متزوج وأب لفتاة فى العشرين طالبة بكلية العلوم • • وسكت قليلا ثم استطرد :

— اتجهت من قديم الى دراسة الروحانيات ، عن طريق الكتب والمراسلة • •

فقلت له :

— قرأت بعض الكتب عنها •

فابتسم قائلا :

— انى أدرسها وأمارسها !

— حقا ؟ !

فقال بوجد وحماس :

— عالم الروح عالم عجيب ، أعجب من عالم المادة ..

فتابعته باهتمام واحترام فاستطرد :

— وهو أملك الانسان فى الخلاص الحقيقى •

فقلت مجاملا وصادقا فى آن :

— الانسان فى حاجة الى الخلاص •

فقال بحرارة متشجعا باقبالى :

— حضارتنا مادية ، وهى تحقق بالعلم — كل يوم —

انتصارات مذهلة وتمهد لسيطرة الانسان على دنياه ولكن

ما جدوى أن تملك الدنيا وتفقد نفسك ؟

فقلت بحذر :

— على الانسان أن يملك الاثنين !

فابتسم بعذوبة وقال :

— لعلك لا تؤمن بقولى ، أو لعلك لا تؤمن به كل الايمان ،

ولكن ثق من أن عالم الروح حافل بالمجاهل كعالم المادة ، وأن

التنقيب فيه بعد الانسان بانتصارات مذهلة لا تقل عن

انتصاراته فى غزو الفضاء ، وأنه لا ينقصنا الا أن نؤمن

بمنهج روحى كما نؤمن بالمنهج العلمى ، وأن نؤمن أيضا بأن

الحقيقة الكاملة هى ملتقى طريقين لا غاية طريق واحد ..

— حكمة معقولة ..

فرنا الى بنظرة حنون من عينيه السوداوين — أدركت
لونهما لأول مرة — وقال برثاء وشفافية :

— ما أضعف صوت الحق وسط هدير الآلات ، ولكن
ما أحوج الانسانية اليوم الى منقذ ..

فسألته بحب استطلاع :

— كيف تتصور المنقذ ؟

— أتصوره رجلا أو فكرة أو درسا باهظ الثمن !

— كحرب ذرية ؟

— ربما ، على أى حال أشعر بأن ثمة حجابا يفصل بينى
وبينك ولكنه حجاب شفاف ضعيف الجذور ، وأن استعدادك
لحب الحقيقة كبير ، وانى أماربئ تحضير الأرواح فى بيتى
فلعلك تزورنى يوما ..

وأعطانى بطاقته التى لم يطبع عليها الا الاسم والوظيفة
والمعنوان بشارع ديز الملاك . ومع أننى تلقيت كلماته بحب
لا باقتناع الا أنه خطر فى جحيم حياتى كعبير زهر اللارنج .
وفى مساء اليوم نفسه قابلت الأستاذ سالم جبر فى مكتبه
بالجريدة ، وحدثته عن ناجى مرقص ودعوته ، وباغراء وتحد
معا عرضت عليه أن نزوره معا ، ولكنه استسخف الفكرة :
وذكرنى بأنه لم يعد يوجد فاصل بين عالمى المادة والروح :
وأن التوغل فى حقيقة المادة هو توغل فى حقيقة الروح ، وأن
صديقك يدعوك الى طقوس سحرية فى عصر الفضاء ! . ولم
أر ناجى مرقص بعد ذلك ولكنه يهفو على قلبى أحيانا بذكريات
الصبا فأدرك أنه يعيش فى ركن من نفسى ..

نادر پرهان

كان بطلا من الأبطال في حياتنا الصغيرة بالمدرسة الابتدائية ما بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٥ • كان يكبرنا بأعوام ، وكان قويا طويل القامة ، ومنذ أول يوم لنا في المدرسة قيل لنا انه زعيم التلاميذ بالمدرسة • وكنا نلتف حوله في فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمام • وكان يقول :
— لا تستصغروا أنفسكم فأنتم جنود سعد ، أي جنود الوطن ••

وكان يقول أيضا :
— علينا أن نوطن أنفسنا على قبول الضرب أو السجن أو حتى المشقة ، فلا قيمة للحياة بلا حرية ، ولا حرية بلا تضحية ، وقد أرسل الله لنا سعد زغلول زعيما وعلينا أن نكون جديرين بزعامته ••

وكنت أجهل وأعجب به وكان رضا حمادة يعبده ولم يجرؤ سيد شعير أو خليل زكي على السخرية منه ، أما اذا حدث عن زيارته لبيت الأمة ومحاوراته مع الزعيم فكان يبهشنا لحد الجنون ، ونفد مني الصبر فاقتربت منه ذات يوم وقلت :
— أريد رؤية سعد بالعين فهلا أخذتنا الى بيت الأمة ؟
فنظر الى بعطف وقال :

— ما زلت صغيرا تسير فى بنطلون قصير ، وزيارة بيت
الأمة مغامرة خطيرة لا رحله امنة ..

وكان اذا تقرر اضراب ومظاهرة انتظر نادر برهان حتى
تنتظما طوابير الصباح ، ثم ينقدم خطوات الى الامام ويأخذ
فى التصفيق بقوة ، وسرعان ما تدوى الطوابير بالتصفيق .
وعند ذاك يبادر ضباط المدرسة الى طوابير التلاميذ الصغار
ميمضون بهم الى الفصول بسماح من التلاميذ المضربين فنمضى
ونحن نهتف بحياة سعد ، ويذهب الباقون فى مظاهرة على
رأسها نادر برهان الى الطريق فيلتقون بتلاميذ المدارس
الأخرى ، وفى احدى المظاهرات أصيب برصاصة فى ساقه
فقضى فى المستشفى شهرين ثم لازمه عرج خفيف بقية عمره .
وتحت زعامته اشتركت فى أول مظاهرة فى حياتى عام ١٩٢٤ .
دعانا الى الاضراب وخطب فينا قائلا ان الملك فؤاد يريد
التلاعب بالدستور وان سعد زغلول رئيس الوزراء — تلك
المررة — يقف فى صلابة للدفاع عن حقوق الشعب ، وان علينا
أن نذهب الى ميدان عابدين لتأييد الزعيم . ولما كانت الحكومة
شعبية لأول مرة ، ولما كان رئيسها هو وزير الداخلية ، فقد
سمح لنا بالاشتراك فى المظاهرة باعتبارها مظاهرة سلمية ،
وسرنا فى حشود هائلة من التلاميذ والطلاب وأهل البلد
حتى اكتظ بنا ميدان عابدين ، ورحنا ندق باب القصر بأيدينا
وننهتف « سعد أو الثورة » ..

وترامى من بعيد هدير هتاف شامل ايذانا بمقدم الزعيم

لمقابلة الملك • واشتد الضغط حول ممر ضيق شقه رجال
الشرطة بصفين منهم لتسير فيه سيارة الزعيم ، وقلت لرضا
جمادة بسرور غامر :

— ستري أعيننا سعد زغلول •

فقال بحماس :

— نعم ولو لبضع ثوان ••

وتسبللنا بخفة وعناد حتى بلغنا حافة الممر ، ورأينا السيارة
قادمة ببطء شديد والخلق يحيطون بها ويتعلقون بأركانها
ويقفون فوق غطاءها • وتطلعنا بأعين ملهوفة نهمة ولكننا لم
نر الا أجساد البشر ولم يتجل من الزعيم ملمح واحد ، وبؤنا
بحسرة لازمتنا طويلا •

ولما انتقلت الى المدرسة الثانوية انقطعت عني أخبار نادر
برهان • لم أره ولم أسمع عنه ، افترقت عنه عام ١٩٢٥
وانقضت أربعون عاما حتى صادفته في مقهى أسترا شتاء
عام ١٩٦٥ • كنت عائدا من لقاء نهاري مع أمانى محمد فملت
الى مقهى أسترا لأشرب فنجان قهوة فرأيتة جالسا وحده ،
بدينا عملاقا ، ومعطفه مثنى على ظهر كرسى الى جانبه • عرفته
من أول نظرة ، وخيل الى أنه لم يتغير كثيرا رغم أنه كان فى
الستين ، حتى شعر رأسه ظل أسود عدا سوايفه • وأقبلت
عليه باسماء فنظر الى "بانكار ولكنه صافحنى ، فلما ذكرته
بالمدرسة الابتدائية والزعامة تهل وجهه ودعانى للجلوس
فجلست • قلت له :

— عيني عليك باردة ، لم تتغير •

فقال ضاحكا :

— أنا من أسرة معمرين لا يموتون الا في الحوادث •

وذكرته بالزملاء وأخبرته عن المصائر، فأتضح أنه لا يعرف
الا رضا حمادة معرفة غير شخصية • ولما سألته عن حاله رحب
بالحديث جدا كأنما كان يبحث عن متنفس له • قال :

— بعد الابتدائية التحقت بالمدرسة الثانوية في أسيوط
لانتقال أبي اليها ، ولكنى رفت في عهد محمد محمود ،
ورجعت في عهد النحاس ، ثم رفت مرة أخرى في حكم
صدقي ، ثم اتهمت في قضية شروع في اغتياله وسجننت ،
حكم على "ب عشرة أعوام ولكنى خرجت بعفو في حكومة النحاس
التي عقدت المعاهدة ، ووجدت أنه من العبث أن أحاول اتمام
دراستي الثانوية فعيننى الوفد وكيلا لجريدة الجهاد في
الاسكندرية ••

وسكت قليلا متجهم الوجه لذكريات لا أدرى بها ثم
قال :

— لم أحزن في حياتى مثلما حزنت للخلاف بين مصطفى
النحاس والنقراشى ، كان النحاس زعيمى ، وكان النقراشى أبى
الروحى ، ولم أتصور الدنيا سالحة للحياة مع وجود عداوة
بين الرجلين ، وسارت الأحداث في المجرى الذى تذكره ،
فبلغ بى التقزز مداه • ولما كانت المعاهدة قد ختمت ثورة

١٩١٩ وتحقق لنا الاستقلال ولو بعد حين ، فقد قررت اعتزال السياسة ، وصادف ذلك وفاة أبى ووراثتى لقدر لا بأس به من المال ففتحت مطعم سمك فى سبدي جابر وفتح الله على ..

— اذن اعتزلت السياسة ؟

— منذ عام ١٩٣٧ •

ثم وهو يعتدل فى اهتمام :

— ولكنى لم أنقطع عن متابعة الأحداث ، لعلى السماك الوحيد الذى يفلح الجريدة قبل أن يقول يا فتاح يا عليم ..

ثم وهو يهز رأسه فى أسى :

— وكنت أتابع تدهور الأحوال بحزن ، وكلما تسال الى الوفد ضعف أو انصرف عنه جيل من الشباب تقطع قلبى ، ولكن ما باليد حيلة ..

فقلت :

— لكل شىء شباب وشيخوخة ، تلك سنة الحياة •

— ولكن الوفد فى حياتنا بمثل عصر الفتوة والبعث ، دلى على أى فترة تاريخية منذ عهد ما قبل الأسر حتى اليوم ساد فيها الشعب وتعلق كما ساد وتعلق أيام الوفد ؟

ثم وهو يضحك :

— ولما قامت ثورة يوليو حمدت الله على القرار الذى اتخذته بملء حريتى قبل أن أرغم عليه أو على ما هو أسوأ منه ..

— ولكنك قدرت للثورة أعمالها المجيدة بلا شك ؟
— الاعتراف بالحق فضيلة ، ولكنى لا أعتقر لها محاولة
المنيل من زعامة سعد زغلول •
فقلت :

— للسياسة مقتضياتها ، وأظنك لا تنسى موقف مصطفى
كامل من أحمد عرابى •
فسألتني باهتمام :

— هل شاهدت جنازة مصطفى النحاس ؟ • كانت رد
اعتبار شعبى لسعد وللوفد ولأكبر ثورة شعبية فى حياتنا ••
وأخبرنى أنه يزور القاهرة من حين لآخر منذ عامين
لانتقال كريمته اليها بحكم الزواج ، ثم حدثنى عن أسرته
فقال :

— ابنى الأكبر سماك مثلى ، الأوسط مهندس ، الأصغر
ضابط طيار ••

ومنذ ذلك التاريخ واظبت لدى كل تصيفة فى الاسكندرية
على تناول العشاء ولو مرة فى مطعم زعيمى القديم • وفى
صيف عام ١٩٦٩ وجدته حزينا على خير عاقته • وقال لى :

— فى أواخر العام الماضى هاجر ابنى المهندس الى
كندا !

ثم بنبرة متهدجة :

— وفى شتاء هذا العام استشهد ابنى الطيار فى سبيل
الوطن !

هجار المياوى

كان الشيخ هجار المياوى مدرس اللغة العربية فى مدرستنا الابتدائية ، ولحق بنا فى المدرسة الثانوية ، وكان من أهل الصعيد ، ينطق بلهجتهم ، قوى البنيان طويل القامة غامق السمرة ، قليل العناية بمظهره ، فعمته أصغر مما ينبغى ولا ذوق له فى اختيار ألوان الجبة والقفطان ، ولكنه كان يفرض الاحترام بقوة شخصيته والتمكن من مادته وشجاعته الفائقة ، ولم يكن مترمما ، كان يحب النكتة ، ويروى لنا جميع الأشعار ، ومرة تبارى فى فناء المدرسة مع مدرسى الرياضة البدنية فى التحطيب ، فلعب بعصاه برشاقة أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حاد . ومرة دخل جعفر خليل الفصل متأخرا بعد أن انتظما فى مجالسنا ، وكعادته فى حب المزاح ، قلد أستاذنا فقال له :

— عم صباحاً •

وضحك الفصل وأنبسط جعفر ، وتركه الشيخ هجار حتى جلس ، ثم ناداه :

— جعفر خليل •

فوقف فقال له بهدوء :

— أعرب « عم صباحاً » •

وعجز جعفر عن اعرابها ففتح الشيخ دفتر يومية التلاميذ
وأعطاه صفرا ، فاحتج جعفر قائلاً :

— انها صعبة !

فقال الشيخ بهدوء :

— ولم تستعمل ما لا تفهمه ؟

أما جانبه الجاد فكان فذاً لا يتكرر • كان في المدرسة
الابتدائية — عصر الثورة — مدرسا للغة العربية والوطنية •
فلدى أى مناسبة يفتح باب الحديث الوطنى ، يستعيد الذكريات
المجيدة ، ويشيد بالأبطال ، ونحن نتابعه والدموع في أعينا .
وكان يحدث عن سعد زغلول وكأنه ولى من أولياء الله
أو صاحب معجزات ، معتبرا زعامته رسالة سماوية ومعجزة
تاريخية ، ومنه عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد ،
ومهارته في المحاماة ، ومواقفه في نظارة المعارف ونظارة
الحقانية ، وزعامته ، وتحديه اقوة الانجليز ، وسحره وبلاغته ،
وما ينتظر البلاد على يديه ، وكان يقول :

— ببلاغته عبأ الشعور ، وباسمه قامت الثورة ••

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول :

— هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة •

وكنّا نحبه بقدر ما نجله ، وننتقى عنه الوطنية والأصالة ،
وبفضله أحببنا اللغة العربية وعشقنا أشعارها •

وفي المدرسة الثانوية تغير مذاق الجهاد ، فتوارت عنا
وجوه الانجليز وبرزت في الصورة وجوه المصريين الموالين

لهم ، واحتلت الحزبية المكان الأول فى الصراع ، وخاض الشيخ
المعركة الجديدة بنفس القوة والصلابة ، وكان يقول :

— المعركة هى المعركة ولكن الأعداء ازدادوا عددا فوجب
علينا مضاعفة الجهاد •

و يوم أضرينا على عهد محمد محمود ، اليوم الذى
استشهد فيه بدر الزياى ، أخرجه ناظر المدرسة فطالبه بأن
يخطب التلاميذ حاثا اياهم على الانتظام فى الدراسة ، وكان
فى طبعه حدة تثور على التحدى وتتفجر غضبا أعمى ، فاعتلى
المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب :

— العلم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس
لكم الا شمائركم فارجعوا اليها ••

وكنت الناظر تقريرا عنه مرفعه الى وزير المعارف وسرعان
ما تقرر فصله • ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم
الطلبة حجرة الناظر حتى اضطر الى الفرار من المدرسة ،
واضطرت الوزارة الى نقله حماية لحياته • وقد عاد الشيخ
الى المدرسة فى عهد الوفد ولكنه فصل مرة أخرى فى عهد
صدقى ، فعمل فى مدرسة بين الجنائين الأهلية التى كان
يملكها رجل وفدى معروف • وفى حكومة المعاهدة تعين مفتشا
بالوزارة وسويت حالته تسوية عادلة • وفى انتخابات ١٩٤٢
رشح نفسه على مبادئ الوفد فنجح ، كما نجح مرة أخرى
عام ١٩٥٠ • وقد التقيت به مرات فى بيت رضا حمادة كما

عرفت بعض أبنائه • ولما صدر قرار حل الأحزاب — بعد ثورة يوليو — رجع الى قريته في الصعيد فلم يبرحها ، ولا أدري ان كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل الى جوار ربه • ومما يذكر أنه في سبتمبر عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ وكنت مارا أمام نادى الجيش القديم بالشاطبي ، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين فى فناء النادى يحيط بهم جند • وسمعت من بعض المارة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون الى القاهرة ، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الاجراءات الضابط محمد هجار ابن شيوخنا القديم هجار المنياوى • تأملت الموقف ، نظرت طويلا الى الابن ، تذكرت الأب ، ثم خيل الى أنى أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملا متناقضاته. المتلازمة •

وداد رشدى

رأيت وداد رشدى لأول مرة عندما جاءت لزيارة كاميليا زهران بإدارة السكرتارية يوما من أيام ١٩٦٥ ، وكانت عملاقة ، تمتد طولاً وعرضاً ، ولكنها رشيقة بالنسبة لحجمها ، وقسماتها كانت كبيرة فى ذاتها ، ولكنها مقبولة وجميلة فى موضعها من الجسم المترامى ، وبصفة عامة يوحى منظرها بالقوة والجمال والطلاقة كتمثال ، وتؤثر نظرة عينيها العسليتين بجراتها غير العادية ، هذا الى جاذبية جنسية نفاذة كالعطر الفواح . وكلما اختلست منها نظرة وجدتها تنظر الى حتى ثارت تساؤلاتى . قدرت عمرها بالثلاثين ، ومن ملاحظة يسراها عرفت أنها متزوجة ، وجعلت أتساءل عما يدعوها الى ملاحقتى بنظراتها ، وكانت علاقتى بأمانى محمد ما زالت فى عنقوانها . وخيل الى أنى عرفت السبب عندما أقبلت هى وكاميليا نحو مكتبى ، جلسنا على كرسيين متقابلين أمام المكتب ، وقالت كاميليا :

— لا مؤاخذه يا أستاذ نريد استطلاع رأيك فى مسألة ؟

فسلمت وأنا أقول :

— تحت أمركما ..

فقلت كاميليا :

— صدبقتى وداد رشدى ، ستحدثك بنفسها ..
وقالت وداد بصوت ناعم واضح ذى درجة عالية تناسب
حجمها :

— المسألة بكل بساطة انى حصلت على ليسانس الحقوق
منذ خمسة أعوام ، لكنى تزوجت ولم ألتوظف ، وزوجى الآن
معار فى الكويت لمدة عام ، وأفكر فى التوظيف فهل يمكن اتمام
ذلك عن طريق ادارة القوى العاملة ؟
فقلت :

— كلا ، ولكن جربى حظك بطلب خاص أو بالاشتراك فى
أى مسابقة يعلن عنها ..

— وأضح أن الأمل فى تلك الحالة ضعيف ..
— لا أقول أنه قوى ، ولكن عليك أن تجربى ..

وقالت كاميليا زهران :

— انها أم لطفلتين ومع ذلك تريد أن تتوظف ..
فقلت وداد :

— جميع زميلاتى متزوجات وموظفات !
فسألته :

— وماذا عن الطفلتين ؟
— لن ألقى متاعب من هذه الناحية ..
— وماذا عن زوجك ؟

— موافق ..

وقالت كاميليا :

— ساعدها بما تستطيعه ..

وزكت وداد نفسها قائلة :

— نحن جيران من الزمن القديم !

فتساءلت بدهشة :

— حقا ؟

— لا تذكر لأنى كنت صغيره ، ذلك تاريخ يرجع الى عشرين

عاما وكنت فى العاشرة ، ثم غادرنا حيكم منذ خمسة عشر عاما

وأنا فى الخامسة عشرة ..

— ذلك تاريخ قديم ولكن ليس جدا فكيف لا أذكرك ؟

— أما أنا فأذكرك كما أذكر رضا حمادة وسرور عبد الباقي

وجعفر خليل الله يرحمه ، وسرور عبد الباقي اليوم هو

دكتورنا المفضل ، وما زلت أذكر وفاة جعفر خليل الغريبة ..

فقلت بحنان :

— يا لها من ذكريات ! ..

وتساءلت كاميليا بمكر :

أرأيت ؟ !

وبعد مرور أسبوع على المقابلة تلفت الى بخصوص

الوظيفة أيضا ولكنى شعرت أنها لم تكن الا مباحكة للمحاوره .

وعجبت ماذا تريد العملاقة الجميلة المتزوجة ؟ ، وجعلت أقارن

بينها وبين أمانى محمد ، بل بيتها وبين درية ، واستثار الوجد

فدعا من غيابات الماضى حنان مصطفى وصفاء الكاتب .

وسألتها :

— ألن تزورى كاميليا مرة أخرى ؟

- فسألتنى بصراحة :
- أتريد أن ترانى ؟
- فلم أجد مفرا من أن أقول :
- يسعدنى ذلك ••
- فسألتنى بتحد :
- ولماذا يسعدك ؟
- فانزلقت الى القول :
- مرآك يسعد الأنفس •
- فضحكت وقالت :
- الادارة عندكم مزدحمة وتفوح برائحة الأوراق •
- فارتضيت الهاوية دون تقدير للعواقب وقلت :
- اذن ليكن فى مكان هادى •
- أتحب الأماكن الهادئة ؟
- جدا ••
- بشرط !
- أفندم ؟
- أن تجىء بنية طيبة •
- طبعاً •
- تذكر ذلك •
- وعد •
- فما أهذا مكان فى نظرك ؟
- حديقة الأسماك ••
- ووجدتها تنتظر بلا ارتباك ولا حياء • بلا ارتباك ولا حياء

كأنما تنتظر زوجها أو أخاها • وسرنا معا في شبه خلاء ، حتى
اخترنا مجاسا تحت سفح الهضبة ، وقالت :

— لعلك تسائل نفسك عن ببر المرأة الجريئة التي رمت
بنفسها في طريقك بلا سياسة ولا لباقة ؟

فقلت بسرور والرغبات تراقصني :

— ما دمت سعيدا فلا معنى للتساؤل •
فقلت ضاحكة :

— لا تنس شرطى !

— أنا متذكره •

فقلت بجدية :

— يجب أن تعرف أنني امرأة محترمة وزوجة مخلصه •

فقلت وأنا أستشعر شيئا من القلق :

— لا جدال في ذلك فعيني بصيرة ، وسن الطيش ودعتها

من قبل أن تفارقي حينا !

— تكلم عن ذلك العهد باحترام وعاطفة من فضلك •

— له الاحترام والحب الى الأبد ••

فابتسمت بجرأة لم أعرفها من قبل وقالت :

— لم أقابلك مصادفة ••

— حقا ؟

— كاميلينا حدثتني عن زملائها ، وعندما سمعت اسمك ••

ماذا أقول ؟ قررت أن أقابلك ••

— ولكنك ترغبين في التوظيف •

— لا أهمية لذلك ••



— لا تتركينى فريسة للحيرة ..

وهى تضحك فى سعادة ناطقة :

— أنا أعرفك منذ عشرين سنة !

— أجل ..

— كنت من سكان العمارة الخضراء ، تذكرها ؟

— أمام السبيل بالشارع العمومى !

فقالت بعتاب :

— ولكنى كنت فى العاشرة فلم تنتبه الى ..

— كنا نمر تحت العمارة ولا نوقف لنا تحتها وسن

العاشرة ..

— وسن العاشرة لا يستلفت النظر ، ولكنى بلغت الثالثة

عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ولم تنتبه ..

— سوء الحظ اذا استحكم ..

— كنت وقتذاك أعتبر سوء الحظ من نصيبى أنا ..

نظرت اليها فى حرج فطالعتنى بنظرة صريحة جريئة

ضاحكة ، وقالت :

— فعلت المستحيل لألفت نظرك ولكنى لم أفلح ..

— يا لها من ذكريات كالأساطير !

— ولكنها حقيقية ، وهى تعيش فى أعماق كخية لا دواء

لها ..

فقلت بارتياك :

— لعلك تبالغين ..

— أبدا ، كل كلام الدنيا لا شيء بالقياس الى حقيقة ذلك
الماضى •

وكنت أصغى بارتياح وافتتان وبلا عاطفة ، وبصراحتها
العملاقة سألتنى :

— أحق ما يقال عن الحب الأول من أنه لا يفنى أبدا ؟
وتذكرت فى الحال حنان ، وصفاء ، ورجعت الى قلبي
الخامد ، ثم قلت :

— لا يخلو قول مأثور من حقيقة خالدة !
فقلت بحرارة :
— انه عاطفة ساحرة لا تتكرر ولذلك لا يمكن ان
ينسى ••

— وما فائدة ذلك ؟

— لا فائدة •

— ولكنك زوجة سعيدة •

فقلت بأسى :

— أجل ، لا أحب أن أكون جاحدة ، ولكن العين تثبت
على ما ينقصها ••

— لذلك فالسعادة حكمة عسيرة •

— زوجى رجل كامل ، انه مثال تتمناه أى امرأة ، ولكنه
لا يشاركنى ميولى الخيالية ، أشعر أحيانا بالوحدة ، وتعصنى
أحيانا خيبتى القديمة !

وضحكت ثم استدركت :

- عندي تخمة من البسعادة ولكن روحي ظمأى !
فسألتها :
- ما عمر زوجك ؟
— أربعون عاما !
- أنت في جنة ولا يجوز لك أن تحلمى !
فقطبت قليلا ثم قالت :
- أنت كبرت ، وأراهن أنك لم تعرف الحب !
ترى أين صفاء ؟ ، أما زلت على قيد الحياة ؟ ، وهل يمكن
— لو صادفتها — أن يجرى بيننا مثل هذا الحديث ؟ ! ،
وتراجعت قائلة :
- لا مؤاخذه ، صراحتي تخرجني أحيانا عن حدود
اللياقة ، ولكني توقعت أن تحترم عواطفى ..
فقلت بحرارة :
- انى أحترمها من أعماق قلبي ..
بحالات بتأثر وامتنان :
- أشكرك .
ثم واصلت :
- أرجو ألا ينقطع الاتصال بيننا ، أيضايقك ذلك ؟
— سأسعد به فوق ما تتصورين !
- اتصال روحي لن يمس احترامنا لأنفسنا .
— اقتراح عذب أقبله على العين والرأس .
- وليكن التليفون وسيلتنا حتى لا نتعرض لمظلم
لا نستحقه .

— كما تشائين •

— ألا إذا غلبنى شوق فسنتقابل خطفا •

— ما أجمل أن نتقابل ولو خطفا •

ومنذ ذلك اللقاء فتحت لى حياة جديدة أبوابها فدخلتها
مدفوعا بالحنان والتعلق بالذكريات وحب الاستطلاع ،
وعايشة روابطها العائلية ومشكلاتها اليومية وما ترخر به من
أبوة وأمومة وبنوة ، وارتباطات عاطفية بل وجنسية ، وخلافات
ومسرات وأمراض وأحلام وأهواء من كل شكل ولون •
وداد بعد من أبعاد حياتى لا يدرى به أحد ولكنه جزء
من كينونتى لا يتجزأ •

يبتريه بثشير

يرجعنى الاسم الى مهد الطفولة ، ميدان بيت القاضى
وأشجار البلخ المثقلة بأعشاش العصافير ، ومن نافذة جانبية
كنت أطل وأنا طفل على حارة قرمز % وهى حارة مبلطة تتحدر
فى هبوط ، وعند منعطف منها يقوم بيت آل بشير • كنت فى
السابعة أو الثامنة ، وكان يعجبنى منظر الشيخ بشير وهو
يجلس أمام مدخل بيته فى العصارى يسبح ، يضىء المكان
ببشرته البيضاء ولحيته الشبية والألوان الزاهية التى تعرضها
همامته وجبته وقفطانه • وعندما يمضى الى ميدان بيت القاضى
فى طريقه الى الكلوب المصرى تظهر فى النافذة يسرية • لعلها
كانت فى السادسة عشرة أو نحو ذلك ، يتجلى منها وجه
كالقمر ، أبيض بهيج مريح مضى يتوجه شعر فاحم ، وتتادىنى
بصوت ناعم وتمازحنى وأنا أتطلع اليها سعيدا راضيا وعاشقا
أن جاز لابن سبع أن يعشق • والحق لا يمكن تفسير تعلقى
بها إلا بالعشق ، فما كانت قريبة ولا من سنى ، ولا أهدتنى
يوما لعبة أو قطعة من الحلوى ، ولا تحدثت بجمال وجهها •
وكانت تغرينى أحيانا بالذهاب اليها فأتسلل من البيت الى
الحارة ولكن الخادمة كانت تدركنى فى اللحظة المناسبة

وتحملنى الى البيت وأنا أبكى وأرفس دون جدوى • ويوما
أمطرت السماء ، ووقفت فى النافذة أرقب المطر وهو ينهمر
فوق أديم الحارة ويجرى نهرا ليصب فى القبو القديم .
وما لبث ان ارتفع مستوى الماء حتى غطى وجه الأرض وانقلبت
قرمز جدولا راكدا يستحيل عبوره الا بالحمالين أو بالكارو •
ومن خلال الأمطار المنهمرة رأيت يسرية واقفة أيضا فى النافذة
وهى تشير الى فخطرت لى فكرة قررت فى الحال تنفيذها •
فصعدت سرا الى السطح وحملت طست غسيل نحاسى ومقشاة
ذات يد خشبية طويلة ومضيت بها الى الطريق ، ثم أرسيت
الطست فوق سطح الماء ووثبت اليه وجعلت أدفعه بالمقشاة
فيسبح نحو بيت بشير ، وانتبهت الخادمة ولكن بعد فوات
الأوان ، لم تستطع تلك المرة أن تخوض الماء الى فوقفت
عند ناصية الحارة تنادى ولا مجيب • وغادرت الطست عند
باب آل بشير المثبت فوقه تمساح مخنط ، ومركت الى
الداخل حافيا متشبع الجلابب بالماء ، وقابلتنى يسرية عند
رأس السلم فقادتتنى الى الحجرة ، وأجلستنى قبالتها على
كتبة تركية ، وراحت تداعب شعري برقة وأنا غارس عيني
فى وجهها المضىء ، ولا شك أننى رغم الجهد والبلل شعرت
بالظفر والسعادة بين يديها ، وأرادت أن تسلينى فتناولت
راحتى وبسنتها وهى تقول :

— سأقرأ لك الطالع !

وراحت تتابع خطوط كفى وتقرأ الغيب ولكننى استغرقنت
بكل وعيى فى وجهها الجميل •

مكتبة فخر

سعيد جوده السحار وشركاه

تقدم قائمة بمؤلفات عمالقة القصة المصرية

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة
عش الاقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية
رادوبيس	١٩٤٣	رواية تاريخية
كفاح طيبة	١٩٤٤	رواية تاريخية
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية
خان الحليلي	١٩٤٦	رواية
زقاق المدق	١٩٤٧	رواية
السراب	١٩٤٨	رواية
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية
بين القصرين	١٩٥٦	رواية
قصر الشوق	١٩٥٧	رواية
السكرية	١٩٥٧	رواية
بالص والكلاب	١٩٦١	رواية
السمان والخريف	١٩٦٢	رواية
دنيا الله	١٩٦٢	مجموعة
الطريق	١٩٦٤	رواية
بيت سيء السمعة	١٩٦٥	مجموعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية
ثرثرة فوق النيل	١٩٦٦	رواية
ميرامار	١٩٦٧	رواية
		العاشرة
		١٩٧٩
		العاشرة
		١٩٨٢
		العاشرة
		١٩٨١
		العاشرة
		١٩٧٩
		الحادية عشرة
		١٩٧٩
		العاشرة
		١٩٧٩
		العاشرة
		١٩٨٢
		الحادية عشرة
		١٩٨٢
		الثالثة عشرة
		١٩٨٢
		الثانية عشرة
		١٩٨٣
		الثانية عشرة
		١٩٨٤
		الحادية عشرة
		١٩٨٤
		التاسعة
		١٩٨٠
		السابعة
		١٩٧٨
		الخامسة
		١٩٧٨
		السابعة
		١٩٨١
		السابعة
		١٩٨٣
		السابعة
		١٩٨٢
		السادسة
		١٩٨٣
		الخامسة
		١٩٧٩

اسم الكتاب	تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعة
خمارة لقط الاسود مجموعة	١٩٦٩	السادسة ١٩٨٠
تحت المظلة مجموعة	١٩٦٩	الخامسة ١٩٧٨
حكاية بلا بداية ولا نهاية مجموعة	١٩٧١	السادسة ١٩٨٤
شهر العسل مجموعة	١٩٧١	السادسة ١٩٨٢
المرايا رواية	١٩٧٢	الرابعة ١٩٨٠
الحب تحت المطر رواية	١٩٧٣	الرابعة ١٩٨٠
الجريمة مجموعة	١٩٧٣	الرابعة ١٩٨٢
الكرنك رواية	١٩٧٤	السادسة ١٩٨٢
حكايات حارتنا رواية	١٩٧٥	الخامسة ١٩٨٤
تلب الليل رواية	١٩٧٥	الثالثة ١٩٨١
حضرة المحترم رواية	١٩٧٥	الرابعة ١٩٨٣
لحمة الحرافيش رواية	١٩٧٧	الثانية ١٩٨٢
حب فوق هضبة الهرم مجموعة	١٩٧٩	الثالثة ١٩٨٤
الشیطان يعظ مجموعة	١٩٧٩	الثانية ١٩٨٢
عصر الحب رواية	١٩٨٠	
افراح القبة رواية	١٩٨١	الثانية ١٩٨٣
ليالى الف ليلة رواية	١٩٨٢	الثانية ١٩٨٣
يايت فيما يرى النائم مجموعة	١٩٨٢	
الباقى من الزمن ساعة رواية	١٩٨٢	
امام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	
رحلة ابن فطومة رواية	١٩٨٣	

سنت الطبع

الجهاز السرى مجموعة
 العائش فى الحقيقة رواية
 يوم قتل الزعيم رواية
 حديثك الصباح والمساء رواية

دار مصر للطباعة
شعبه موهبة السخار وشركاه
٣٧ شارع كامل صندوق - القبة
٩٠٥١٤٧ - ٩٠٧٥٩٢

رقم الايداع ١٥٧٩
الترقيم الدولي ٥ - ١٠٠ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

Bibliotheca Alexandrina



0361591

الشمس ١٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه